

سليمان سامي الجوخدار

رسائل الإحسان

كريم زين

سليمان سامي الجوخدار

رسائل العلوم

دار الفكر المعاصر
دار الفكر



1446هـ دار الفكر 2024 م

سليمان سامي الجوخدار

رسائل الإحسان

تأليف: كريم زين

الرقم الاصطلاحي: 12587.032
الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-36-465-6
الرقم الموضوعي: 814 (المقالة والخاطرة)
236 ص، 28x20 سم
الطبعة الأولى: 1446هـ = 2024 م




info@darfikr.net www.darfikr.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

[يونس: 26]

رسائلُ الإحسان

طريق أمن لكل المخلصين الساعين لنشر حقيقة

إلهية واحدة توصل إلى سعادة أبدية دائمة

قصة هذا الكتاب

هذه القصة بدأت عندما قمت في عام 1991م بنشر الترجمة الفرنسية لرسالة في «عيوب النفس ومداواتها» للشيخ الصوفي أبي عبد الرحمن السلمي (325 - 412 هـ نيسابور)، حيث كان لدي شغف بالفلسفة وباللغة العربية.

وكنتُ بصفتي طالباً شاباً في سويسرا، أرغب في إعادة التواصل مع جذوري العربية والإسلامية؛ لذا كنت أحرص على حضور المناسبات العائلية بدمشق لوجود فرع من العائلة هناك، وبمناسبة حفل زفاف عائلي أقيم في دمشق، اجتمعت بعد غياب طويل مع ابنة عم لي، وعندما عَلِمَتْ بشغفي بالفلسفة وباللغة العربية قالت لي: لا بد أن أدلّك على من تجد عنده ضالتك، وهكذا كان لقائي الأول مع سليمان سامي الجوخدار.

هذا اللقاء كان بداية صداقة طويلة وصادقة استمرت أكثر من 30 عاماً، وبقي اللقاء بيننا متواصلاً حتى السنوات الأخيرة من حياته، حيث كنت أزوره بانتظام في منزله بدمشق.

ومن خلال هذا اللقاء اجتمعت عنده بصديق له كان عنده اهتمام بعمل الساعات الشمسية التي كانت منتشرة في أغلب مساجد دمشق قبل ظهور الساعات الميكانيكية الحديثة، حيث قصد صديقي سليمان سامي الجوخدار؛ لأنه ضليع بعلوم كثيرة، منها علم الفلك؛ للتعرف على تلك الساعة الشمسية، والتي كانت من أهم ما رأيته في هذا المجال، وهكذا كان لقائي مع صديقي الذي أصبحت معه فيما بعد من مريدي وأحباب أستاذنا سليمان .

أمّا عن صديقي، فقد وُلد في بيت من بيوت دمشق القديمة؛ حيث كان يعيش في هذا البيت جده (وهو من مشاهير علماء ومشايخ الشام) مع جدته وأبيه وأمه، إضافة إلى سبعة إخوة منهن أربع أخوات، ومع كبر هذه العائلة كان الجد يولي اهتماماً خاصاً بصديقي، حتى إنه أوصى بمكتبته العامرة له دون غيره من إخوته.

بعد وفاة ذاك الجد بدأ صديقي في البحث في هذه المكتبة، ليجد فيها كنوزاً من الكتب التي تحوي علوماً شتى، كان أغلب هذه الكتب من أمهات كتب التفسير وعلوم القرآن الكريم، وغيرها من التاريخ والفلسفة الصوفية، إضافة إلى قسم من المخطوطات، كان منها مخطوطة في علم الفلك وجد فيها صديقي بحثاً خاصاً عن نوع من الساعات الشمسية، يسمى بالربع المقنطر.

في إحدى زيارتي لذاك الصديق في بيته الكائن في دمشق القديمة، روى لي: كيف كانت هذه المخطوطة بداية بحثه، ليس فقط للساعات الشمسية، بل للبحث عن علوم كثيرة كان يظن أنها ضاعت ولم يبقَ منها في زماننا إلا أصداء عنها، ولكنه فوجئ وبشكل مدهش؛ أنه وجدها عند

أستاذنا سليمان (وهذا ما حصل معي تماماً)؛ لذا توطدت علاقتي مع ذلك الصديق، وأصبحنا من مريدي وأحباب أستاذنا سليمان سامي الجوخدار؛ لأننا وجدنا عنده ضالتنا، كذلك لِما وجدنا من علمٍ عنده ـ جمع بين الغرب والشرق ـ وثقافة هائلة ورؤية فلسفية للحياة، وتراث تقليدي كان يحمله من عائلته، إضافة إلى أنه فتح عيوننا على حياة جديدة متكاملة من خلال طريقة تفكير متطورة، وبدأنا سوية بفضل أستاذنا حياة جديدة دون أي سبب للتقليد الذي لا معنى له.

ومنذ اللقاء الأول الذي جمعني بذلك الصديق الوفي أصبح سليمان سامي الجوخدار أستاذاً ومربياً لكلٍّ منا، وشيخاً حقيقياً نلتمس علمه وبركته التي لازمتنا طوال حياته وبقيت معنا حتى بعد وفاته.

بعد وفاة أستاذنا رحمه الله قمت أنا وصديقي بعمل مشترك، هدفه الحفاظ على علوم وجدناها عند أستاذنا سليمان ـ رحمه الله ـ كانت ضائعة لا أثر لها في الثقافة المعاصرة، نسأل الله سبحانه أن يعمّ نفعها، وأن تكون لأجيال قادمة نموذجاً لمن يعملون بشكل جاد لإعادة إحياء تراث أصيل ضمن حدود إمكاناتهم، حيث قام صديقي بإصدار كتابين كان أستاذنا قد كتبهما في حياته هما:

1 - الإحسان في تدبر القرآن.

2 - في مجال المعرفة المركزي.

وأنا بدوري قمت بترجمة هذين الكتابين إلى اللغة الإنكليزية.

ثم قام صديقي بجمعه من كتب أستاذنا سليمان سامي الجوخدار، ومما سمعه منه وكتب عنه كتب هي:

1 - سليمان سامي الجوخدار خواطر وأفكار.

2 - سليمان سامي الجوخدار هكذا علّمنا.

3 - سليمان سامي الجوخدار رسائل العلوم، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا اليوم:

4 - سليمان سامي الجوخدار رسائل الإحسان.

وأنا بدوري أحببت أن أضع هذه الكتب بين يدي القراء ليعم نفعها أولاً؛ ثم أتابع الآن بترجمتها إلى الإنكليزية والفرنسية لتتسع دائرة نفعها سائلاً الله سبحانه أن يتقبل منا عملنا وأن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

كريم زين

لمعرفة المزيد يمكن الدخول إلى الرابط التالي:

/https://www.suleiman-:sami-joukhadar.com

تذكرة الرسائل

رسائل الإحسان

إذاً... فلنبدأ

القران الكريم هو مرجعك ودليلك في العالم الحاضر وفي العالم الأهم عالم الحياة الحقيقية، حين تعود نفسك إلى ربها وموجدها سبحانه الذي قال:

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: 28].

لا يمكن أن تتقدم في فهم كلامه سبحانه طالما أن هناك تصوراتٍ لا أساس لها قد تكون في نفسك من حيث لا تدري، عن الله جل وعلا الذي عرَّفَنا عن نفسه قائلاً:

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

ولا يمكن فهم كلامه سبحانه إن كان ثمة معلومات أو تصورات تتدرج من التقريبي والناقص إلى المغلوط وما لا أساس له عن الإسلام وعن نبينا عليه الصلاة والسلام الذي جعله سبحانه رحمة للعالمين و قال عنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

تفهمك لكتاب الله لا بد له من معلومات جوهرية توصلك إلى بيت القصيد وتحرر رأيَك من أي تصور لا يليق بالله جل جلاله أو فهم خاطئ لرسالة الإسلام ولمن حملها لنا عليه الصلاة والسلام.

فهمك لكتاب الله يفتح الطريق أمامك لتكون من أهل السعادة الذين قال عنهم سبحانه:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: 108].

كتاب الله هو طريقك الآمن لمعرفة الحقيقة الإلهية الواحدة التي توصلك إلى سعادة أبدية دائمة وإن كنت على بينة من ذلك إذاً:

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ [الكهف: 71]

إن كنت تسير في طريق وناداك أحدهم باسمك الحقيقي فلا تجد نفسك إلا وقد أجبته وبشكل فطري، ذلك لأن اسمك يدل عليك بالذات دون غيرك، فكيف بك إن ناديت من خلق السموات والأرض باسمه الحقيقي.

انظر كيف نادى سيدنا نوح ربه: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ .. ﴾ وكيف أجابه سبحانه: ﴿.. فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: 75].

ما أكثر الأسماء التي نسبت لله عز وجل وهي من اختراع البشر والتي لا تدل عليه سبحانه أبداً، وما أعظم أن تصل إلى أسماء الله وصفاته الحقيقية التي عرَّفَنَا به سبحانه عن نفسه؛ لأنها من أقصر الطرق التي تُعَرِّفُكَ على الله جل جلاله.

فكرة الصفات الإلهية تجدها في الأسماء الحسنى، وتبدأ بمعرفتك لمعنى الاسم وليس هناك أحسن من الأسماء الحسنى سبيلاً لحسن إيمانك بالله! فقد اختار تعالى عبارة الحسنى لوصف أسمائه، ولا يليق في هذا المقام، إلا القرآن الكريم للتعرف على هذه العبارة التي وصف بها سبحانه أسماءه قائلاً:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: 180].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: 110].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه: 8].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحشر: 24].

الحَسَنُ هو الذي لا عيب فيه، وكذلك أسماء الله الحُسنى.

الحَسَن إضافةً إلى انعدام العيب فيه، يتميز بزيادة جودة الصفات، وكذلك أسماؤه الحسنى.

الإحسان والحسنات عطاء بأحسن ما يكون العطاء ومن غير مقابل. وهل تعلم أن محسناً حقيقياً ينتظر مقابلاً لإحسانه ممن يحسن إليه؟.

كذلك إذ أحسن إليك سبحانه ومَنَّ عليك بمعرفة أسمائه بلا مقابل، عندما يحْسُن بذلك إيمانك فيَحْسُن بذلك ختامك ومثواك الأخير.

أما الإحسان منك تجاه الغني سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون إلا كما ورد في الحديث الشهير والمتفق عليه على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، عندما سأله سيدنا جبريل

عليه السلام، من بعد الإسلام والإيمان، عن الإحسان. فكان الجواب: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» [صحيح البخاري].

ولا يتمّ لك ذلك إلا بمعرفة الأسماء الحسنى، لتكون حاضرة في وجدانك وفي كل حركاتك وسكناتك وكأنك ترى من تشير إليه جل وعلا أنظر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: 31].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ...﴾ [الرعد: 18].

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ...﴾ [الكهف: 88].

إن نظرت وتفكرت في هذه الآيات الكريمة، تجد أن المقصود بـ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الجنة.كذلك الأمر بالنسبة لأسماء الله الحسنى، التي منَّ عليك بها جل جلاله مبشراً متفضلاً إذ قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي...﴾ [البقرة: 186]. وزاد من فضله عليك إذ بيّن لك كيف تستجيب له و تدعوه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا...﴾ [الأعراف: 180]، فاتحاً لك أبواب السعادة: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ...﴾ [الرعد: 18].

وقد وعدك صادق الوعد نبينا عليه الصلاة والسلام «إنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلَّا واحِداً، مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الجَنَّةَ»، وذلك بحُسن إيمانك بالله تعالى من خلال معرفة أسمائه الحسنى، وحُسن التَّخلُّق بها والسلوك بنورها.

انظر كيف أن أعظم آية في القرآن الكريم آيةٌ تبدأ باسمه جل جلاله، وما يليه منها تعريفٌ به[1].

أعظم آية في القرآن الكريم هي كذلك آيةٌ لا تخرج عن فكرة اسم الله؛ إذ فيها اسم الله الأعظم كما أخبرنا خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام[2].

كذلك عندما يَرِدُ اسمٌ من الأسماء الحسنى في القرآن الكريم، فإن ذاك الاسم هو الأصل

(1) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255] قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: «وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ» [صحيح مسلم].

(2) عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163] وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾» [سنن الترمذي].

الذي يدور حوله معنى الآيات التي تحويه؛ وهو بيت القصيد من الشاهد الذي يرد فيه، وذاك الاسم تتويج للآيات الكريمة التي تحيط به، والتي ما هي في حقيقتها إلا توضيح له.

لا يمكن لك أبداً فهم القرآن الكريم وفهم آياته ورسالته وأنت جاهل أو متجاهل لأهمية وأولوية أسمائه سبحانه؟ لأن القرآن الكريم عالم شاسع، أبواب كنوز عظمته مفاتيحها من نور أسماء الله، فإن عرفت الأخذ بها وسرت بنورها دخلت، أما إن استهنت بها بقيت على أطراف أسوارها.

أسماؤه جل جلاله هي ذروة العلم الحي، الذي يشمل ما يسمّى «العقيدة» بجميع جوانبها، مختزلاً بحورها بكلمات، إذ أن أسماءَه جواب على أي سؤال يخطر على بالك عنه سبحانه، لأنها هي صفاته، وذِكْرُك لأي اسم من تلك الأسماء يفتح ذاكرتك، دفعة واحدة، ويوفر عليك مسيرة سنين من تدبر الآيات والمواضيع والمفاهيم المرتبطة بذلك الاسْمِ.

الأسماء الحسنى هي الصفات الإلهية التي وصف بها سبحانه نفسه وهي مفاتيح للذاكرة، وهي الاختزال الشديد لمواضيع القرآن الكريم وكل صفة من هذه الصفات تكفي لاسترجاع مسلكي ومنظم وتدريجيّ لبحر من المعلومات، كذلك فإنها تختزل الرسالات الأساسية لمعظم الآيات القرآنية. فما أكثر المقاطع أو المواضيع القرآنية التي تنتهي بما ينقص أو يزيد عن اسمين شريفين أي صفتين من صفاته سبحانه، وهي في حقيقتها تلخيص لما يسبقها.

الأسماء الحسنى هي صفات لله جل جلاله وهي الاختزال المعجز ومفاتيح الذاكرة التي تمثل عِلماً حيّاً صحيحاً حقيقيّاً وشديدَ الاختزال، تأمل في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: 24] كيف ذكر سبحانه بين أسمائه ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾، وبين اسميه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ من ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكم في ذلك من دليلٍ على عظمة أسمائه وصفاته جل جلاله.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أنك:

بأسماء الله وصفاته الحقيقية تنادي من خلق السموات والأرض وكم هي نعمة وفضل منه سبحانه أن عرَّفَكَ بها.

أنت وكل الموجودات من حولك، كان معدوماً ولم يكن شيئاً، ثم أوجده الله الواجد جل جلاله وهذه المسألة اختصرها لك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:

«كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ» [صحيح البخاري]، فهناك الموجودات من كل ما ترى وهناك الواجد جل جلاله الذي أوجد كل شيء، وأنشأه من غير سابق مثال عليه، وتجد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40]، ومن عنده سبحانه اللحظة الأولى عند انطلاق وإيجاد كل شيء.

وجودك الآن وفي أي لحظة هو بترتيب الواجد جل جلاله الذي أوجدك من العدم بقدرته التي لا حدود لها، فهو سبحانه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16]، وإرادته نفذت فأوجدت من العدم كل شيء، وكما أن الله جل جلاله هو الواجد سبحانه الذي أوجد الموجودات فهو كذلك قادر كما أوجدها أن يعدمها إن شاء ذلك سبحانه، ولكي يبقى ذلك الوجود بأسره فقد رهن سبحانه وجود أي موجود باستمرار خلقه له سبحانه.

الله هو الخالق جل جلاله الذي يخلق في كلّ لحظة، ومتى توقف عن خلق أي شيء تلاشى هذا الشيء، وكذلك إن غَيَّرَ سبحانه في خَلْقِ هذا الشيء تَغيَّرَ، وإن استمرَّ وجود خَلْقِ هذا الشيء في مكان آخر وُجِدَ هذا الشيءُ في مكان آخر، وإن انقطع مدد خلقه سبحانه عن أي مخلوق تلاشى ذلك المخلوق.

أيّ موجود ما هو موجود إلا بمدد الخالق، وأي شيء عدا الله تعالى فهو مخلوق.

أي شيء موجود فإن وجوده رهن خلقه المستمر له سبحانه بكل لحظة، وإن توقف سبحانه عن هذا الخلق لحظة تلاشى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 3].

كل مرحلة من مراحل الخلق ما هي إلا إيجاد وخلق، وحين نقول: خلق على مراحل، فهذا من منظار عالمنا، أي مرحلة إن لم تتدخل إرادته سبحانه وتعالى بالخلق والإيجاد تقف..!!

والآن تَفَكَّرْ ببداية الخلق وعظمة الخالق سبحانه وتعالى، تجد أن الله هو:

الواجد جل جلاله الذي أوجد كل شيء وهذا الإيجاد مستمر بمدد الخالق جل جلاله:

ثم إنه جل وعلا فَصَلَ المخلوقات بمكوناتها بعضها عن بعض، وباعد بين أنماطها وأشكالها لأنه هو:

البارئ جل جلاله الذي أوجد وخلق الشيء ثم أعطاه كيانه المستقل، وفَصَلَهُ وباعد بينه وبين أي شيء آخر بحيث لم يعد له أي انتماء أو علاقة بغيره، وقد تمّ هذا الأمر على أحسن وجه وبأحسن ما يمكن أن يكون، وإن صحت العبارة، أعطاه هويته الخاصة به ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر: 24].

فبِتَدَبُّرِكَ لمثل هذه المعاني يتوجه عقلكَ لتفكير كوني ويذهب بك بعيداً في المكان والزمان خاصة، وتصل لإيمان عميق أن الله هو البارئ جل جلاله الذي أوجد وخلق كل شيء وميَّزه بعضه عن بعض على أكمل وجه، وهو الذي أتم بناءه بأحسن ما يمكن ودون أي تخريب أو عيب؛ بل على التمام والكمال.

الله هو البارئ جل جلاله الذي يعطي كياناً مستقلًّا للشيء الذي هو سبحانه أوجده وخلقه أصلاً.

ثم إن تكرم عليك سبحانه وتدبرت كل ما سبق تجد أن الله هو:

المصور جل جلاله الذي أعطى صورة وشكل أي مخلوق كان، بعد أن أعطاه كيانه المستقل بدقة وانسجام كامل، من حيث خصائص النِّسَبِ والأبعاد والجماليات العالية، وأي مخلوق في هذا الكون شكله منسجم غاية الانسجام في كل خصائصه مع غيره، وهذا الشكل له ضوابط هندسية ورقمية، وهذا بحدِّ ذاته إعجاز لا طاقة لمخلوق به، وكلما توغلت في اعتبارات الشكل في الخلق أدركت عظمة المُصوِّر جل جلاله الذي لا يمكن لأحدٍ غيره عمل ذلك، وكم في مثل هذا التفكير من خير لك ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: 54].

ثم إذا تابعتَ ونظرتَ في قوله تعالى:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117] تجد أن الله هو:

البديع جل جلاله الذي أوجد وخلق كل شيء على غير فكرة سابقة، وهذا الإبداع الذي لا سابق له تجد مثالاً له في إبداع البديع جل جلاله السماوات والأرض. وإن تفكرت في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو سموٌّ بعقلك البشري إلى مفهوم مجرد وكونيٍّ عنه جل وعلا، ولتصل لمثل هذه المفاهيم المجردة عليك الاعتقاد والوعي التام أن الله تعالى هو:

الواجد جل جلاله الذي أوجد كل شيء من العدم.

وأنه تعالى هو الخالق الذي وجود أي موجود كان مرهون باستمرار خلقه له.

وأنه البارئ سبحانه الذي أعطى لكل خلق من خلقه كيانه المستقل.

وأنه المصور جل وعلا الذي أعطى لكل خلق من خلقه ليس فحسب كيانه المستقل بل أعطاه الصورة التي هو عليها كما في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 8].

وأنه البديع جل جلاله الذي أبدع فكرة كل ذلك بشكل لا سابق له من الإيجاد إلى الخلق إلى البرء إلى التصوير، والإبداع يكمن في السبق والابتكار في الفكرة والمفهوم وليس إيجاد عين الشيء أو الأمر أو مادته، وإنما فكرة هذا الشيء أو هذا الأمر.

وأخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

اعتقادك بأن الله تعالى هو الواجد والخالق والبارئ والمصور والبديع جل جلاله بهذا الاعتقاد يحسن إيمانك، وعندها تُحسن التصرف بكل الموجودات لعلمك بعظمة موجدها.



الصحابي الجليل أَبُو مُوسَى حدث عن نبينا قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ:

«أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ».

فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:

«قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ» [مسند أحمد].

وقد عَرَّفَ نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرياء بقوله: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ».قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ؛ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً» [مسند أحمد].

من أخطر ما يعتري نفوس السالكين إلى الله هو الرياء الخفي وقد تطرق لعلاجه أكابر العارفين ومنهم الإمام الغزالي رحمه الله الذي أفرد له فصلاً كاملاً في كتاب الإحياء أسماه (بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل).

إن اعتراك هذا الرياء ورأيت نفسك أسيرةً له، وأحببت أن تصل إلى علاج هذه المرض القاتل للنفوس فاسعَ إلى صفات الله تعالى التي منَّ بها عليك لأن فيها خلاصك من هذه العلة.

انظر في قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: 163] تجد بصريح الآية أن الله هو الخافض والرافع جل جلاله، وهو وحده الذي يقرر الدرجات والمقامات ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو العليم البصير بكل عمل تعمله، وهو وحده الذي يخفض ويرفع في درجات عباده أو أيّ شيء، وسترى ذلك جلياً يوم الحساب؛ لذا قال سبحانه عن القيامة أنها ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: 3].

وعليك بتمام اليقين أنه العليم الحكيم العدل المقسط جل جلاله، هو وحده أدرى بتقييم خلقه وأنت منهم، وهو كذلك عزيز قيوم حكم، أمره سابق وكلّ ما سواه لاحق.

إياك أن تقيّم أي عمل تعمله ثم تضع به مكانة روحية لك، أو درجة معينة في الآخرة، أو أن يصل بك الأمر لتظن نفسك من الأولياء والصالحين، وهذا من أخطر أمراض الرياء ضمن النفس البشرية.

لا يستطيع أحد أن يفرض بعمله مقامه أو درجاته عند الله جل وعلا؛ لأنه هو وحده الخافض والرافع جل جلاله يخفض ويرفع في درجات من يشاء من عباده ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83] .

السعي لخلاصك ليس من مرض الرياء فحسب بل من كل أمراض النفس بحاجة منك إلى سلوك روحي حقيقي، وذلك بتعظيم الله تعالى وبالعبودية المطلقة وانعدام الأنا عندك، وإلى التبرؤ التام من حولك وقوتك، وأن تكون على سنة نبينا الذي بشره سبحانه بمغفرة ذنوبه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2] إلا أنه صلوات الله عليه قال: «وَاللهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي» [صحيح البخاري] وقوله هذا من الأدلة الدالة على صدقه وعدم تقوُّله على الله بلا علم، وتعليم لنا جميعاً أن لا نضع مكانة أو درجة روحية لنا لا في الدنيا ولا في الآخرة.

واعلم أن مرض الرياء يظهر في النفس بأشكال كثيرة منها السعي للعزة والرفعة بين الناس بثوب التواضع والعمل للآخرين، فإن أردت تمام الشفاء من هذا المرض القاتل فاعلم أنه بمشيئته سبحانه يعز ويذل من يشاء من خلقه في هذه الحياة الدنيا، ويوم القيامة يرفع ويخفض في درجات عباده، وشاءت إرادته سبحانه أن يجعل نتيجة الرفع: العزّ، ونتيجة الخفض: الذلّ، لمن شاء من عباده.

إيمانك بأن الله وحده المعز جل جلاله يجعلك في راحة وسلامة نفس من أشد أنواع الرياء أي من الغيرة أو الحسد أو الاعتراض على من شاء له سبحانه العز.

كذلك إيمانك ويقينك أنه الله هو المذل جل جلاله يعطيك ثقة بحكم الله وتواضعاً وخشية من أن يذلّك الله إن أذللت أحداً من خلقه أو أذللت نفسك لغيره، ويجعلك تسعى لأن تكون من الذي قال عنهم سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: 26].

كن دائم النظر إلى خلق الله سبحانه، وأنت منهم، كيف من عظمته خلق الناس وجعلهم ذكوراً وإناثاً وشعوباً وقبائل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: 13] وقسم الحياة بين خلقه ليتمكن الناس من العيش فيما بينهم ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: 32] وميز بين خلقه فرفع بعضهم فوق بعض بدرجات

ومراتب ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: 32] وسخر كلًّا منهم بعمل يعمله للآخرين ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: 32] وذلك كله ليُمْكِنَ للحياة أن تبقى وتستمر.

الله جل وعلا خلقه متنوع، وهذا التنوع في الخلق يصدر عنه بالضرورة المراتب والدرجات، وهو المعز وهو المذل جل جلاله الذي وحده يقرر المراتب والدرجات بين خلقه، لأنه مالك الملك والأمر له تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: 26]، فإن كنت دائم التفكر في أن الله هو وحده:

الخافض والرافع والمعز والمذل جل جلاله عندها ترى حكمة الله في تنوع الخلق وفي جعله سبحانه لكل من خلق درجة ومكانة يتميز بها وعندها، لن يتسلل إلى نفسك أي نوع من أمراض الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل، كما قال عنه الإمام الغزالي.

وأخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

دواء الرياء الخفي علمك أن الله هو وحده:

الخافض والرافع والمُعز والمُذل جل جلاله



أيُّ أمرٍ ماديٍّ مُنعتَ عنه ولم تستطع أن تناله، أو وقف حاجزٌ مادي بينك وبين ما تريد أن تصل إليه، وكرهت ذلك، فتذكر قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

وأنت تواجه أي مانع من أنواع الموانع المادية التي وقفت حيال ما تريد، إياك أن تَعظُمَ في قلبك ونفسك إلى حدٍّ قد تنسى فيه الإرادة الإلهية، ويغيب وعيك عنها.

وأنت تواجه أي مانع كان، إياك أن تيأس أو تتراجع أو أن تخضع له؛ لأن الموانع مهما كانت ليست قوى قائمة بذاتها ولا تتمتع بأي استقلالية، بل هي تجلٍّ من تجليات الإرادة الإلهية والله هو وحده المانع جل جلاله، ولا أحد غيره يهيمن حقاً ويسيطر على أي مانع يقف حيالك، وإن أنت توجهت لغير الله أثَّرت هذه الموانع في نفسك وأخذت أبعاداً وأهمية، وعَظُمَتْ في قلبك حتى تكاد تصير شركاً خفياً.

إن وقف أي مانع أمامك فعليك تمام الإدراك أن وراءه هيمنة الله جل وعلا؛ لذا توجه إليه سبحانه ولا تضيع وقتك بالتوجه إلى غيره.

انظر في قوله تعالى عن أولئك الذين: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ...﴾ [الحشر: 2] كيف قال عنهم سبحانه: ﴿...فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ...﴾ [الحشر: 2].

إن مُنعت عن أيِّ أمرٍ مادي كان أو غير مادي وأردتَ الوصول إليه توجه بالكلية إلى الله فهو الفتاح جل جلاله الذي يرفع الحواجز أو الموانع بين أمر وآخر؛ فينتقل ممّا في أحد الطرفين إلى الطرف الآخر.

﴿ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: 26] هو الذي إن شاء أذن لأي أمرٍ إن كان موجوداً بالانتقال من جهة إلى جهة أخرى، أو منعه من الانتقال وحدَّه من كل جهاته، ولا أحد غير الفتاح جل جلاله القادر على ذلك، لأنه سبحانه هو أصلاً حجز ذاك الأمر ورسم له حدوده من كل الجهات، ولولا ذلك لكانت كلّ الأمور ضمن مكونات الخليقة ممزوجة مع بعضها، ولا معنى عندئذ للتباين والانفصال فيما بينها، وطريقة إزالة المانع أو الحاجز بالفتح، والفتح لا يكون بإزالة الشيء دفعة واحدة أو بالإطلاق، وإنما بالمباعدة بين مكوناته. ويمكن لذلك أن يبدأ بشكل صغير وبتسارع شديد ثم ينتشر، ومثال ذلك: جَعْلُ الله سبحانه السماوات سبعاً طباقاً، وجعل بينها حواجز عند الانتقال من سماء إلى أخرى، انظر في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ

أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: 19]. وقوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

في هذه الآيات الكريمة نفي لقوة غير قوة الله في السيطرة على هذه المكونات المختلفة، فهو سبحانه ممسك لها، مسيطر عليها، جعل فيما بينها حواجز أو موانع تفصلها عن بعضها.

الله هو المانع وهو الفتاح جل جلاله فهو سبحانه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وهو وحده المانع الذي يوجد أي مانع وهو الفتاح الذي يرفع أي مانع جل وعلا وانظر كيف قال سبحانه لنبينا: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: 1].

ليكن دعاؤك وتوجهك إلى الله سبحانه كما عَلَّمنا نبينا عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ» [صحيح مسلم]، وإن أحببت أن يفتح الله لك، ليس أبواب السماء فحسب، بل أبواب الجنة، فاحرص على وصية نبينا عليه الصلاة والسلام التي قال فيها:

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ» [صحيح مسلم].

وهذا التوجه يضفي على حياتك جلاء بالرؤية وتوازناً في نفسك، وصحة في موقفك، ويجعلك تحمد الله أن:

المانع هو الفتاح جل جلاله، وأنه حين يُوجِدُ أي مانع أو يرفع أي مانع جل وعلا، فهو بذات الوقت حق، رحمن، رحيم، عدل، عليم، حكيم، تقدست أسمائه وصفاته.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله هو المانع وهو الفتاح جل جلاله؛ لذا إياك أن تيأس أو تتراجع.



إن كنت في مكان تحكم فيه بين الناس وعملك محاسبة الناس والحكم عليهم بالعدل وأردت تحقيق العدالة فيما بينهم، وتكون من الذين قال عنهم سبحانه:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: 58].

اجعل دليلك والمرجع في كل أحكامك الله؛ فهو الحكم وحكمه سبحانه: بقدر الاحتياج وبتناسب وتطابق تام لا زيادة ولا نقصان ولا خلل فيه، ومطابق تماماً للأمر الذي يحكم به، وهو وحده القادر سبحانه أن يصدر أحكامه، ويعلم أبعاد ونتائج هذه الأحكام مع مرور الزمن، لمعرفته التامة ببداية أي أمر ونهايته ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

وتمام الحُكمُ والحِكْمةَ والإحكام لا يكون إلا بمعرفة البدايات والغايات، فالله الأول والآخر سبحانه هو حقاً:﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: 45]، وهو وحده: ﴿يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: 41].

و إن كنت على سنة نبينا الذي قال: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» [سنن النسائي]، وكان الحَكَمُ جل جلاله مرجعك في حكمك على الناس فلن يكون للشيطان عليك سبيل لأنه تعالى قال:

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: 52].

ثم إن تابعت عملك في محاسبة الناس والحكم عليهم فاعلم أن الله هو العدل الذي يحكم ويعدل بحكمه بالمساواة بين جميع خلقه بالطريقة ذاتها وبالقدر ذاته من العدالة والمساواة بينهم، وصفة العدالة عنده سبحانه دائمة متواصلة وحاضرة ظاهرة غالبة لجميع خلقه تجدها في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 108].

العدل جل جلاله، هو الذي أصلاً وضع قوانين العدالة بين جميع البشر وأمر بها سبحانه بقوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: 90]،وقوله تعالى:﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]، ولم يترك جانباً من جوانب الحياة إلا وأمر بالعدل فيه وجعل ذلك دليلاً من دلائل التقوى: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

الأوامر الإلهية برمتها جاءت كي يَنعمَ البشر بالسعادة على هذه الأرض؛ إذ لا سعادة بدون عدالة وهذا قرار من الله العدل جل جلاله ولا بديل غيره:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115].

أما إن تابعت عملك في محاسبة الناس والحكم عليهم فاعلم أن الله هو الحكيم الذي حُكْمُهُ على عباده سبحانه يكون بحِكْمَةٍ، وهذه الحكمة تتطلب علماً و﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 83]، و تمام الحُكم والحِكمَةِ والإحكام يكون بمعرفة البدايات والغايات، ولا أحد غير الله سبحانه أدرى وأعلم بها، لأنه جل وعلا على معرفة تامة ببداية أي أمر ونهايته، وهو سبحانه العالم بنهاية وغاية أي أمر، وهو من يضع حدّاً لكلِّ شيءٍ، لعلمه بأصل الموجودات والأمور، فهو الخالق الواجد الذي أوجدها أصلاً وقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 209].

الحكيم جل جلاله حكمته تتجلى بإعطاء الشيء أو المسألة أو الأمر القدر اللازم والكافي بلا زيادة فيه ولا نقصان، ومعرفة أصله وسببه، كما يقتضي معرفة نهايته وغايته حتى يكون التطابق محكماً؛ لذا كن مطمئناً: إن كان مرجعك في حكمك وعدلك بين الناس إلى الله تعالى الحكيم الذي هو أصلاً منزَّه عن القَبْلِيَّة والبَعْدِيَّة، بل هو سبحانه يتحكم بهما فهو مَن أوجدهما، ومَنْ غير الحكيم جل جلاله، الذي من صفاته الكمال، قادر على ذلك.

ثم إن تابعت عملك في محاسبة الناس والحكم عليهم فاعلم أن الله هو:

المُقْسِط الذي عنده الدِّقَّة والعدالة المطلقة بالعطاء والحساب ولا يظلم أحداً لأن عدلهُ وإنصافهُ ودقةُ حسابه للخلق مطلقة وتجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ...﴾ [الأنبياء: 47].

أمر الوصول إلى العطاء بالقسط وبتمامه وكماله هو أمر معجز لا يقدر عليه إلا الله الذي بقدرته يحقق يوم الحساب الدقة المطلقة في محاسبة خلقه، ويحكم عليهم بالعدل والإنصاف لكل منهم في مقدار العطاء الممنوح له، وكذلك في وجهة ونوع ذلك العطاء مع العدالة والحياد، وكل ذلك بحكمة الحكيم جل جلاله، لذا اجعل مرجعك في حكمك على الناس الله جل جلاله لأنه هو وحده:

الحكم: الذي يصدر الأحكام ويعرف أبعاد هذه الأحكام مع مرور الزمن وهو جل جلاله:

العدل: الذي يطبق الأحكام بالمساواة بين جميع الخلق وهو جل جلاله:

الحكيم: حكمته تتجلى بإعطاء الشيء أو المسألة أو الأمر القدر اللازم والكافي بلا زيادة فيه ولا نقصان.

وتجليات هذه الصفات الإلهية تجدها يوم الحساب عند:

المقسط جل جلاله: الذي عدلهُ وإنصافهُ ودقةُ حسابه مطلقة بالعطاء يوم القيامة لكل الخلق حتى تصل إلى مثقال حبة الخردل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

دليلك ومرجعك في كل أحكامك هو:

الله الحكم العدل والحكيم المُقسط جل جلاله.



كن دائم الذكر لله العَلِّيّ جل جلاله واجعله أعلى شيء في تصورك عن أي مكان.

واجعل المتعال جل جلاله أعلى شيء في قلبك وفكرك تكن من الفائزين في الدنيا والآخرة.

أما السبيل لأن يكون العَلِيُّ جل جلاله أعلى شيء في تصورك عن أي مكان يبدأ بأن تكون واعياً في تصورك عن الله - خاصة حين تكون ذاكراً له سبحانه - فتجعل خطابك ونداءك لله عز وجل وكأنه أحد المعارف أو الأقارب، بلا تكلف ولا أدب! إياك أن تفعل هذا؛ لأنك بذلك تقع تحت عتب وتوبيخ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: 74].

تأمل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: 51] فإن كلّم سبحانه خلقاً من خاصة خلقه من وراء حجاب، فكيف لك وأنت تذكره سبحانه أن ترفع الكلفة معه وهو العلي جل جلاله.

احرصْ في كل ذكرك وطاعاتك وكل أيامك أن يكون التعظيم لله فهو العلي العظيم حقاً؛ لأنك إن نظرت إلى الكون الذي يحيط بك والذي تقدّر الأبعاد فيه بالألوف المؤلفة من السنوات الضوئية، وتفكرت بهذه الأبعاد الشاسعة لهذا الكون، تجد أن أي مكان مهما علا وكَبُرَ في تصورك له، فالله سبحانه أعلى من هذا المكان بل وعليك بالإيمان واليقين التام أنه تعالى هو:

﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255]، وأن الله سبحانه هو أعلى من السماوات والأرض وهي دونه، وهو المنزه عن المكانية و ليس كمثله شيء، وأن العَلِّيّ جل جلاله هو صاحبُ أعلى مكان وأعلى درجة، وأعلى من كل شيء لأن السماوات والأرض يسعها كرسيه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: 255].

ما أعلا وأعظم الذي ليس وسع كرسيه السماوات والأرض فحسب؛ بل هو سبحانه وحده الذي يحفظها ويحفظ الكون كله من الضياع: ﴿..وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 21]، وهذا الحفظ دليل على أن العَليَّ جل جلاله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255]، ودليل على خطأ ما يعتقد به بعضهم من أنه سبحانه بعد إذ خلق كل شيء في ستة أيام تعب وأحب أن يستريح ـ سبحانه وتعالى عمّا يصفون ـ ونسي أصحاب هذا الاعتقاد الخاطئ أنه سبحانه عَرَّفَ عن نفسه قائلاً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾

[ق: 38]، وأصحاب هذا الاعتقاد الخاطئ مردهم أجمعين للآخرة، حيث لا تنعدم ولا تتلاشى نفس واحدة من الأنفس البشرية أيّاً كانت، وأن هذه الأنفس سترى يومها بجلاء ووضوح عظمة:

﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255]؛ لذا كُنْ دائم الذكر لله العَلِّيّ جل جلاله واجعله أعلى شيء في عقلك عن أي مكان، ثم اجعل:

المتعالِ جل جلاله أعلى شيء في قلبك وفكرك ؛ لأن من أكبر الأخطاء التي وقع بها كثير من الناس الظن أن الإله تنازل وتواضع إلى حدّ أنه أرسل ابنه ـ وهو على زعمهم إله مثله ـ ليكون بشراً، يعيش بينهم يأكل كما يأكلون ويشعر بما يشعرون به، وأخيراً يُصلب رحمة بهم، ورغم شنيع فعلهم الذي قال عنه سبحانه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: 90-91] أعطاهم الله الفرصة للتوبة والرجوع، لأنه المتعال جل جلاله: الذي تنزَّه في تعاليه وترَّفعه عما يقوله المغرضون علواً كبيراً: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: 43]، ولم يرد في القرآن الكريم عقاب إلهي دنيوي للشرك أو لمن يتعرض لذات الله، أو إلى الذين ظنهم بالله وعقيدتهم ومفهومهم عن الألوهية كان خاطئاً؛ لأنه سبحانه يتعالى عندما يكون الأمر متعلّقاً بذاته، فلا يَرُدَ ولا يُجَابهَ الذين يتعرضون له تاركاً لهم ذلك الأمر إلى يوم القيامة، وعندئذٍ يقول لهم سبحانه: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ [الكهف: 52]، وهذا التعالي من رحمته لأنه سبحانه هو الهادي الذي يمنح البشر فرصة التوبة والرجوع إلى الصراط المستقيم، ولكن جعل سبحانه عقابه في هذه الدنيا للظالمين لِمَا يقومون به في هذا العالم المادي؛ ومثاله: قوم صالح وما حلَّ بهم العذاب إلا بعد أن عقروا الناقة: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: 77-78].

يقينك بأن الله هو العلي المتعالِ جل جلاله يجنبك من متاهات تفكير خاطئة لا تليق به جل جلاله؛ مثالها قد يتبادر إلى ذهنك عندما تقرأ حديث نبينا عليه الصلاة والسلام الذي قال فيه : «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» [صحيح البخاري].

علمك أنه جل جلاله ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255] وأنه ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9]

يعلمك أن نزوله ذلك مجازي، لأنه سبحانه منزَّه عن المكان والزمان، ورغم علوه وتعاليه هو قريب منك، ومن قربه ينزل إلى السماء الدنيا في الأسحار كل ليلة، بل ونزوله جل وعلا متواصل لأن في كل لحظة وقت للسحر عبر السماء الدنيا وهذا ما يغيب عن الأذهان؛ لذا كن دائم الذكر لله سبحانه الذي بشرنا قائلاً:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: 186].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

اجعل العَلِيّ جل جلاله أعلى شيء في تصورك عن أي مكان

واجعل المتعال جل جلاله أعلى شيء في قلبك وفكرك

تكن من الفائزين في الدنيا والآخرة.



لا وجود لمرادفات في صفات الله جل وعلا بل هي تتمم بعضها بعضاً؛ فهناك صفة المتكبر، وصفة الكبير، وصفة العظيم جل جلاله، وكل صفة من هذه الصفات الإلهية يجب أن يكون لها مكانها في قلبك وعقلك.

الله وحده هو المتكبر جل جلاله: وهو الوحيد الذي تليق به صفة الكبرياء، لأن تكبره جل وعلا معناه تفرده وتنزيهه عمّن سواه فالكبرياء لله تعالى وحده ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: 37] ولا كبرياءَ ولا تكبّرَ ولا كِبر إلا له سبحانه، لأنه الوحيد الكبير بالمعنى المطلق، فلا شيء يجاريه أو حتى يقترب منه في عظمته جل وعلا، وفروق شاسعة ولا نهائية بينه وبين أيّ شيء، سواءٌ في زيادة الأبعاد، أو الارتفاع والعلو، أو الهيمنة والسلطة بالمعنى الحقيقي أو المجازي، فهو سبحانه المتكبر جل جلاله، وتكبّره معناه تفرّده وتنزيهه عمن سواه، وهو أكبر بكثير من أيّ خلق أو أيّ شيء، وهذا ينفي نفياً باتاً وقاطعاً الولد أو الشريك أو البنات والصاحبة، لذا اجعل الأهم في اعتقادك بالله أنه الوحيد المتكبر جل جلاله المتفرد بكبريائه و أنه هو وحده: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23].

أما صفته تعالى الكبير جل جلاله: تذكرها في كلّ مرة تسمع أو تقول الله أكبر، لأن الكبير جل جلاله: حقاً هو الله، لا ملك ولا قائد ولا زعيم ولا جيش ولا قوة، ولا شيء أكثر وأبلغ أهمية وأكبر في عقلك وقلبك ووجدانك من الله، لا مال ولا ولد ولا جاه ولا منصب ولا مشاغل ولا حاجات ولا شهوات ولا رغبات، فهو الكبير جل جلاله الذي يأخذ حدّه الأقصى في كل شيء يليق بألوهيته وجلاله، وكل ما سواه بالمقابلة مهما كبر معدوم بالنسبة والتناسب، وكذلك فهو جل وعلا يأخذ الحدَّ الأقصى من حيث شدة الأهمية والمكانة وكذلك ما سواه بالنسبة والتناسب معدوم: ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: 62].

لا كبير حقاً بالغ الأهمية وآخذاً حدّه الأقصى في الصفات الكاملة سوى الله وما سواه صغير، هذا الفهم يوجه عقلك وقلبك إلى نظرة صحيحة للأمور كلها، ويستقطب محور اهتمامك رافعاً إياك من صغائر الأمور لأعظم وأكبر وأجلّ ما يمكن أن يكون، فلا يعظم في قلبك سوى الكبير جل جلاله: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: 9].

أما صفته تعالى العظيم جل جلاله: تجدها في ركوع كل صلاة، وعليك أن تعظمه كما علّمنا سبحانه بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 74]، وعليك تعظيمه في كلّ ما

يتعلّق به سبحانه وتعالى ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: 32]، لأن العظيم جل جلاله عظمته تأخذ بعدها الأقصى في كل أمر حقيقة ومجازاً، فهو سبحانه عظيم في حلمه عظيم في كرمه وفي انتقامه وعفوه وفي كل صفاته، ولا أحد عظيم غيره وله وحده كل معاني الهيمنة والجبروت، والقوة خاصة.

كن دائم الأدب مع العظيم جل جلاله في كل أحوالك، خاصة حين تسأله، وإياك أن تعظم نفسك أو غيرك وتنسى أن العظمة هي لله عز وجل، فقد حذر من ذلك نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله في الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ عز وجل: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» [سنن أبي داود].

مناجاتك وسؤالك الله سبحانه هو أمر في غاية الأهمية لك ولكل الخلق على السواء، ولكن مع الأدب، وتذكرك الدائم أنه هو سيدك وربك ومولاك.

اجعل ذكرك الدائم: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»؛ لأن نبينا عليه الصلاة والسلام قال عنهما: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ» [صحيح البخاري]، وهما دواؤك لتبقى نفسك متواضعة لمن خلقها، ولا يبهرها شيء سوى علمها بأن الله حقاً هو العظيم جل جلاله.

والآن ليكن:

المتكبر جل جلاله: في عقلك ووجدانك، وفي كل ما ترى من حولك من مكان أو زمان، مع يقينك التام أن هناك فروق شاسعة ولا نهائية بينه وبين أيّ شيء سواءٌ في زيادة الأبعاد، أو الارتفاع والعلو، أو الهيمنة والسلطة بالمعنى الحقيقي أو المجازي، واجعل في قلبك ونفسك:

الكبير جل جلاله: حقاً هو الله وما سواه صغير. وكن دائم الأدب معه لأنه وحده:

العظيم جل جلاله: تعظيمه في قلبك يُعلِّم نفسكَ بأنَّ العظيمَ هو وحده الله سبحانه.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله جل جلاله هو: الكبير والعظيم في القلوب والمتكبر فوق كل مكان وزمان

وهذه الصفات الإلهية دواؤك لتبقى نفسك متواضعة.

من رحمة الله تعالى أن أخبرنا أن من صفاته: الْغَفَّارُ والْغَفُورُ والتَّوَّابُ والْعَفُوُّ. وأن من صفاته المنتقم جل جلاله.

الْغَفَّارُ جل جلاله هو القادر على الإحاطة وإيقاف تبعات الأخطاء ونتائج الذنب التي لا تقف عند نقطة محددة بل تستمر على المدى البعيد حتى اللانهاية، وخطورة أي ذنب قد يحدث معك تكمن في عواقب تبعاته ونتائجه التي تسري عبر الزمن، والشاهد على ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» [صحيح البخاري].

لا أحد يستطيع إيقاف هذه السلسلة التصاعدية الرهيبة لتبعات الذنوب وإزالة عواقبها إلا الغفار جل جلاله لأن المغفرة هي: إيقاف نتائج وعواقب انتشار الذنب وإلغاؤها عبر الزمن؛ وهذه المغفرة هي وداً وحباً ورحمةً منه جل جلاله لعباده.

والآن إياك إن أخطأت أو أذنبت أن يتسلل إليك اليأس والقنوط بأنك لن يُغفر لك... الله سبحانه هو:

الغفور جل جلاله الذي قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]، وهذه المغفرة منه رحمة كما يشهد على ذلك آيات كثيرة في كتابه الكريم اقترنت فيها المغفرة بالرحمة.

الله سبحانه هو الذي خلق المكلفين وهو أدرى أنهم يخطئون، لذا ميزهم عن بقية خلقه بالمغفرة ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر:49]، فهو الغفور جل جلاله يغفر وداً وحباً ورحمةً بعباده ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: 14]، ليس هذا فحسب بل هذه المغفرة ينتج عنها إيقاف تبعات الخطأ أو الذنب، ومسلسل المآسي والرعب المتصاعد والمتفاقم للذنب والخطأ وعواقبه في الزمان، ولكن اعلمْ أن لا بد لهذه المغفرة كي تتم من التوبة؛ لأنه سبحانه وتعالى هو التواب الذي يقبل التوبة إن بادر الإنسان المذنب وطلب التوبة من التواب جل جلاله الذي قال:

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: 3]. وهذا سيدنا آدم أبو البشر قال عنه سبحانه:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37].

التواب جل جلاله هو: الذي يتعهد بعدم محاسبة أو معاقبة عبده إن العبد تعهد بعدم الرجوع إلى الذنب أو الخطأ، وهي مبادرة من المذنب وتعهد والتزام بعدم المعاودة إلى الذنوب فيكون مقابل ذلك تعهد من التواب جل جلاله بعدم المحاسبة والعقاب. وإن أحببتَ أن تنال مغفرة الغفار الغفور جل جلاله وتُمحى نتائج وعواقب ذنوبك عبر الزمن، فبادر بالتوبة وجدد إيمانك واعمل صالحاً عسى أن يشملك قوله تعالى:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: 82].

أبواب مغفرة الله جل وعلا كثيرة جعل منها أبواب تتطلب مبادرة من العبد للمغفرة وجعل سبحانه باب خاص رحمة منه يفتحه في الأوقات المباركة، تلك التي يمن بها الله سبحانه على عباده بفضل ومحض الكرم الإلهي بالعفو عن الذنوب؛ كليلة القدر والأسحار وغيرها من الأوقات المعروفة التي دلنا عليها نبينا صلوات الله عليه، والتي فيها:

العفوّ جل جلاله: يعفو فيها بمحض كرمه وفضله، ودون أي طلب من العبد، ودون استحقاق أو مقابل لعمل عمله ذاك العبد حتى ينال عفو الله سبحانه، بل بمحض رحمة وكرم الله جل وعلا؛ إذ لا علاقة بين الخطأ أو الذنب وما يترتب عليه من عقاب أو قصاص، وبين العفو الذي هو قرار حرّ من العَفُوِّ الغفور جل جلاله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 43]. وهنا يجب ألا يغيب عن ذهنك أن عفوه سبحانه هو دائماً في محله تماماً، وإن كان العفو عن مذنب أو ظالم؛ إذ أنه سبحانه العليم الحكيم الخبير العدل، وحين يعفو عن عباده وخلقه هو أدرى بسرائرهم و طوايا نفوسهم، وعفوه جل جلاله يكون بمحض الكرم والرحمة ﴿عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 52].

وإذا أردت عَفْوَ العَفُوِّ جل جلاله فكن مع عباده متسامحاً، واعفُ عنهم إن هم أساؤوا إليك رجاء وافتقار أن يشملك العَفُوُّ جل جلاله بعفوه، وتكون من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:134]؛ ذلك لأن العفو يزيدك عزّاً كما أخبر نبينا عليه الصلاة والسلام: «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» [صحيح مسلم]، فكلما عفوتَ ازددت عزّاً عند الله تعالى وكان لك الأجر العظيم، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: 40].

إياك ثم إياك أن تفوتك أبواب المغفرة المفتوحة أمامك لأنك بذلك تقع تحت صفة:

المنتقم جل جلاله؛ لأنه سبحانه يمهل كلّ من انتهك حرماته ويضعه أمام بابين؛ أحدهما: يقود إلى الغفار الغفور التواب العفو سبحانه، والثاني: يقود إلى المنتقم جل جلاله، وترك لعباده كلهم حرية الاختيار ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

أما إن تردَّدَ العبدُ عندما خيره سبحانه بين الهداية والشقاء، وعندما ذَكَّرَه بآياته فأعرض عنها وظلم نفسه، فعندها يكون واقفاً على باب:

المنتقم جل جلاله الذي هو اختاره ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: 22]. والانتقام لا يكفّر الذنب؛ لأن صاحبه قد أجرم في حق نفسه عندما ترك باب التوبة المفتوح مصراً على إجرامه وانتهاكه لحرمات الله سبحانه، عندها ينتقم جل جلاله منه ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47]، وهنا الفارق الأساسي بين العقاب والانتقام الإلهي في الدنيا، وهذا ما يغيب عن أذهان كثيرٍ من الناس.

انظر كيف أن الله سبحانه وتعالى يعاقب المذنب في الحياة الدنيا رحمة به، لأن العقاب يكفر عنه الذنب، وهذا من العدل الإلهي كما في حدّ الزنى أو السرقة أو القتل، فإنها تعفي صاحبها من عذاب الآخرة، أما من فتح الله له باب التوبة فأعرض عنها وانتهك حرماته، وفاتته فرصة الهداية، واختار العقاب الإلهي بملء إرادته كما في قصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [هود: 32]. وكانت نتيجة ذلك الخيار الذي اختاره قوم نوح عليه السلام هو ذات الخيار الذي اختاره قوم سيدنا موسى عليه السلام: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 136]، وهذه القصص هي عبرة لكل من أعرض عن باب التوبة.

والآن أوجز لك أبواب المغفرة التي من الله بها علينا فهناك:

الغفار جل جلاله: الذي يغفر تبعات الذنوب عبر الزمن و:

الغفور جل جلاله: الذي وداً وحباً ورحمةً بعباده يغفر ذنوب العباد مهما كانت ثم:

التواب جل جلاله: الذي عليك التوجه إليه بالتوبة حتى تشملك وتنال مغفرة الغفار الغفور سبحانه، ثم يأتيكَ العفوُ من:

العفوّ جل جلاله: الذي يعفو بمحض كرمه وفضله، ودون أي طلب من العبد، ودون استحقاق أو مقابل لعمل عمله ذاك العبد حتى ينال العفوَ؛ بل بمحض الكرم والرحمة من الله سبحانه. أما إن العبد ترك أبواب المغفرة التي مَنَّ الله بها عليه وظلم نفسه، فعندها يكون واقفاً على باب:

المنتقم جل جلاله: والانتقام لا يكفّر الذنب، لأن صاحبه قد أجرم في حق نفسه عندما ترك باب التوبة المفتوح مصراً على إجرامه وانتهاكه لحرمات الله سبحانه.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله سبحانه فتح لك أبواب المغفرة لأنه: هو الْغَفَّارُ والْغَفُورُ والتَّوَّابُ والْعَفُوُّ

وإياك أن تفوتك أبواب المغفرة لأن من صفاته الُمنتَقم جل جلاله.



هناك صفتان لله سبحانه:

الأولى: تتجلى على المادة؛ وهي صفة الجبار جل جلاله،

والثانية: تتجلى على العباد؛ وهي صفة القهار جل جلاله، وعليك التَّمَيّز بينهما.

في رسالتي هذه أُبيِّن لك جانباً لكل منهما مستعيناً بالله تعالى.

أولاً، الجبار جل جلاله: هو الذي تنصاع كل مادة الكون بما فيها لقوته ولإجباره إياها أن تأخذ حركة أو تجول ضمن مسار معين غير المسارالذي رسمه لها: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23].

انظر كيف خلق سبحانه فأوجد ملايين المجرات من المادة تسبح في فضاء الكون، وأجبرها الجبار جل جلاله على أخذ مسار معين لها، انظر إلى الشمس مثلاً ماذا قال عنها سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: 38] تصور لو أنه سبحانه ترك الشمس بما فيها من قوى هائلة بدون إجباره لها، وذهبت الشمس وأمثلها من ملايين الشموس في كلّ الاتجاهات فكم ستُحدِثُ من كوارثَ وفوضى وخراب. إذاً لا بدَّ من أن يجبرها الجبار جل جلاله أن تذهب وتجري بالاتجاه السليم، وإجباره سبحانه لها من غير جهدٍ ولا توتر وبذات الوقت بجمال وجلال وبساطة تلقائية، وهذا من تجليات قوته سبحانه.

قوة الله تعالى فوق كل القوى، وهي قوة منسجمة منظمة ومسيطرة تجبر جميع القوى التي أوجدها سبحانه على أخذ مجرىً معيَّن، ولا أحد أدرى بهذا المجرى سوى الله جل وعلا، وكل شيءٍ يجري بأمره، إن كان ساكناً أو متحركاً، جامداً أو حيّاً، عاقلاً أو غير عاقل، مكلفاً أو غير مكلفٍ، وكل ذلك من تجليات قوته سبحانه.

انظر كيف من عظمة الله تعالى أن ترك لك حرية الحركة والعيش والتجوال كما تشاء، ولم يجبرك على فعل شيءٍ من ذلك؛ لذا إياك أن تستغلَّ ما أعطاك الله إيّاه من الحرية وعدم إجباره سبحانه لك على شيء، أن تكون جباراً في الأرض، لأن ذلك خيبة وفشل لك ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: 15]، بل تواضع أمام خلق الله وتفكر جيداً عند استخدامك لقوتك والتي هي أصلاً من عطائه سبحانه لك، وتذكر دعاء سيدنا يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: 32]، ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: 14].

ثانياً، القهار جل جلاله: صفة تجدها عندما ترى ما للقهر من مظاهر في حياة البشر، تدرك أهمية التذكرة باللقاء الذي لا فرار منه يوم الحساب ووقوف العباد بين يدي الواحد القهار، وعندها لن يجرؤ أحد على قهر غيره من الخلق.

إياك والظن أن معنى القهر عند الخلق هو ذاته عند الله، فهو سبحانه عدل مقسط ولا يظلم أحداً، وفكرة الظلم منفية عنه جل وعلا وبشكل مطلق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا ﴾ [يونس: 44]، وهو رحيم رؤوف يقيناً وعلى الدوام، وإنما قهره سبحانه لمن يخالف أو يعارض إرادته ولكل: ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ﴾ [ق: 24-25].

واعلم أن القهار جل جلاله هو قدوس منزّه عن النقائص والعيوب وهو أحكم الحاكمين ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [التين: 8]، وهو ذاته الرحمن الرحيم والرؤوف واللطيف وخاصة العدل سبحانه وتعالى؛ لذا لا تخفْ من قهر الخلق بل اجعل خوفك من الواحد القهار جل جلاله، لأن قهره سبحانه بتمكن تام ولأقصى حدٍّ لكلِّ من يخالف أو يعارض إرادته: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 18].

وعليك بسنة نبينا عليه الصلاة والسلام، فقد استعاذ من قهر الرجال بقوله: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ» [سنن أبي داود]، وهي إشارة منه لعظيم ذنب ـ خاصة ـ من يقهر الآخرين بذريعة مخالفة آرائهم أو وجهات نظرهم.

يجب أن لا يغيب عن بالك إن تحركت تلك الدوافع عندك، أو همّت نفسك بقهر إنسان أن تتواضع وتُعرض عن ذلك؛ لأن الله هو القهار جل جلاله واحد لا شريك له: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [الزمر: 4].

أما إن كنت في موقف تدافع فيه عن نفسك من شرٍّ أراده إنسان لك، فعليك أن تواجه هذا الشر بدافع إحقاق الحق لا بدافع الحقد والضغينة والبغضاء؛ لأن هذه الصفات إن كانت في نفسك فإنها توصلك إلى قهر الناس وكسر قلوبهم والتطاول عليهم، إذ ما أسهل أن يقهر إنسانٌ مخلوقاً آخرَ بلا معنى بل بدافع من شر نفسه.

تذكر دائماً أن القهار جل جلاله، قهره سبحانه لكلِّ من يخالف أو يعارض إرادته من الخلق والعباد ولكل: ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ﴾ [ق: 24-25].

وأن الجبار جل جلاله هو الذي تنصاع كل مادة الكون بما فيها لقوته ولإجباره إياها كي تأخذ حركة أو تجول ضمن مسار معين رسمه لها من أوجدها أصلاً وقال عنها سبحانه:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله هو الجبار وهو القهار جل جلاله

و من تجليات قوة الله سبحانه صفات تتجلى على المادة وأخرى على العباد

وعليك التميز بينهما.



رحمة الله تعالى لا حدود لها ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156] وصفة الرحمة غالبة على كل صفاته سبحانه، فهناك الرحمن الرحيم والحليم جل جلاله؛ وهذه الصفات الإلهية ما هي إلا أبواب رحمة مفتوحة وأول هذه الأبواب هو باب:

الرحمن جل جلاله: فتح باب إمهال فضلاً وكرماً و وداً منه سبحانه ليعود المذنب إلى جادة الصواب، وأعطاه في هذا الباب فرصة وزماناً ليتدارك ما فاته من خير، عسى أن يتوب ويَصلُحَ ويرجع إلى ربه ويغتنم مهلة الإمهال التي تفضل بها الرحمن جل جلاله حبًا وودًا منه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96].

وفتح الرحيم جل جلاله: باباً آخر للرحمة هو باب التوبة لكل من حاد عن جادة الصواب وهذا الباب مفتوح منذ بداية الخلق والإيجاد، وتاب على أول الخلق سيدنا آدم عليه السلام، بل هو سبحانه علم آدم الكلمات التي بها تاب عليه ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37].

الله وحده هو الذي يتوب على عباده لأنه ﴿هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37] ورحمة الرحيم جل جلاله ليست عابرة بل متأصلة ودائمة وبحدها الأقصى. ومن مظاهر رحمة الرحيم جل جلاله هي مغفرة الذنوب لمن تاب وعاد إليه سبحانه فهو ﴿الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: 2].

أما الحليم جل جلاله: فقد فتح لك باباً من أبواب الرحمة بحِلْمه وعدم تشدده في المؤاخذة والعقوبة على كلِّ الذنوب صغيرة كانت أم كبيرة، بل عدم متابعة وعدم تدقيق تسامحاً وكرماً وفضلاً منه. وكذلك عدم تسرّع في المؤاخذة والعقاب بل إمهالٌ وإفساحٌ لمجال التوبة ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155].

لذا اغتنمْ هذه الأبواب المفتوحة وسارع في طلب التوبة من الرحيم جل جلاله قبل فوات الأوان، واغتنم مهلة الإمهال من الرحمن جل جلاله، واعلم أن الحساب آتٍ لا محالة، فلا يغرّنك ذاك الإمهال في نفسك أو غيرك، فالإمهال ينتهي عندما تصل إلى الآخرة، وتأخذ كتابك الذي: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49]. واعلم أن الله هو الرحمن الرحيم الحليم جل جلاله الذي قال على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي:

«قَالَ اللهُ عز وجل: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَالله لَـلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً

تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ» [صحيح مسلم]. وهذا الإخبار بحدِّ ذاته رأفة ورحمة.

حدود رحمة الله لا نهاية لها تجدها أيضاً عند الودود الرؤوف الصبور جل جلاله وهي أبواب أخرى ومظاهر من رحمة الله سبحانه لعباده:

أولها: الودود جل جلاله: الذي وُدَّهُ هو حُبّه لك ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: 54]، وهذا الحب هو مبادرة منه سبحانه إليك تتجلى بالمغفرة والرحمة.

الله سبحانه ودّه لك سابق منه إليك، وهو المبادر والفاتح لك والمقبل عليك دائماً بوده ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:90] ودُّه جل جلاله مبادرةٌ بمحض المَنِّ والجود والكرم الإلهي لنا، فمن أظلم ممن يُعرِض عنه وقد بادله سبحانه بالوِدِّ والمغفرة والرحمة. وإياك أن تُعرِض عن الودود جل جلاله الذي وده كله هو حب لك ومغفرة ورحمة.

وثانيها: هو الرؤوف جل جلاله: رأفته سبحانه سابقة لك من قبل أن توجد على الأرض، ومن قبل أن تكون في الموقف الذي تحتاج به للرأفة، وهذه الرأفة رحمة منه وحبٌّ، إذ ما أرأفه وأرحمه أنْ منَّ عليك وأعلمك ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: 9]. ليس هناك أحد يُكنُّ لك الودَّ والحب مثل الله تعالى، وكم أنت محفوف بالرأفة الإلهية من حيث لا تدري، فهو سبحانه رءوف بك لأنه رحيم، وهذه الرأفة شكل من أشكال الرحمة الإلهية، تتجلى بتجنيب الخلق الكثير من العذاب والوبال، وذلك فضل من الله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:20] فالرأفة تخفيفٌ إلى أقصى حد وعناية يحف بها سبحانه خلقه.

والسؤال لِمَ يرأف سبحانه بخلقه؟ لأنه رحيم رحمةً لا يسعها عقل. إذاً رأفته سبحانه بخلقه ليست عابرة، بل دائمة وبالحد الأقصى لارتباطها باسمه الرحيم جل وعلا كما يشهد على ذلك دعاء: ﴿..رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

وثالثها: هو الصبور جل جلاله: الذي صبره جل وعلا هو عدم استعجاله على الظالمين، بل تركهم وأمهلهم إلى أجل مسمى ليتوبوا ويرجعوا وإلا سيحق عليهم القول، ولن تكون لهم حجة يوم القيامة لتبرير ما فعلوا ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: 58].

اعلم أن صبر الصبور جل جلاله ليس مثل صبر خلقه أبداً؛ لأن صبر الخلق يتصف بالمعاناة ضمن فترة زمنية ضيقة، أما صبره سبحانه وتعالى فهو عدم استعجال وإمهال.

الصبور جل جلاله: هو الرشيد الذي يقود الخلق والأحداث بعظمة وجلال وحكمة بلا استعجال إلى أجل هو واضعه.

استعن بالصبر والصلاة في كل أمورك لأن الله تعالى مع الصابرين ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153] وإياك أن تكون عجولاً لأن العجلة والاستعجال هما منافيان للصبر، ليكن صبر الصبور جل جلاله هو قدوة لك في صبرك، فلا تستعجل وتمهل حتى تصل إلى الأجل والغاية التي وضعها الله سبحانه، ويوم القيامة، يأخذ عندك كلّ شيء معناه، وتظهر لك حقيقة وحكمة الغايات لكل أمر، وترى عياناً أن رحمة الله تعالى لا حدود لها.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله هو: الرحمن الرحيم الحليم وأن:

الله هو: الودود الرؤوف الصبور جل جلاله وتقدست أسمائه وصفاته

وهذه الصفات الإلهية ما هي إلا أبواب رحمة مفتوحة لا حدود لها.



من أعجب الكتب التي مرت في تاريخ البشر هو كتاب الله سبحانه، وهو نصٌّ إلهي تلقاه نبينا عليه الصلاة والسلام من لدن الله الحكيم العليم ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6]، وقد وصفه الذي أُنزِل عليه هذا الكتاب صلوات الله عليه بأنه: «لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ» [سنن الترمذي]، ومن عجائبه أنه كتاب محكم لا مجال فيه لنقص أو زيادة أو إفراط أو حشو، كلُّ ما وردَ فيه لا بدَّ منه ولا غنى عنه، وآياته برمتها لها ذات الأهمية لا تفاضل بين آية وأخرى، ولا يوجد أي تباينٍ أو فروقٍ في مستوى ذلك النص الإلهي.

فإن أكرمك الله وشرفك بأن تبحث وتتفكر بالقرآن الكريم، فكن على يقين أن لا مرادفات في كلامه سبحانه، وكل كلمة هي في مكانها تماماً، لا تقوم مقامها كلمة أخرى، ومثال ذلك أنه جل وعلا وصف نفسه بأنه:

﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54] وأنه ﴿ٱلْقَادِرُ﴾ [الأنعام: 65] وبأنه ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55] فإن جعلت بحثك لهذه المعاني الإلهية وتتبعك لفهم هذه الكلمات من خلال القرآن الكريم ذاته، فإنك ستجد أن قدرة الله هي المشتركة بين هذه الصفات الإلهية الثلاث، ولكن ميزها عن بعضها بأن:

صفة ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ سبحانه: تشير إلى أن قدرته بحدّها الأقصى ظاهراً وباطناً بلا اختلاف.

أما صفة ﴿ٱلْقَادِرُ﴾ جل وعلا: فإنها تشير إلى أن قدرة الله هي مطابقة لإرادته ولعلمه وحكمته، يوجهها كيف ومتى شاء بمبادرة مستقلة منه لا يؤثر فيها شيء.

وأن صفة ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ جل جلاله: تشير بجلاء للقدرة الإلهية من خلال سريان هذه القدرة واستمرارها بلا انقطاع ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45].

وإن تابعت بحثك في كتابه الكريم جل وعلا فستجد أن الله هو:

القوي المتين جل جلاله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58]، فإن بحثت في معنى هذه الصفات ستجد أن الله هو:

القوي جل جلاله: ولا قوي حقاً ومطلقاً إلا الله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: 39]. والقوة به ومنه، وكلّ ما يبدو لك قوياً ما هو إلا بدفع وتحريض وهيمنة من القوي جل جلاله، فكما تسري قوته فيما أوجده فهو يعدم الموجود ويسحب منه قوته: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: 39].

أما إن بحثت في معنى صفته تعالى المتين ستجد أن:

المتين جل جلاله قوته سبحانه ثابتة مستمرة بشكل مطلق وغير متبدلة، ممتدة في أي مكان أو زمان شديدة في عزمها وتماسكها، قوة لا تزيد ولا تنقطع في حال من الأحوال. وأن المتين جل جلاله هو من لا يلحقه في أَفعاله مشقة ولا كُلْفةٌ ولا تَعَبٌ، وقد أخبرنا بذلك في قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: 38]، وقوله جل وعلا: ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ [الأحقاف: 33].

بحثك وتتبعك لفهم صفاته سبحانه من خلال القرآن الكريم يوصلك إلى فهم واضح بأن صفة:

القوي جل جلاله: تشير إلى قوة الله سبحانه بالشكل المطلق، وصفته تعالى:

المتين جل جلاله: تشير إلى أن قوة الله تعالى ثابتة مستمرة مطلقة غير متبدلة،

أما صفته تعالى:

القدير جل وعلا: فإنها تشير إلى أن قدرته سبحانه بحدّها الأقصى ظاهراً وباطناً بلا اختلاف، وأن صفة:

القادر جل جلاله: فإنها تشير إلى أن قدرة الله هي مطابقة لإرادته ولعلمه وحكمته، يوجهها كيف ومتى شاء بمبادرة مستقلة منه لا يؤثر فيها شيء، وصفته:

المقتدر جل جلاله: تشير بجلاء للقدرة الإلهية من خلال سريان هذه القدرة واستمرارها بلا انقطاع.

أخيراً

اعلمْ وفقني الله وإياك لكل خير أن الله هو:

القدير القادر المقتدر وأنه القوي المتين جل جلاله

واعلم أن لا تباينٌ في مستوى كلام الله سبحانه ولا تفاضل بين آياته

و كل كلمة فيه لا تقوم مقامها كلمة أخرى



أنت وكل الخلق لا بد لهم من رحلة الحياة الدنيا، والتي تبدأ ببداية حياتك وتنتهي بنهايتها، نهاية الحياة الدنيا أمر محتم، لذا تجد أن من أصعب ما يواجه نفسك والنفوس البشرية في خفايا أعماقها هي: مسألة البقاء والفناء.

رحلتك في الحياة الدنيا هي رحلة من الإيجاد إلى الفناء ولا بد لك ولكل ما ترى من حولك أن يمر ويعبر هذه الحياة الدنيا، ولكن إن منَّ الله عليك وعلمك من علمه، فإنك تعبر هذه الرحلة بسعادة وهناء، ذلك إن علمت أن الله سبحانه هو:

الباقي وهو الوارث وهو الرشيد وهو أيضاً الباعث الجامع جل جلاله وتقدست أسماؤه.

لا بد لك من الرحيل عن هذه الدنيا شئت أم أبيت ولا بقاء لك فيها فإن علمت أن الله هو:

الباقي جل جلاله وجعلت هذا العلم أساساً في حياتك عندها يتحصل لك وعياً وقوةً ونضجاً وتماسكاً في نفسك لأنك تعلّقت بالباقي جل جلاله، فما أعظم السعادة التي تجدها عندما يزول ما تعلّق الناس به، وتكون أنتَ مع مَن هو خير وأبقى، مع الباقي جل جلاله الذي قال عن نفسه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26-27].

ثم إن كنت واعياً بأن الله هو:

الوارث جل جلاله لكل شيءٍ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: 40]، وأن المَلِكَ المالك الحق لكلّ شيء هو نفسه بالضرورة الوارث لكلّ شيء، وهو الله سبحانه، فإن ذاك الوعي يقودك إلى سعادة حقيقية تتمثل بعدم التعلق بكلّ ما هو بين يديك، وعدم الغوص فيه والتدخل في توزيعه بين من يرثك. وإن كان ثمة من يرث بالظاهر من الذرية فبالنهاية مآلهم الموت، ويبقى الوارث جل جلاله وارثاً بالنهاية، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: 23]. وسوف ترى عياناً يوم البعث والنشور قوله سبحانه: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: 16]، وترى هناك ما هو حقيقة باقٍ، وأن كل من يرث بالظاهر شيئاً مآله الموت ويبقى سبحانه بالنهاية الوارث جل جلاله لكل شيء ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 58].

ثم إن علمك العليم من علمه سبحانه وأفهمك أن الله هو:

الرشيد جل جلاله: العالم بعين الصواب وحقيقة نهاية المطاف، وهو الذي يعرف حقيقة المصير النهائي وحقيقة وحكمة النهايات والغايات، وأن الرشيد جل جلاله هو أعلم بما خلق ولمَ خلق وإلى ما يكون مصير ما خلق، وهو جل وعلا أولى أن يُتبع ويعبد وأن يُسْلِمَ

العبدُ وجهه إليه ويتوكل عليه ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[الكهف: 10]. عندها تكون رحلة الحياة الدنيا بل وحتى رحلة الإيجاد إلى الفناء محفوفة بالرشد من الرشيد جل جلاله الذي يُرشد عباده إلى جادة الصواب، ويصرِفَهم عن الباطل والغي، ويرشدهم ويوصلهم إلى الحق، لأن الرشيد جل جلاله هو الذي يبين لك طريق الرشد من طريق الغي ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[البقرة: 256]. فالغي هو أبعد ما يكون عليه الضلال، وبالمقابلة مع الغي يكون الرشد في الحقيقة نهاية المطاف وغاية الصواب والهداية.

والآن عليك أن تتصور مدى أهمية ترسيخ الإيمان بأن الله هو وحده:

الباعث جل جلاله: وأن معنى البعث الحق هو البعث بعد الموت في الآخرة ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[الأنعام: 36] عند إرسالِ وإيجاد الأنفس في أجساد يحييها الله الباعث جل جلاله، ثم تقف بين يديه وتحاسب، وهذا حصراً لا يكون على الأرض، بل يوم القيامة بعد أن يفنى كلّ شيء وتُطوى السماوات والأرض، ولا أحد غير الله مِنْ مَلَكٍ أو إنسٍ وجانٍ أو شيطانٍ قادر أن يبعث أحد بعد موته سوى الباعث جل جلاله، الذي يرسل الرسل والنبيين ويبعث الموتى يوم القيامة.

ثم عليك أن تتصور مدى أهمية ترسيخ الإيمان بأن الله هو وحده:

الجامع جل جلاله: الذي يجمعك ويجمع الأمم والملل جميعهم من بداية الخليقة إلى ذاك اليوم، يجمعهم سبحانه في زمان ومكان واحد وقد كانوا متفرقين في الزمان والمكان، متفرقين في عقائدهم ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾[المرسلات: 38].

يجمعهم الجامع جل جلاله أمام حقيقة واحدة لا يمكن لأحد إنكارها، وهي سعادة للمؤمن وندامة وذعر للكافر ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 25].

لتعبر رحلة البقاء والفناء بسعادة وهناء دون الحزن على شيء فاتك من هذه الحياة الدنيا، كن على يقين أن البقاء لله وحده والفناء لما سواه، واجعل أملك وجهودك عنده سبحانه ولا تتعلق بمؤقتٍ ثانوي يمنعك عن أساسي أبدي؛ وليكن دليلك قوله تعالى:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص:60].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله سبحانه هو:

الباقي وهو الوارث وهو الرشيد وهو أيضاً الباعث الجامع جل جلاله

إن علمت ذلك فإنك تعبر رحلة الحياة الدنيا بسعادة وهناء



عليك التوجه إلى الله في كل أمر من أمورك، فهو سبحانه من بداية الخلق حاضر بالزمان والمكان ومعك حيثما كنت ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4] هذا التوجه يفتح لك آفاق أوسع عن معرفة الله جل وعلا، ويخرجك من محدودية أسئلة مثل: «كيف نشأ الله؟»، ومثل: «ماذا كان قبل الله؟» لأن هذه الأسئلة وأمثالها تتلاشى أمام قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]؛ لأن العقل البشري الذي يخوض في مسائل الوجود والإرادة الإلهية، قد يظن أن الأمور بعد إذ أوجدها سبحانه وجعل لها قوانينها صارت تسير من تلقاء نفسها إلى أن يوقفها سبحانه...إياك أن تظن ذلك!

انظر في قصة سيدنا عيسى عليه السلام وكيف أنه ولد بزمان ومكان ثم قَدَّمَ وأخرَ سبحانه في مكانه وزمانه فرُفِعَ إلى السماء ثم سيهبطُ إلى الأرض في زمان ومكان آخر وكيف ولد بمكان وأن وفاته ستكون في مكان وزمان أبعد ما يكون عن مولده.

إن نظرت إلى هذه القصة وهي لأحد أنبياء الله تراها عجيبة ولكن من حكمته سبحانه فيها تعليمك قدرة الله جل وعلا وهيمنته على الزمان والمكان.

الله جل جلاله ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ فهو: الذي خلق وأوجد كل شيء، لذا هو سابق لكل ما خلق وأوجد، أي لم يسبقه أحد بخلقه أو إيجاده، ولم يسبقه شيء انطلق منه أو تكوّن منه، و كلّ ما هو موجود لاحقٌ له و موجود بإرادته، تنزه سبحانه عن التبعية لأي شيء، وهو:

جل جلاله ﴿ٱلْآخِرُ﴾ أي: لا وجود لشيء بعده، أو إمكانية أن يستبدل بنفسه غيره خَلفاً له، وما إلى ذلك من أسئلة محدودة ضمن العقل البشري.

الله هو الأول جل جلاله: لم يسبقه شيء أو أحد ولن يأتي بعده شيء أو أحد، وهو سبحانه منزّه عن الزمن فلا يمكن للزمن أن يكون قبله، ولا شيء قبله لأنه الأول جل جلاله، ولا يمكن أن يكون الزمن بعده، فهو الآخر جل جلاله ولا شيء بعده، وهو:

الظاهر والباطن جل جلاله ﴿وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3] أي: لا شيء أبعد أو أعلى أو خلف الله ولا شيء ولا أحد أبعد في أي اتجاه آخر، وله الإحاطة التامة والقصوى للجهات، أي أنه سبحانه مهيمن مسيطر له الغلبة على كلِّ أحد و كلِّ شيء؛ فهو العليم الذي لا يخفى عليه ظاهر ولا باطن محيط بالمكان الذي أنت فيه والذي من بداية الأمر أوجده: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

أنت الآن وفي أي لحظة من حياتك على الأرض، موجود في زمان ومكان حدده الله سبحانه، وهو معك حيثما كنت ومطلع على ظاهرك وباطنك، وكلّ ما يحدث، لا يحدث حتماً بل يحدث كما شاء سبحانه له، يقدمه ويؤخره كيف يشاء، ولا يعلم أحد من خلقه متى يكون هذا التقديم أو التأخير.

كذلك ترتيب الخلق ليس تلقائياً، وإنما مطابقاً لإرادته سبحانه، فهو الذي يسيطر على الزمن الذي خلقه أصلاً، وهو منزّه عنه، لذا هو وحده المقدم والمؤخر جل جلاله: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: 30].

الله سبحانه قادر على أن يوقف أي شيء يحدث أو يقدم هذا الشيء أو يؤخره أو يضعه في زمان آخر لأنه المقدم والمؤخر جل جلاله، ولا أدل على ذلك من قصة العزير في القرآن الكريم عندما كان فتىً، من كان يستطيع أن يحدد لحظة وفاته الأخيرة.

كذلك الفتية في سورة الكهف من كان يتوقع وفاتهم بعد أكثر من ثلاث مئة عام؟

انظر في التقديم والتأخير في حياة سيدنا عيسى، وانظر كيف رفع، وأن موته عليه السلام سيكون في آخر الزمان.

اسع دائماً وتفكر في صفات الله سبحانه فهي تزيدك قرباً من الذي هو قريب منك أصلاً والذي قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]. وتيقن:

أن الله هو:

الأول والآخر جل جلاله: له الإحاطة التامة بالزمن وهو سبحانه منزّه عنه فلا يمكن للزمن أن يكون قبله إذ إنه الأول جل جلاله ولا شيء قبله، ولا يمكن أن يكون الزمن بعده لأنه الآخر جل جلاله ولا شيء بعده.

وأن الله هو:

الظاهر والباطن جل جلاله: لا شيء أبعد أو أعلى أو خلف الله ولا شيء ولا أحد أبعد في أي اتجاه آخر، وله الإحاطة التامة والقصوى للجهات.

وأن الله هو وحده:

المقدم والمؤخر جل جلاله: القادر على أن يقدم ويؤخر في حياة الخلق، وترتيب الخلق بوجودهم على الأرض في أي زمان كان.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الأول والآخر والظاهر والباطن هو الله وأنه هو المقدم والمؤخر جل جلاله.

فإن وعيت هذه الصفات الإلهية يتجلى لك جانباً من حكمته تعالى في عجيبة قصة سيدنا عيسى عليه السلام ومثيلاتها في القرآن الكريم



الله سبحانه هو الرزاق ولا أحد ينكر ذلك، ولكن إياك أن يجول في نفسك أنه سبحانه لم يكن كريماً في عطائه لك، فهو سبحانه اللطيف جل جلاله الذي يقبض أو يمسك بلطف عباده بما أعطاهم من أن يفتنوا ويبعثروا هذا العطاء: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19].

لطفه سبحانه بك ليس في الرزق فحسب، بل في كل تصرف وعمل تعمله، فهو اللطيف جل جلاله الذي يحوطك ويمسك بأمورك، ولكن برفق من غير عنف، مع الحذر والانتباه والمعاملةِ باليُسْرِ، ويوجه عطاءه لك بالقدر اللازم والمناسب تماماً وكما ينبغي أن يكون، ولا أحد غير اللطيف جل جلاله القادر على القيام بذلك على أتم وجه، لأن ذلك اللطف يتطلب علماً نافذاً وخبرة:﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

اللطيفُ جل جلاله: هو الذي يَعْلَمُ ما يصلح لك ولكل خلقه، فهو سبحانه أدرى بمكونات أي شيء خلقه، لذا يقبض بإمساك ولطف وييسر كل ما خلق دون زيادة أو نقص، وإن حدث خلل في القبض يصبح كل موجود حطاماً، أو خلل في البسط يتلاشى كل شيء، وهذا محال على الله جل وعلا.

أما إن بحثت في معاني اللطف في مسألة اتساع وتقتير الأرزاق تجدها عند:

القابض والباسط جل جلاله: الذي قال: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [العنكبوت: 62] لذا اطمئنَّ، وثِقْ، وسَلِّم أن القابض و الباسط جل جلاله هو العليم وهو العدل والمقسط وهو الرحيم والودود...واشهد أن ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرعد: 26]، واحذر هؤلاء الذين قالوا:

﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: 64] وكن دائم التفكر ليس في معاني تقتير أو اتساع الرزق فحسب؛ بل بقدرة القابض والباسط جل جلاله، وأثر إرادته سبحانه على الموجودات بالبعد الكوني في الأرض والسماء فهو وحده الذي ﴿يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة: 245]. وهو وحده جل وعلا يجعل مكونات ما خلق تضغط أو تنتشر ومثالها السحاب. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: 48].

القابض والباسط جل جلاله، هو الذي يسيطر على الموجودات ويوجهها حيثما شاء وكما

ينبغي لها، وله سبحانه التحكم والتصرف بها، يهيمن عليها بعلمه وحكمته وكل ذلك بالقدر اللازم والمناسب تماماً.

إياك والظن أن الموجودات متماسكة تلقائياً، بل هناك قوى هائلة تجعل المادة متماسكة وتمنعها من التلاشي، هذه القوى جميعها بيد القابض والباسط جل جلاله، فهو سبحانه قابض مهيمن عليها كابحها، أو باسط قوتها وقوة انتشارها، وبجلاء ووضوح سترى يوم القيامة أن: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: 67].

وقدرة القابض والباسط جل جلاله ليست على المادة فحسب بل تجدها عند اللطيفُ جل جلاله الذي يَعْلَمُ ما يصلح لك ولكل خلقه، وهو الذي يقبض أو يمسك بلطف عباده بما أعطاهم من أن يفتنوا ويبعثروا هذا العطاء: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله هو الذي يَعْلَمُ ما يصلح لك لأنه وحده:

اللطيف وهو وحده القابض والباسط جل جلاله



عليك ألا تتوجه لغير الله سبحانه في الطلب؛ بل توجه وأنت موقنٌ أن الله وحده هو المغني جل جلاله، ولا مغنيَ يقيناً غيره والأمر أولاً وأخيراً ظاهراً وباطناً بيده سبحانه.

لا تخشَ نقصاً أو فقراً أو فاقة فهو الذي يمنّ بالفضل ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة: 28]، لا مال ولا عزّ ولا جاه ولا ولد ولا أنصار ولا شيء يغني عن المغني جل جلاله وعن نفاذ حكمه وإرادته، وهذا نبينا عليه الصلاة والسلام خاطبه سبحانه قائلاً: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: 8].

المغني جل جلاله هو: الذي يغنيك من فضله عن كلّ شي، والفضل هو الزيادة التي لا حاجة لها، أي أنه عندما يغني من فضله فلا ينقص مما عنده شيء مهما كان الذي أغناه فقيراً: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 32]. وإن أغناك المغني من فضله، ثم بذاك الغنى تصدقت أو صليت أو عملت أي عمل لله سبحانه، فإياك والظن أنك بعملك هذا قد قدمت شيئاً لله، أو أنه سبحانه بحاجة إلى عملك، فهو:

الغني جل جلاله: عن خلقه أجمعين لا يحتاج أحداً منهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: 6]، وهو سبحانه أعلمنا: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 267]. لذا عندما يغنيك الله سبحانه يجب ألا يغيب عنك أن الغني جل جلاله هو الله، وإياك أن تشعر بأهمية أو قيمة الجهد الذي تبذله، أو تتوهم أنك تقدم خيراً لله وكأنك تقدم مساهمة لسلطان أو حاكم، فكم من مُصلٍّ يقوم الليل ويكثر من العبادات ولا يدرك في قراره نفسه أن الله سبحانه له ما في السماوات والأرض وأنه الغني جل جلاله عن عمله وعن خلقه أجمعين ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 68].

تفكّر في نفسك تجدها حتماً فقيرة دائماً ولا محالة لله سبحانه، بل وكل الناس فقراء والله هو الغني جل جلاله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: 15-17]. لا مغني يقيناً إلا الله ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: 48]، إذاً فلا تضع الأمل الزائف والرجاء الخائب فيما يغني مؤقتاً ولا يغني عند أمَسّ الحاجة إليه، وتيقن بأن لا غنى بأيّ شيء عن أمر الله أو مشيئته أو فضله.

وإياك أن تتوجه إلى المغني جل جلاله فقط بدوافع الطمع الشخصي، حيث تطمع أن تغنم ماديّاً ما تستطيع أن تغنمه وبالحدّ الأقصى، لأن هذا التناول لا يفيدك شيئاً، وإن أردت

الاستغناء بأي أمر كان اطلب رضا الله وتوجه إلى المغني جل جلاله، فلا غنىً إلا برضاه سبحانه، لذا فلا تضع أيّ ثقة أو أيّ أمل في أيّ شيء أو أيّ أحد، إذ لا فائدة في ذلك إن لم يكن ثمة رضاً من الله.

لا بدّ من رضاه سبحانه وتعالى حتى الملائكة الكرام عليهم السلام لا يستطيعون الشفاعة إلا بإذنه، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: 26].

وإن أحببت أن تتمم سعيك في توجهك إلى المغني جل جلاله الَّذِي يُغْنِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وهو الذي أغنى الخلقَ وكفاهم بما جعل لهم من أموالٍ وبنين، وما ساقه إليهم من الأرزاق فاعلم أن: الله وحده هو:

الرزاق جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58]. ولا رزق عند غير الله، ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾ [طه: 132].

وهو سبحانه وحده الذي يقرر كلّ ما يتعلق بالرزق، وأن الرزق مقسوم وكلّ إنسان يأخذ قسمته ويُتَوَفى عند انتهاء رزقه، هذه هي الحقيقة، وإياك أن تقع في متاهات الذين يقولون إن كان رزقك مقسوماً فلِمَ تجتهد وتسعى في طلبه، وإن كنت تظن ذلك فهي أوهام تعيشها.

كن على يقين أن الرزاق جل جلاله ربط سعيك لحصولك على رزقك بدافع أساسي وحميمي عندك وهو حاجتك للرزق ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك: 15]، وهذا السعي لحصولك على الرزق هو أمرٌ يريده سبحانه لأنه يتأتى عنه النضج والارتقاء والتعلّم. فإن سعيت طلباً للرزق، عليك أن تبحث وتفكر وتبتكر طرقاً مختلفة كي تحصل على رزقك، وبهذا السعي تتعرف على كيفية التعامل مع الآخرين، وهذا يوصلك إلى النضج والتعلم، ويسمح لك بفهم حكمة الله في الزرع والبِذَار والحصاد والماشية والتجارة وأداء الأمانة وغيرها.

وإن أحببت أن تتمم سعيك في توجهك إلى المغني جل جلاله، فسَلِ الله أن يعطيك هِبةً من محض كرمه وفضله فهو:

الوهاب جل جلاله: الذي يهب؛ أي: يعطي، وهذا العطاء عطاء بلا مقابل لا استحقاقاً للعبد، بل من محض كرمه سبحانه؛ ومثال ذلك أن يغنيك من فضله فيهب لك ذرية ودليلك

إلى ذلك سيدنا زكريا جل جلاله فقد توجه إلى الوهاب جل جلاله حين أراد الذرية: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: 38]، وكيف استجاب له سبحانه ووهب له سيدنا يحيى ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: 90].

وكذلك كيف توجه سيدنا سليمان للوهاب جل جلاله طالباً الملك ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: 35].

وإن أردت الثبات في الأمر توجه للوهاب جل جلاله أن يثبت قلبك على الهداية: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أنك:

إذا أردت أن يغنيك الله سبحانه اطلب رضاه وتوجه إليه فهو:

المغني جل جلاله: الذي يغنيك من فضله عن كلّ شي، وهو:

الغني جل جلاله: عن خلقه أجمعين لا يحتاج أحداً منهم وهو:

الرزاق جل جلاله: ولا رزق عند غيره وهو:

الوهاب جل جلاله: الذي يهب؛ ويعطي لا استحقاقاً للعبد، بل عطاء بلا مقابل.



نفسك شيء وجسدك شيء آخر، لذا اجعل شعارك: (أنا لست جسدي) وإياك أن تخاف من شيء اسمه الموت، ففي النوم يتوفى الله الأنفس ويبقى الجسد حيّاً ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: 42].

إن كنت نائماً، فالله مُتوفِّي نفسك، وانتبه حين تستيقظ أن استيقاظك هو أمر مُقَدَّرٌ مسبقاً في سابق علم الله سبحانه! واليقين أنه إن لم يشأ سبحانه أن يوقظك لما استيقظت. والرسالة الإلهية في المنام واليقظة، أن الله سبحانه ينبهك أنه هو:

المحيي وهو المميت جل جلاله: ولا يموت شيء أو أحد إلا بأمره، وهذا اليقين هو سلام لك كي تكمل حياتك بتوازن أساسه ثقتك بالله، وضمانة منه سبحانه أن أمر الموت يتم بمشيئته وبناء على علمه وحكمته، وهو مظهر من مظاهر هيمنته على خلقه سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: 44].

واعلم أن كلّ كائنٍ تدبّ فيه الحياة، الله هو الذي أحياه، وكل ما ترى من مظاهر الحياة هي من:

المحيي جل جلاله: الذي إن قطع عنك مدد الحياة ولو لطرفة عين أصبحت ميتاً، فهو الذي ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: 2]، وهو سبحانه من يمدك بالحياة في كل لحظة، لأن الحياة ضرورة على الدوام، يحتاجها كل حي خلقه الله سبحانه، ولكن الناس لكثرة ما يرون من مظاهر الحياة غافلون عن هذه الحقيقة واعتادوا عليها، والعادة غشاوة تحجب البصيرة.

إياك والظن أن مسألة الحياة شيئاً معتاداً وتلقائياً، تألفه وتعتاد عليه كأنه أمر يسير بشكل تلقائي، بل إن الحياة مدد من الله فهو:

المحيَي جل جلاله: الذي يحيي أول مرة وكلّ مرة، ﴿وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: 56]، بل ونقطة بداية الحياة وأيّ شيء يحدث ويظهر مبدئه من عند الله سبحانه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: 13]، فهو:

المبدئ جل جلاله: القادر على أن يعيد الحياة لمن ومتى يشاء، ولا يأخذ أي شيء معنىً له إن لم يشأ الله تعالى تحديد بدايته، فهو المبدئ جل جلاله الذي خلق كلّ شيء على أحسن وجه، وبداية أي مخلوق من عنده ومنها بداية خلق الإنسان ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7].

كن على يقين أن الله هو المبدئ جل جلاله، الذي بدأ خلق كل شيء وإليه مرجع كل شيء ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: 4].

وهو جل وعلا الذي يضع بداية ونهاية أي خلق كان ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: 13]، وهو القادر على إعادة أي خلق كان لأنه:

المعيد جل جلاله: الذي أوجد كل خلقه أصلاً، والقادر أن يعيد أي خلق كان من جديد متى شاء وكيف يشاء؛ لأن الابتداء لهذا الخلق أولاً كان مطابقاً لإرادته سبحانه، وإرادته نابعة عن علمه، وحكمته هادفة ومطابقة لألوهيته. انظر في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: 19].

ويوم القيامة ستجد نفسك قد بعثت بنفس اللحظة، دون المرور بمراحل الحياة الدنيا من ولادة وطفولة وشباب، بل بعثت بكامل وعيك، والوعي في العالم الآخر آلاف الأضعاف عن الوعي في هذه الدنيا، وعندها ترى يقيناً أن الله جل جلاله وحده وبالهيمنة المطلقة على كل ما خلق، قادرٌ على أن:

يحيي ويميت ولا محيي ومميت سواه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: 6]. وهو القادر على إعادة أي شيء كان قد ابتدأه وخلقه لأنه:

المبدئ والمعيد جل جلاله الذي قال:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء: 104].

وإن كنت على يقين بذلك فلن يرتبط عندك ذكر الموت بالذعر والأسى أو اليأس أو الشعور بالعجز وما إلى ذلك من مشاعر سيئة؛ بل هو ضمانة لك أن أمر الموت والحياة بل وبداية أي شيء وإعادته يتم بمشيئته الله وبناء على علمه وحكمته سبحانه لأنه هو ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء: 81]. وهو جل جلاله ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: 13]. وبداية ونهاية أي خلق عنده.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

بداية ونهاية أي خلق هي من عند الله، يقينك بذلك يجعلك تعيش بسلام وتكمل حياتك بتوازن أساسه علمك بأن الله هو: المحيي والمميت والمبدئ والمعيد جل جلاله

قربكَ من الله هو أحد أبواب إجابة الدعاء؛ فهو جل وعلا القائل لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186] ولا إجابة لإنسانٍ هو بعيد عمَّن هو سبحانه ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: 50] و﴿قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 61].

القرب من الله سبحانه لا غنى لك عنه أبداً، ولكن له شروطه وأسبابه، منها أن تعلم أنه كلما كان الشيء نقياً طاهراً مقدّساً أمكن لهذا الشيء الاقتراب منه سبحانه؛ لأنه:

القدوس جل جلاله: أي المقدس المنزه عمّا لا يليق به، فلا يقبل الخبيث ولا يقبل الخبث والمنزَّه عن أيّ عيب أو نقص أو إسقاط بشري ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: 23].

لتكون لائقاً بالتقرب: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162] الذي خلقك والذي هو مقدّس ومنزَّه عن كل شيء، ولتكون أهلاً للتقرب من حضرة الملك القدوس جل جلاله، ابتعد عن كل خبث وكن دائم النقاء والطهر، وحافظ في كلّ لحظات حياتك على ذلك، وكن من الذاكرين عسى أن يشملك قوله تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: 1].

ومن أبواب إجابة الدعاء: أن تكون مؤمناً ذا عزم وجلدٍ ومثابرة، وإن أحببت أن تتصف بهذه الصفات، فاجعل قلبك متوجهاً بأسرار السورة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» [صحيح البخاري]. ألا وهي:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1-4].

انظر كيف ارتبط فيها لفظ الجلالة الله بالصمد سبحانه ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، والصمد هو الذي يُصمَدُ إليه بالحوائج، الوحيد القادر سبحانه أن يعطيك حوائجك، لذا توجه إليه على الدوام بالتعظيم والعبادة والسؤال، ولا جدوى من التوجه إلى غيره فهو سبحانه الحي الباقي وكلّ من سواه ميت.

الصمد جل جلاله: هو الحريُّ والجديرُ أن يُعظَّم ويعبد ويُتوجه إليه بالسؤال؛ لأنه على كل ما هو عليه من كلِّ صفات الألوهية والعظمة والجلال والعلم والقدرة، هو ثابت أزلي أبدي لا يتبدل؛ لأن كماله سبحانه مطلق على كلِّ شيء، وسلطانه وهيمنته وقوته وقدرته لا تنقص،

ولا تزيد وهي بحدِّها الأقصى واللانهائي، وهذه القوة مجبولة بالعلم والحكمة، متصفة على الدوام بالجلال.

ليكن عندك عقيدة راسخة ويقين مطلق أن الله هو:

المجيب جل جلاله: يقيناً لا محالة، لأنه جل وعلا أمرنا أن نتوجه بالدعاء له حتى يستجيب لنا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، والإجابة حاصلة لا كما نشاء نحن العباد؛ بل كما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء سبحانه.

واعلم أن الله أدرى بحاجتك، وأنه بسابق علمه يعلم أنك سوف تدعوه باللحظة التي قَدَّر لك فيها الدعاء، فهو سبحانه الذي خلقك وهو أدرى بحاجتك منكَ أنت؛ لذا لا تكن عجولاً قنوطاً، إن لم تحصل إجابة دعائك، أو أن تظن أنه سبحانه لا يجيب.

سَلِ المجيب جل جلاله وتوجه بالكلية إليه بالدعاء لكلِّ صغيرة وكبيرة بصدق وحرارة، وكُنْ واعياً تمام الوعي أن دعائك هو صلة به سبحانه؛ لأنه من سابق علمه كتب لك أن تسأله، وكتب لك الإجابة، وإن أدركت ذلك في دعائك غاب عنك كل شيء ولم يبقَ غير الله سبحانه الذي قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

إجابة المجيب جل جلاله لدعائك تكون مباشرة لك أو مؤخرة في هذه الدنيا، أو قد يؤجلها لك إلى يوم الحساب، حيث تود هناك أنه سبحانه أجّل لك كلّ دعاء دعوته إلى ذاك اليوم؛ لِما تجد من كرم المجيب جل جلاله.

ومن رحمته يستجيب لكل مضطر دعاه من كلِّ المِلَل والأديان إن توجه بدعاء صادق: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62]؛ لأن الإجابة ليست متلازمة على الدوام مع صحة العقيدة، فلا يعني سوء العقيدة عدم الإجابة على الإطلاق، وكذلك فلا تعني صحة العقيدة إجابة حتمية وآنية على الدوام؛ لذا إياك أن تظلم أحداً لأن دعوة المظلوم حَذَّرَ منها نبينا قائلاً: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُوم فَإِنَّهَا لَيسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» [صحيح البخاري]. وقال في حديث آخر: «دَعْوَةُ الْمَظْلُوم مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِراً فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ» [مسند أحمد].

القرب من الله سبحانه لا غنى لك عنه أبداً، وهو طريقك لإجابة الدعاء وهذا يتطلب منك أن تكون متيقناً أن الله هو:

المجيب جل جلاله: وهذا يقيناً لا محالة، وأبواب الإجابة مفتوحة لأنه جل وعلا أمرنا أن نتوجه بالدعاء له حتى يستجيب لنا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، وأن تكون متيقناً أن الله هو:

القدوس جل جلاله: أي المقدس المنزه عمّا لا يليق به، فلا يقبل الخبيث ولا يقبل الخبث، وهو المنزه عن أيّ عيب أو نقص أو إسقاط بشري، وأن تكون متيقناً أن الله هو:

الصمد جل جلاله: الوحيد القادر سبحانه أن يعطي عند الحوائج، المقصود إليه في قضاءِ الحاجاتِ، الحريّ والجدير أن يُعَظَّم ويُعْبَد.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير إن:

كان يقينك بأن الله هو المجيب القدوس الصمد جل جلاله

فأنت بذلك تطرق أبواب إجابة دعائك.



احمدِ الله دائماً أن الله هو:

المهيمن جل جلاله وأن كل شيءٍ تحت أنظارِ وسيطرةِ وإرادة المهيمن، الذي له القوة والقدرة التامة على ما دونه، وهذه القدرة مصحوبة بالعلم والحكمة، ولولا هذه الهيمنة المطلقة على الوجود بأسره لحصل انعدام تام للنظام، ولم يبقَ شيء في هذا الكون.

المهيمن جل جلاله: هيمنته فيها معنى الارتفاع والعلو، قدرة على ما دونه من كل خلفه، وسيطرة تامة على كل شيءٍ، علوٌّ من غير أن يُعلى عليه، ومن علوه جل جلاله إشرافه؛ وبالتالي سلطته التامة وسيطرته ومعرفته بكل ما يجري، وهو على عِلْم بالصغيرة والكبيرة، ولا تخرج صغيرة ولا كبيرة إلا بعلمه وإرادته وسيطرته سبحانه، علمه محيط بكل شيءٍ وهو مشرفٌ على كل شيء.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23].

ومن علوِّهِ وجلاله سبحانه أنه محيط ومشرف بعلم على كل ما أوجدَ وخلقَ، له الأمر كله، لا تناقض ولا تضارب في سريان إرادته سبحانه؛ بل انسجام مطلق في كل لحظة ومكان، وفي علاقة الأسباب بالغايات، تنزّه عن خلقه بتفرده بصفات الألوهية المطلقة فهو جل وعلا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

واحمدِ الله دائماً أن الله هو:

العزيز جل جلاله: الذي يفعل كل شيء بترَفُّع وسُمُّو واستغناءٍ وتعالٍ عمَّن سواه، ليس لديه أي نقطة ضعف، ويحكم بعزته حكماً مستقلاً استقلالاً تاماً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]، ومهما فَعَلَ أيُّ امرئٍ حتى يؤثر في العزيز جل جلاله فإنه لا يتأثر ـ حاشاه سبحانه ـ حتى لو اجتمعت الإنس والجن؛ لأنه منيع مترفع أعلى من أن يصل إليه أحد، كائناً من كان، كما جاء في الحديث القدسي:

«يَا عِبَادِي إِنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي» [صحيح مسلم].

ليكن في قلبك الخشوع والرهبة لما في العزيز جل جلاله، من معاني الجلال والهيبة والجبروت ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:260]. وقل دائماً: سبحان الله العزيز المترفع المتسامي المتعالي والمستغني عن كلِّ شيء.

واحمدِ الله دائماً أن الله هو:

الحق جل جلاله: ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: 6] وما سوى حقيقة الله باطل: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: 81].

الله هو أصل الحقيقة وكل الحقائق، ونقطة انطلاق أي فكرة من عنده سبحانه، وهذا أول منطلق ينبغي أن يكون حاضراً في ذهنك دائماً كبديهة يقينيّة، وراسخاً رسوخ الجبال كحقيقة أساسية.

الله هو الحقيقة المطلقة، ومن لا يرى بجلاء هذه الحقيقة أو ينكرها، فسوف يأتي اليوم الذي يموت فيه، ثم يبعث ليقف بين يدي الحق جل جلاله وعندها يعلم يقيناً ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الحج: 6]، وسيرى يومها بوضوح أن الحق جل جلاله كان شهيداً عليه عندما أنكر هذه الحقيقة.

والآن: إن كنت على يقين أن الله هو المهيمن جل جلاله:

فهذا يجعلك تخاف الله وحده، ولا تخاف أحداً سواه في أيِّ تصرُّفٍ أو عملٍ تعمله مع الآخرين؛ لأنه لا حول لأحدٍ بوجود المهيمن جل جلاله، وهذا اليقين يخرجك أيضاً من كلِّ إشكالات الخوف من الناس أو الطواغيت أو الجبابرة أو أي قوة خفية؛ إذ كيف لأحدٍ من كل هؤلاء أن يتطاول على المهيمن جل جلاله، أو يظن أنه قادر على الالتفاف أو فرض إرادته على الإرادة الإلهية، كما هو اعتقاد بعض الأديان الأخرى.

وإن كنت على يقين أن الله هو العزيز جل جلاله:

فعليك الأدب معه سبحانه في عملك ومناجاتك وفي سائر أحوالك وإياك والتعامل معه سبحانه برفع الكلفة أبداً، كأن تتصوره جل وعلا صديقاً عزيزاً، أو تخاطبه بعبارات مثل: «عزيز على قلبي»، «أُعِزُّ فلاناً كثيراً» وأمثالها من التي تخاطب بها من تعزهم من الخلق والبشر، لأن هذا المعنى المرتبط بكلمة عزيز مع البشر منفي تماماً في حقه سبحانه، بل ويوقعك في عتب قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الحج: 74]؛ لأن معنى العزيز في حق الله جل جلاله: هو تَرَفُّعٌ واستغناءٌ، وعدم التأثر بأيّ مؤثر خارجي؛ أي: إنه سبحانه لا يؤثر فيه أيّ مؤثر، ولا يتأثر بأي شيء، ولا يميل لشيء، ولا يَطلبُ شيئاً، عنده كلُّ شيء ولا ينقصه شيء، وصفة العزِّ عنده جل جلاله هي صفة تامة وليست سطحية، بل وتأخذ أقصى حدٍّ لها؛ لأنه لا عزيز بالمعنى المطلق إلا الله سبحانه.

وإن كنت على يقين أن الله هو الحق جل جلاله:

فإياك ثم إياك أن تُستدرج لتصلَ إلى أيِّ جدلٍ كان مع مَنْ يطالب بإثبات وجود الله، أو أن تُضَيِّعَ وقتك لتجيب على سؤال عنوانه صحة وجود الله أو عدم صحة هذا الوجود، وكيف السبيل إلى إثبات ذلك؟ أو تبحث عن أدلة وحجج ونقاشات ومجادلات حول وجود الله أو عدم وجوده؛ لأن ذلك كله هو الباطل بعينه ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62]. وتوجَّه إلى الحق جل جلاله بدعاء نبينا عليه الصلاة والسلام:

«اللهم...لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، ..» [صحيح البخاري].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

يقينك بأن الله هو المهيمن جل جلاله: يجعلك تخاف الله وحده، ولا تخاف أحداً سواه

ويقينك بأن الله هو العزيز جل جلاله: يجعلك مؤدباً في عملك ومناجاتك وسائر أحوالك معه سبحانه لأنه لا عزيز بالمعنى المطلق إلا الله سبحانه.

ويقينك بأن الله هو الحق جل جلاله: يغنيك عن أيِّ جدل كان مع من يطالب بإثبات وجود الله لأن الله هو الحقيقة المطلقة وما سوى هذه الحقيقة باطل.



لا تضع أَمَلَكَ في غير الله تعالى فهو:

الكريم جل جلاله الذي عطاؤه:

عطاء الكرم المطلق ولا يكون ذلك لغير الله سبحانه،

عطاء كله جودٌ وكثرةٌ وسخاءٌ من غير مقابل،

عطاء الأعلى قدراً ومنزلة،

عطاء لا حدود له من الله الكريم الذي عطاؤه هو الأعلى قيمة إلى أبعد حدود العطاء.

إن أعطاك الكريم جل جلاله من عطائه فهذا يتطلب منك الانتباه بأنه آتٍ من عزيز وعالي القدر والمكان: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 116].

وهذا العطاء يتطلب منك تعظيم الله سبحانه مع الكثير من التأثر والعواطف لعطائه، وأن يكون سبحانه هو الأغلى والأحبُّ والأعلى قدراً ورفعةً في قلبك وفي عقلك ووجدانك، والامتنان لعطائه سبحانه؛ لأنه مجبول بالحب لك، لأن ذروة العطاء الإلهي لك، يوم تلقى الكريم جل جلاله ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ [الأحزاب: 44].

وإن أكرمك الكريم جل جلاله فعليك حمده بقلبك ولسانك ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ [الإسراء: 111]. وهذا هو الحمد، أما شكر الله فهو شيء آخر يتطلب منك عملاً ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ [سبأ: 13]، فإن عملتَ شكراً لله قابلك:

الشكور جل جلاله: بالعطاء والإحسان مقابل عملك، فهو الوحيد القادر على الجزاء الوافي ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا﴾ [النساء: 147] وشكر الله سبحانه لك يتجلى بعطاء مقابل طاعتك، ولكن هذا العطاء لا يقبل المقارنة في النسبة والتناسب بما قمتَ به من عمل، فما نسبة عملك إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

مهما عملت شاكراً لله فهو قليل لا يُذكر إذا قوبل بعطاء الله لك، ومهما شكرته سبحانه فلن تبرئ ذمتك ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]، فكن دائماً ممتناً غاية الامتنان لله تعالى، ولا تساوي في قلبك ووجدانك وعقلك بين جزاء العمل الذي تعمله وجزاء الله لك فتضعهما بمستوى واحد، لأن جزاءه سبحانه هو الوحيد الحقيقي والباقي.

واعلمْ أن أيّ عمل فيه طاعة لن يضيع ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [الشورى: 23] بل ستجزى عليه خير جزاء من الشكور جل جلاله، فلا تضع أَمَلَكَ في

غير الله تعالى فهو الوحيد الذي جزاؤه حقيقي، بل وسيقابلك بأحسن جزاء حبّاً منه وكرماً، وهذا الجزاء هو ما أخبر به نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله:

«قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» [صحيح البخاري].

وإن كنت على يقين بذلك الجزاء فاعلم:

أن الله هو البَرُّ جل جلاله: الذي يبرُّ ويَفي بوعده بالإحسان إليك، وجزاء إحسانه سبحانه إليك لا يقف عند هذه الدنيا؛ بل يستمر في الحياة الآخرة وهو الأهم، وهذا كلام أهل الجنة شهود منهم، فقد كانوا يدعونه فما خاب أملهم، ووجدوه جل جلاله براً بالإحسان صادق الوعد مخلصاً مستمراً في العطاء والجود والإحسان بلا انقطاع ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: 28].

هو البَرُّ جل جلاله إحسانه لا حدود له، وهو مُتَّصِفٌ بالمُبادرة؛ أي: بالابتداء والسبق وبالسرعة؛ أي: إنه السابق بالإحسان المتواصل لعباده والسريع في الثواب على ذلك الإحسان، وجزاءه على إحسان عباده إحسانٌ يليق بعظمته، ويتصف بصدق وعده، وبدوام فضله.

لا تضع أَمَلَكَ في غير الله تعالى فهو:

الكريم جل جلاله: الذي عطاؤه سبحانه عطاء الكرم المطلق، ولا يكون ذلك لغير الله، وهو عطاء وكرم من المستوى الإلهي وذروة ذلك العطاء يوم تَلْقَى الكريم جل جلاله ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: 44].

لا تضع أملك في غير الله تعالى فهو:

الشكور جل جلاله: الوحيد الذي جزاؤه حقيقي، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 147].

وهو سبحانه الذي يقابلك بحسن الجزاء حباً منه وكرماً، وهذا الجزاء هو الجنة.

لا تضع أملك في غير الله تعالى فهو:

البَرُّ جل جلاله: الذي يبر ويفي بوعده بالإحسان إليك، وهذا كلام أهل الجنة شهود منهم ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: 28].

وأخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أنك:

إن تيقنت أن الله هو: الكريم، الشكور وأنه البَرُّ جل جلاله نلت عطاءً وكرماً من المستوى الإلهي.

أول شيء يفاجئك يوم الحساب أنك تجد أن الله جل وعلا كان رقيباً عليك وعلى علم بكل ما يجري معك بشكل متواصل وبدون انقطاع مع مرور الزمن من الإيجاد إلى يوم الحساب:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 1].

ثم تجد أنه جل وعلا كان شهيداً عليك وعلى كل عبد من عباده، بأفضل وأتم ما تكون شهادة شاهد لأي أمر أو عمل أو حدث كان، بحضور متوافق مع جلاله وعظمته سبحانه، ولا قيمة لأيّ شاهد أمام من قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ [النساء: 33].

وليس الأمر يقف أنَّ الله جل وعلا كان رقيباً وشهيداً عليك وعلى كل خلقه؛ بل ترى في ذلك اليوم أنه هو المحصي جل جلاله القادر على إحصاء كل الأعمال والأفعال والأقوال التي عملتها في هذه الدنيا، ومعرفة عددها بالدقة والكمال لك ولكلِّ الخلق ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: 28]؛

وأمام هذا الموقف يوم الحساب الذي ترى فيه كل تلك الصفات الإلهية وغيرها من صفات عظمة الله سبحانه، يترتب عليك الآن في هذه الحياة الدنيا أن تستعد لهذا الموقف بالالتجاء إلى الحسيب جل جلاله، لأنك يوم الحساب لن تجد أحداً من الناس حولك، بل سيتولى الناس عنك ذاك اليوم؛ لذا ليكن الحسيب جل جلاله هو حسبك وتوكل عليه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129]، وإياك والاكتفاء بغير الله إطلاقاً، بل به حصراً وبالكلية، إذ عندما يكون الاكتفاء بالحسيب جل جلاله وحده حصراً وبالكلية فلن تخشى أحداً ولو اجتمع الناس كلهم عليك: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].

الله سبحانه هو الرقيب والشهيد والمحصي والحسيب جل جلاله، ويوم الحساب ترى بجلاء كل تلك الصفات الإلهية؛ لذا لا بد من تبيان جانبٍ آخر من معانيها، لما لها من أهمية بالغة مبيناً ذلك كلًّا على حدة:

الرقيب جل جلاله: هو الذي لا يغيب ولا يخفى عنه أيّ شيء، أو أي أمر، مع الإحاطة التامة، والمعرفة النافذة لكل أمر وشيء، يتابع كلَّ صغيرة وكبيرة بشكل متواصل وعلى الدوام بلا أي انقطاع، ومتابعته ليست متابعة شاهد حيادي بل متابعة مهيمن جل وعلا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52]، وإياك والغفلة عن الله سبحانه؛ فهو ليس الرقيب جل جلاله عليك فحسب؛ بل هو بذات الوقت وَكَّل بك ملائكة كالرقيب والعتيد ليكتبا كل صغيرة وكبيرة تعملها ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: 18].

و يوم القيامة والحساب، سترى هناك أنه سبحانه كان الرقيب جل جلاله على كل لحظة زمن كنت فيها، وأنت مُراقَب ومكلف، وأنك ستحاسب على كلّ صغيرة وكبيرة بل وعلى كل مثقال ذرة من خير أو شر، لأن الله تعالى كان في مراقبة دائمة ومتابعة مستمرة لأي عمل تعمله ومع مرور الزمن من غير تدخل آني؛ لذا لا تعجب كيف ترك الظالمين في الحياة الدنيا لظلمهم و أخَّرَهم ليوم الحساب: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: 42].

الشهيد جل جلاله: هو شهيدٌ عليكَ أنتَ وكلَّ الخلق، وعلى أيِّ عملٍ تعمله وأية شهادة تشهدها، ويوم الحساب ستجد أنه سبحانه قد أحصى لك كل عمل عملته، وسوف تُحاسب عليه ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: 6].

وأرهب شيء تراه يوم الحساب هم البشر الذين ظنوا وجال في أذهانهم بأن الإله الخالق من عظمته وكرم مقامه أبعد من أن يهتم بشؤون أهل الأرض، ستجدهم يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 49]. وعندما يأتون في يوم البعث والحساب عبادٌ للرحمن سبحانه كلٌّ على حِدة ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾[مريم: 93-95]، وأمام ذلك الموقف الرهيب حيث ترى كلَّ نفس مصيرها بين جحيم نار جهنم ونعيم سعادة الجنة، فإنها تدافع عن نفسها وتبرر وتجادل مستميتة ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل: 111]، وتوضع الحجة على أي نفس إن قالت لخالقها: لا أنكر أنك عليم بما يكون، ولكنك بعيد في علوك وكبريائك ولن يكون ما كتب في كتابي ولا ما أخبرك به ملائكتك مطابقاً لما جرى بي أو معي، والحجة على العباد يومها أن الله سبحانه لم يكن فقط عليماً، أو فقط عليماً أو سميعاً أو بصيراً، أو فقط عليماً وسميعاً وبصيراً، بل كذلك هو الشهيد جل جلاله على كل عبد من عباده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: 33]. لذا فإنه سبحانه يضع الحجة الدامغة على تلك النفس التي تجادل الشهيد سبحانه ويتركها تشهد هي عن نفسها : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

[فصلت: 20 – 21].

المحصي جل جلاله: هو القادر على إحصاء الأعمال والأفعال والأقوال وجعلِهَا في كتاب، يُدرك الناس حقيقته عندما يُرفع عنهم الحجاب ويقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: 49].

إحصاؤه سبحانه كلّ شيء مؤكد لك بقوله: ﴿عَدَدًۢا﴾ [الجن: 28]؛ وهو دليل على علوٍّ شاسع علمه وهيمنته المطلقة، وعلمه التام بكلِّ ما أوجد ولا يخرج عن هذا العلم شيء.

إحصاؤه سبحانه ليس بالإجمال كما يكون الحال عليه بالنسبة للبشر؛ بل يحصي كلّ شيء عدداً مهما كان العدد كبيراً وبأدق ما يكون ولا أحد قادر على ذلك إلا المحصي جل جلاله.

الحسيب جل جلاله: هو الذي يكفيك في الدنيا فهو حسبك، وتكتفي به عن غيره، ولكنه يوم الحساب هو ذاته الذي يحاسبك على دنياك، وعلى ما أعطاك وكفاك فيها؛ لذا إن التجأت إلى الحسيب فإياك أن تنسى يوم الحساب، لأنك ستُرَدُ إلى ذلك اليوم وستقف بين يدي الله الحق الحكم الحسيب جل جلاله:﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: 62]. عليك بالالتجاء إلى الله فهو الحسيب جل جلاله، وليكن ﴿حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:62] في كلِّ أمرٍ من أمورك في هذه الحياة الدنيا، وضَعْ ثقتك التامة في ترتيبه سبحانه؛ لأنك إن التجأت إليه اقتربت منه سبحانه، ومَن اقترب من الله أصبح في الحضرة الربانية ولن يستطيع أحد أن يصل إليه، فهو محفوف محاط ولن يخشى أحداً سواه أبداً، ودليل ذلك أنبياء الله الذين بلَّغوا رسالته اكتفوا بالحسيب جل جلاله:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

وأخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن

أول شيء يفاجئك يوم الحساب أن الله جل جلاله هو: الرقيب والشهيد والمحصي، لذا عليك أن تجعل هذه الصفات الإلهية يقيناً في قلبك، وأن تتوجَّه لدنياك و ليوم الحساب إلى:

الحسيب جل جلاله عند كلِّ صباح ومساء، كما علَّمنا نبينا عليه الصلاة والسلام قائلاً:

«مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ» [سنن أبي داود].



إن كنت ذا قلب حيٍّ فاحمدِ اللهَ أنه:

الحي جل جلاله: واسأله الثبات، لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف يشاء؛ كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام:

«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» [صحيح مسلم]. فهناك الكثير ممن يعتقد بأن الحياة بدأت من تلقاء نفسها، ولا يعلمون أن حياتهم هي بمدد الحي جل جلاله، وأن الله هو مُوجِدُ كلَّ حياة، ولا يعلم أصحاب ذاك الاعتقاد أنهم عندما يبعثون يوم الحساب سيعون تماماً أن ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]، وفي ذاك اليوم سيرون كيف أحياهم سبحانه مباشرة دون المرور بمراحل الحياة الدنيا، ويرون عياناً أن الحياة ما هي إلا بمددٍ من الحيِّ جل جلاله، وأن الحياة الحقيقية والدائمة هي الحياة الآخرة.

فكُنْ مِنَ الذين يَعون ويدركون ذلك تماماً في حياتهم الدنيا حتى تكون من الذين أخبر عنهم سبحانه: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: 103].

ثم إن كنتَ ذا قلبٍ حيٍّ فاحمدِ اللهَ أنه:

القيوم جل جلاله: الذي عَرَّفك سبحانه عن نفسه من خلال كتابه الكريم، وحماك من متاهات عقائد كثيرة تسللت إلى عقول البشر؛ فهناك مثلاً: من يعتقد بأن الإله بعد إذ أوجد الخلق دخل في سبات أو نوم!! وأصحاب هذا الاعتقاد يبررون ما يسمونه استراحة الإله بما يرون من أحوال في هذه الدنيا ولا يستطيعون فهمها، وتفسيرها الوحيد حسب زعمهم هو غياب الإله المؤقت راحةً أو نوماً!!.

هذا الاعتقاد يقود إلى أخطر منه، وهو الالتجاء إلى أوهام قوىً أخرى تقوم بالأمور بغياب الإله، ولا تزال ألوف مؤلفة تعتقد بذلك، ولا تظن أنك بعيد عن مثل هذا الاعتقاد، فقد حَذَّر نبينا عليه الصلاة والسلام وأخبر عن آخر الزمان وهو زماننا قائلاً:

«يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِناً ثُمَّ يُمْسِي كَافِراً، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا ثُمَّ يُصْبِحُ كَافِراً» [مسند أحمد].

وكلما تقدَّم الزمن ـ وهو يتقدم بتسارع ـ ازدادت إمكانية وخطورة مثل هذه الأوهام التي تُؤْمِنُ بها أممٌ وشعوب، والتي قد تتسلل إلى قلوب أهل الإيمان؛ إذ الحواجز بين الأمم و المجتمعات

والأديان تتلاشى يوماً بعد يوم؛ لذا عليك ـ إن كنت ذا قلب حي ـ أن تسأل الله سبحانه الثبات وأن تعلم أن الله ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾[آل عمران: 18]؛ أي: عاملاً به ـ إن جازت العبارة ـ متابعاً له غير تارك له، وهو تعالى قَيُّومٌ أصلاً قبل خلقه و بغيرهم. انظر إلى قولك: (قائم على عمل) أي متابع له شاهد عليه متقن له.

اعتقادك بأن الله هو القيوم جل جلاله، يمسح من قلبك إن تسلل إليها سوء اعتقاد تلك الأمم، انظر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ يليه مباشرة: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾[البقرة: 255]؛ أي: إن معنى القيوم يحوي من معاني الاستقلالية والتفرد والهيمنة والقوة والسيطرة والفعل، وعن استغنائه سبحانه وتعالى واستقلاله عمَّن سواه في قيوميته.

وإن تفكرت بعجائب المعاني المكنونة في هذه الآية ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 1-2] تلاشت نفسك وإرادتك أمام عظمة هيمنة الحي القيوم جل جلاله.

و إذا كنت ذا قلبٍ حَيٍّ فاحمدِ اللهَ أنه:

الحفيظ جل جلاله: واعلم أن هناك من يعتقد بأن الموجودات تبقى موجودة تلقائياً طالما أنها لم تخضع لقوة تتلفها، ولا يعلم أولئك أن الله الحفيظ جل جلاله هو الذي بيده الإبقاء على الموجودات، أو أثر الموجودات والحفاظ عليها، وأن ثمةَ قوىً هائلة تبقي عليها بشكل متواصل ومستمر ودون انقطاع، وتحفظها من التلاشي أو الزوال، ولا يدرك عظمة هذه القوى إلا من تعمق في أسرار الذرة والفيزياء الفلكية.

الحفيظ جل جلاله بيده القوى الضابطة للمادة، وهو وحده سبحانه الذي يسيطر على انتشار المادة إلى اللانهاية أو عدمها، ويمنعها من التلاشي والزوال أو البقاء والاستمرار بشكل متواصل مع مرور الزمن ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [سبأ: 21].

وتعمقٌ شديد في أسرار المادة من المتناهي في الصغر إلى المتناهي في الكبر يقودك إلى الإيمان واليقين أن الله سبحانه هو الحفيظ جل جلاله، الذي يُبقي أيَّ موجودٍ من العودة إلى العدم، وهو وحده إن رفع حفظه عن أيِّ موجودٍ تلاشى وأصبح معدوماً، حتى أعمال العباد هو سبحانه يحفظها من الضياع ليجدها أصحابها يوم الحساب كاملة ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [هود: 57]؛ بل السماوات والكرسي وما فيها من مادة يحفظها سبحانه من الزوال ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

هو الحفيظ جل جلاله الذي يحفظ أيَّ شيءٍ بشكل متواصل مع مرور الزمن من التلاشي والزوال، وهذا الحفظ بعلوٍّ وهيمنةٍ مطلقةٍ ودون أيِّ مشقة أو تعب:

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾[البقرة: 255]. والأهم من كل ذلك أن الحفيظ جل جلاله هو الذي تكفل بحفظ كتابه الكريم من كل تحريف أو تغيير ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وإن كنت ذا قلبٍ حيٍّ فاحمدِ اللهَ أنه:

المُقيت جل جلاله: وأن قوتك وما تقتات به أنت وكل الخلق بيده سبحانه؛ لذا إياكَ أن تخاف ممن قُوتُكَ بيده ألّا يصلك، فالمقيت جل جلاله هو الله وحده، حتى إن كنت ممن له سلطة على أرزاق العباد فإياك التحكم بأرزاقهم؛ وخاصة إذلالهم بالمنِّ عليهم من خلال أقواتهم، فقد حذَّر من ذلك نبينا عليه الصلاة والسلام قائلاً:

«كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ» [صحيح مسلم]، وليكون إيمانك بأن الله هو المقيت جل جلاله عليك التفكر في الأعماق السحيقة للمحيطات حيث لا ضوء ولا حرارة، وحيث تستحيل الحياة بناءً على المنطق العلمي، تجد هناك ثغرات بركانية يندفع منها ماء تزيد حرارته بحكم الضغط الشديد على 400 درجة مئوية، تعيش حوله بكتريا وكائنات صغيرة لا تُرى إلا بالمجهر تتغذى عليها كائنات أخرى، وهناك تزامن بين وفرة ذاك الغذاء ومجيء أحياء مهاجرة لتلك البقعة في أيام محددة، حيث تجد حاجتها من الغذاء، والأمثلة في ذلك المجال لا تحصى.

إن تأملت في ذلك وتفكرت به تجد في ذاك التكامل بين الأحياء في الأقوات ترتيباً دقيقاً وعجيباً، لأن أمر القوت هو بيد الله المقيت جل جلاله، وهو بيده ترتيب قوت خلقه لأنه سبحانه حين خلق الأرض قَدَّر فيها أقواتها: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: 10]، فهو سبحانه الذي يمدّ كلّ شيء بالطاقة اللازمة له، وأيّ موجود لا يبقى موجوداً إلا بمددٍ الطاقة والقوة من المقيت جل جلاله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾ [النساء: 85]؛ لأن الطاقة هي التي تشكل أيَّ ذرة في هذا الكون، وإن سحبت تلك القوة أو الطاقة من أيِّ ذرة تلاشت ولا يبقى منها شيء، وإن أوقف المُقيت جل جلاله مدد الطاقة في الأفلاك تلاشت ولا يبقى لها أثر.

الله هو المقيت جل جلاله وتجليات هذه الصفة الإلهية تجدها عند الحفيظ الذي حفظه سبحانه بمدد الطاقة التي جعلها في تجليات صفته المقيت وهي التي تحفظ الطاقة ضمن الزمن، والآن بعد حمدك لله تعالى أنه هو الحي القيوم، وهو الحفيظ المقيت جل جلاله أُجمِلُ لك خصال الخير في هذا الحمد لتكون من الناجين يوم القيامة:

الله هو:

الحي جل جلاله: وهو موجد كلّ حياة وكل حياة ما هي إلا انعكاس لحياته سبحانه وتعالى واجعل ذلك بيت القصيد في بحثك وتوجهك إلى الحقيقة ثم ليكن:

القيوم جل جلاله: أساساً في حياتك وهذا يمسح من قلبك إن تسلل إليها سوء اعتقاد تلك الأمم التي تدعي نوم أو استراحة الإله، لأن القيوم جل جلاله قائم على ما أوجد وخلق أي متابع له شاهد عليه متقن له، مع استغنائه واستقلاله عمّن سواه في قيوميته فهو: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255]، وتمم اعتقادك بأن:

الله هو:

الحفيظ جل جلاله: الذي يحفظ أي شيء بشكل متواصل مع مرور الزمن من التلاشي والزوال، من أصغر شيء في المادة إلى أكبر شيء فيها، حتى أعمال العباد، وهذا يعطيك طمأنينة بأن لا شيء يمكن أن يتلاشى أو يزول حتى أي عمل تقوم به فهو سبحانه يحفظه وذلك بمدد الطاقة التي تراها في صفته:

المقيت جل جلاله: وهذه الصفة الإلهية هي التي تحفظ الطاقة ضمن الزمن لتجدها في تجليات صفته الحفيظ جل جلاله، وإيمانك بأن الله هو وحده المقيت جل جلاله يجعلك لا تخاف ممن قُوتُكَ بيده ألَّا يصلك، ويجعلك في راحة وأمان أن قوتك وما تقتات به أنت وكل الخلق بيده سبحانه.

وأخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله هو:

الحي وهوالقيوم وهو الحفيظ المقيت جل جلاله

الذي بيده كل القوى الضابطة للمادة.

إن كنتَ مؤمناً حقَّ الإيمان عليكَ أن يكون الله هو:

الجليل جل جلاله؛ في قلبك وأن يكون:

ذو الجلال والإكرام؛ دائماً في فكرك وعقلك.

ولتمام إيمانك بذلك سأبدأ معك في رسالتي هذه مستعيناً بالله بصفة الجليل جل جلاله:

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26-27].

إن وعيتَ هذه الآيات الكريمة عليك ألَّا يغادر جلال الله قلبك وذهنك، ولتصلَ إلى ذلك ليكنْ الأدب مع الله جل وعلا وتقديرك لله حق قدره هو حالك الدائم.

وإياك ورفع الكلفة معه سبحانه لأن ذلك يوقعك في عتب طرد ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91]، وتقدير الله حق قدره لا يكون إلا بالتعظيم والإجلال.

عند ذكرك لاسم الله، تجد نفسك بالخشوع والوجل والتعظيم تتبعه بقولك: جل جلاله؛ لذا ينبغي ألَّا يغادر عقلك ووجدانك عند ذكرك له سبحانه؛ وخاصة عند تناولك للقرآن الكريم؛ أن الله هو الجليل وجلاله سبحانه كامل لا حدود له وبالكليَّة إلى أعماق الأعماق، وكلّ صفاته وأفعاله يغشاها ذاك الجلال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: 78].

وإن كنت يوماً من الأيام ذاكراً مستغرقاً بمعاني ودِّهِ ورحمتِهِ سبحانه وتعيش في أنوارها وبركتها، عندها ينبغي ألَّا يغيب عنك أن الله هو الجليل جل جلاله.

واعلمْ أنه بقربه سبحانه منك وأنت تذكره يجب ألا يغيب جلاله وعظمته عن قلبك أبداً، فكن دائم الأدب معه سبحانه في كل أحوالك؛ لأنك يوم القيامة إن أكرمك الله برؤية وجهه الكريم فستجد مدى عظمة الجليل جل جلاله ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:27] وستجد هناك أن الله هو وحده المتَّصف بصفات الجلال والعظمة والكبرياء، المستحِقّ أن يُعرف بهذه الصفات.

والآن سأبدأ معك مستعيناً بالله بصفة: ذو الجلال والإكرام:

إن خرجت من محدودية نفسك وتوجهت إليه سبحانه بصدق تام وبمنتهى إنكار الذات قد تصل إن شاء الله تعالى إلى اسم الله الأعظم الذي قال عنه نبينا عليه الصلاة والسلام:

«اسْمِ الله الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى» [سنن الترمذي].

وكان من كرمه صلى الله عليه وسلم أن أشار إلى هذا الاسم في الحديث الذي رواه لنا سيدنا أنس ابن مالك قَالَ: «دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ وَرَجُلٌ قَدْ صَلَّى وَهُوَ يَدْعُو وَيَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَدْرُونَ بِمَ دَعَا اللهَ؟ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى» [سنن الترمذي].

ينبغي أن يكون حاضراً في فكرك وعقلك كلما توجهت إلى الله أنه سبحانه ليس الجليل فحسب بل هو: ذو الجلال والإكرام، وقُلْ في نفسك دائماً: ما أعظم ذا الجلال والإكرام في ترفُّعِهِ وسموِّهِ سبحانه، وبعده عن الخسيس أو المحتقر أو الصغير من الأمور، واستحضر كلَّ معاني الجلال والرفعة والسمو اللازمة بحق الذي قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 78]، وإياك أن تُجِلَّ وتُعَظِّمَ نفسك وتتوهم أنك أصبحت محطَّ الأنظار الإلهية إن كنت من الدُّعاة إلى الله، أو حتى إن كنتَ مَلِكاً من ملوك الأرض وتظن أنك في مُلكك أصبحت ذا جلال ورفعة بذاك المُلك، وأصبح الناس يقولون لك: جلالة الملك! فتذكَّر الفارق الشاسع بين مُطلق ما ملكتَ وبين مالك المُلك جل جلاله، وتذكَّر أن المخلوق إن أوتيَ مُلكاً فهو لفترة وجيزة لا تتجاوز الحياة الدنيا، في حين أنه سبحانه غنيٌّ عن ذلك المُلك؛ بل هو الخالق الذي أوجده أصلاً.

إن قُدِّرَ لكَ وكنتَ من الذين يرشدون الناس إلى طريق الله ويسعون في الدعوة إليه سبحانه، وأصبحتَ ذا مكانة عالية بينهم يُجِلُّكَ ويكرمك الناس فيها، فتذكر أن ربك هو ذو الجلال والإكرام وتذكر عظمة الألوهية التي لا تشكل فيها أنت والخليقة برمتها إلا جانباً من جوانب تجليات الذي خلقك جل جلاله؛ لأن من أخطر ما يعتري نفوس الدُّعاة إلى الله هو نسيانهم من يدْعونَ إليه سبحانه والالتفات إلى إجلال وإكرام الناس إليهم، حتى قد يصل بهم الأمر إلى تعظيم أنفسهم وظنهم أنهم أصبحوا الشغل الشاغل لله سبحانه لما يقدمونه من خير ونصح للخلق والعباد، متجاهلين أنه سبحانه أعلى وأجلّ من ذلك، وأن الخلق معدوم، وهو وحده حي قيوم: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26-27].

عند توجهكَ لله بالسؤال أو الدعاء أو أي أمر آخر، إياك أن تُجِلَّ وتعظِّمَ نفسك، بل توجه إلى الجليل جل جلاله وليكنْ قدوتك نبينا عليه الصلاة والسلام الذي كان إِذَا أتم صلاته قَالَ:

«اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» [صحيح مسلم]. وقال لرجل سمعه يقول: يا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ: «قَدْ اسْتُجِيبَ لَكَ فَسَلْ» [سنن الترمذي].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أنك

إن كنت يوماً من الأيام ذاكراً أو كنت تقدم خير ونصح للخلق والعباد ينبغي ألا يغيب عن قلبك أن الله هو الجليل جل جلاله.

وإياك أن تعظم وتجل نفسك لأنه سبحانه هو وحده ذو الجلال والإكرام وتجليات هذه الصفة الإلهية تجدها في الكون ويوم الحساب، وهذا يجب أن لا يغيب عن فكرك وعقلك وإن تيقنت بذلك عسى أن تحظى باسم الله الأعظم



إذا أردتَ طلبَ أيِّ عِلْمٍ فاطلبه من:

العليم جل جلاله، وانهل من علمه سبحانه؛ فهو خالق الوجود ومُوجِد كل موجود.

عِلْمُهُ شاملٌ ونافذٌ بكلِّ أمر أو موجود، إذ لا موجود إلا ما أوجده الله سبحانه، ولا يُوجِدُ سبحانه وتعالى بلا مبرر؛ لذا فهو أعلم بكل موجود، وعِلْمُهُ ليس مجملاً، بل نافذ شامل مطلق ودليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29].

كُنْ على يقين بشموليةِ ونفاذِ علم الله المُطلق؛ حيث لا يغيب عنه سبحانه صغيرة ولا كبيرة لا سابقة ولا لاحقة، وإن قورن أيُّ علمٍ بعلم الله سبحانه انعدم لصغره، ولا يمكن المقارنة بين علم محدود، وبين علم الله العليم جل جلاله الذي لا نهاية له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115].

إيَّاكَ والظن أنه تعالى قد يغيب عنه شيءٌ أو أمر، أو أنه ترك أموراً لخلق من خلقه كالملائكة يخبرونه بما يجري، وهو سبحانه لا علم له بها، أو أن يتسلل إلى ذهنك أنه يمكن لبعض خلقه أن يخفي عنه شيئاً، لأن العليم جل جلاله علمه هو شمولية ونفاذ بكلِّ أمر أو خلق، وهو سبحانه أعلم بما خلق ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79].

واعلم أن علم الله سبحانه ليس نظرياً بل بالواقع هو علم وخبرة لأنه:

الخبير جل جلاله: الذي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59]. الخبرة في العِلْمِ هي تخصيص العلم بما يحصل ويقع، فهو سبحانه العليم، ومن كمال علمه أنه الخبير جل جلاله، وهو على علم بكلِّ ما يقع ويحصل وبالتفصيل.

انظر فيما ورد في السنة المشرفة بما يقوم به الملائكة الكرام من رفع الأعمال إليه سبحانه، وكيف يسألهم سبحانه: على ما تركتم عبدي؟ وهو أعلم بعباده منهم لأنه الخبير جل جلاله الذي يعلم بكلِّ ما يقع ويحصل لعباده وخلقه وبما كان وما يكون بالتخصيص والتفصيل، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ ـ وَهْوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ـ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ» [صحيح البخاري].

واعلم أن علم الله لا حدود له لأنه:

الواسع جل جلاله: الذي وَسِعَ عِلْمُهُ أيّ شيء ولو متناهياً في الصغر، ولا شيء خارج عن علمه، وعنده بشكل مطلق الاستيعاب والإحاطة التامة بكل شيء ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: 80].

هو الواسع جل جلاله فلا شيء إلَّا وهو محتوىً ضمن عِلْمِهِ، ولا شيء كائناً ما كان إلا داخِلٌ في إحاطة علم الله؛ لأنه الوحيد جل وعلا الذي يستطيع أن يرى أيَّ مسألة كانت ضمن المنظار المطلق، وأن يسع علمه كل الاحتمالات وخاصة كل عواقب الأمور إلى حدها الأقصى واستمرار عواقبها في الزمن.

الله سبحانه لا يخرج عن علمه أي شيء مهما كَبُر أو صَغُر، لأنه الواسع جل جلاله الذي علمه محيط بكل شيء ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98].

إياكَ أن تقع في الخطأ البشري الشائع المتمثل بإسقاط فهمنا وتجربتنا عليه سبحانه، وأن تتعامل مع الواسع جل جلاله من خلال فكرك المحدود ضمن حدود المكان والزمان الذي أنت فيه، وتطلق الأحكام على غيرك ظناً منك أنه مثلاً لن يغفر لإنسان معين أو مجموعة بشرية لعظيم ذنوبهم.

الله جل وعلا قال عن نفسه: إنه واسع المغفرة؛ أي: إن إحاطته وعلمه بملابسات الذنب وعواقبه عبر الأزمنة إحاطة تامة شاملة، يسع أيَّ أمرٍ ويعرف ويعلم كيف ولِمَ ولمَنْ يغفر، وذلك لعلمه وإحاطته بكل أمر.

الواسع جل جلاله يغفر ذنوباً لا يستطيع أحدٌ من البشر إحاطة ملابساتها وعواقبها؛ لأنه واسع المغفرة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: 32].

وإن آتاك العليم جل جلاله من علمه فكن مؤدباً معه سبحانه كما فعل الملائكة:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32] عندها تدرك مدى عظمة برهان فيض عطاء هذا العلم الذي يؤتيه سبحانه من يشاء من عباده، والذي يهزل ويحقر أمامه ما سواه من علوم، ذلك لأن علم الله نافذ شامل مطلق.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

العليم جل جلاله: الذي علمه هو شمولية، ونفاذ علم الله تعالى بكلّ أمر أو موجود وأكمل معرفتك عن علم الله تعالى باليقين أنه:

الخبير جل جلاله: وهو العليم بالتخصيص بما يحصل ويقع وعلمه سبحانه ليس نظرياً بل بالواقع وفي أدق الأمور، واعلم أن الله سبحانه هو:

الواسع جل جلاله: وكل شيء داخل في إحاطة ومحتوى علمه مهما كان الشيء صغيراً أو كبيراً

وإن أردت طلب أيّ علم فاطلبه من العليم الخبير الواسع جل جلاله وتقدست صفاته.



إن أدركتَ أنكَ نفسٌ من الأنفس التي خلقها الله سبحانه، وأحببت أن ترتقي بها حتى يناديها سبحانه قائلاً: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: 27]؛ إذاً عليك أن تميّز بين كل ما يرد عليك من أفكار وتصورات، فإن كانت أفكاراً وتصورات من مدد الروح الإلهية ففيها خير لك في مستقبل دنياك وآخرتك، وإن كانت من حديث النَّفْسِ وكانت أفكاراً رديئة تجاه الآخرين فهي وسوسة شيطانية هدفها دمار دنياك وآخرتك.

افتح قلبكَ لله السميع جل جلاله، وقَيِّم أفكارك وما يدور في ذهنك وخاطرك من خلال قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 284]. واسأل نفسك دائماً: تُرى من هو أعظم في قلبي، ذلك الأمر الذي يجول في خاطري أم الله تعالى؟ لأن تعظيم الله سبحانه هو من أهم الأمور، فهو السميع جل جلاله المُطَّلع على نفوس عباده وعلى أي كلمة كانت سراً أو جهراً، لذا عليك الانتباه والتأدب معه سبحانه.

تَوَجَّه إلى السميع جل جلاله في سِرِّك وجهرك بالدعاء والطلب منه، ذلك لأنه: ﴿سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ [سبأ: 50]، كما فعل سيدنا زكريا ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: 3]، وتذكر قوله سبحانه للذي ينهى عبدًا إذا صلَّى ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: 14].

كذلك إن جلستَ وحدكَ وبدأت تتصور الآخرين وكأنك تراهم وهم ـ بعيدون عنك ـ وتخيلت أنك تفعل بهم كل فعل قبيح، أو تصورت أنك فعلت بهم كذا وكذا، فاعلم أن الله هو: البصير جل جلاله: الذي بصره فيه إحاطة بعلم لكلِّ التفاصيل ولأيِّ حادث وموجود، فهو الواجد والخالق سبحانه ، الذي مِن عظمته يرى كل شيء عن خلقه ولا يراه أحد من خلقه ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام: 103].

تأدّب مع الله تعالى في السرّ أكثر من العلانية، واجعل الخشية والاستحياء منه بين عينيك دائماً وأبداً، فهو ليس السميع فحسب، بل هو البصير جل جلاله الذي يراك في كل لحظة من لحظات حياتك ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: 19]. وانظر كيف أخبر نبيه أنه يراه:

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: 218]، وقال سبحانه لسيدنا موسى وهارون مطمئناً لهما: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46].

البصر عنده جل جلاله ليس رؤية عادية فحسب بل وعياً وإدراكاً لكلِّ ما هو مرئي وبحدّه الأقصى مع الهيمنة المطلقة، ونفاذ بصره وبصيرته وخبرته ومعرفته وإدراكه سبحانه إلى دقائق

الدقائق، وهذا النفاذ مستمر لا ينقطع، ثابت متأصّل ومحقق إلى أقصى حدٍّ.

كن على ثقةٍ أن لا شيءَ يغيب عن السميع البصير جل جلاله؛ لأنه مهيمن وعالم بكلِّ ما يجري لأيٍّ من خلقه، ولا يغيب عنه شيء إن أبصر به الخلق أم لم يبصروه ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38- 39].

تَذَكَّر أنه سيأتي اليوم الذي يتغير فيه البصر عندك من الرؤية العادية باتجاه وعي وإدراك ما هو مرئي، وترى حقيقة يوم البعث والحساب عندما يكشف الغطاء عن بصرك، كما قال سبحانه عن الذي ينتقل إلى الآخرة: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: 22].

عِلْمُكَ أن الله هو السميع والبصير جل جلاله، هو الدواء لإيقاف حديث النفس ولطرد كافة الأفكار الرديئة وكل أنواع الوساوس بإذن الله. ومفتاح خلاصك من هذه الأفكار تجده في قول النبي صلى الله عليه وسلم لصحابيٍّ عقبة بن عامر:

«أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ سُورَتَيْنِ قُرِئَتَا؟» فعلَّمني قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. [سنن النسائي]، إقراءهما بافتقار للذي خلق الإنسان وقال عنه سبحانه:

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ [ق: 16]، واعمل جاهداً في طلب محبة الله لك، وتَقَرَّبْ منه سبحانه بالفرائض والنوافل، فقد جاء في الحديث القدسي أن نبينا عليه الصلاة والسلام قال:

«...مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ...» [صحيح البخاري].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

يقينك بأن الله هو السميع والبصير جل جلاله

يجعل نفسك مطمئنة لا تعتريها الوساوس أو الأفكار الرديئة أبداً

وهذا خير دواء لإيقاف حديث النفس



إياك أن تَغْتَرَّ بهذه الحياة الدنيا ويصل بك الأمر فتنسى أن الله هو الملك ومالك الملك جل جلاله وتغيب عنك حقيقة الآخرة وتكون من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ...﴾ [النحل: 107]، لأنك إن نظرت إلى هذه الآية الكريمة من منظار الحقيقة تجد أن الذين ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ...﴾ قد تجاهلوا حقيقة هويّتهم وماهيتهم، وأنهم لا يملكون شيء لأن الملكية المطلقة هي: لله وهذه الحياة الدنيا من منظار الحقيقة وضمن نسبيّة الزمن هي لحظة عابرة، كما ذكرها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 52]، ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: 112 – 113].

عندما تصبح عقيدتكَ أنك لستَ مالكاً لأيِّ شيء؛ بل مستخلف عليه، ويكون ذلك يقيناً وليس مجرد عبارة ترددها، عندها يحدث لديك تغيير عميق وقناعة أنك تملك ملكاً عابراً وأن الملك هو لله وحده، ولن تعود هنالك صراعات في نفسك أو مع غيرك سببها حب التملك أو الإحساس بالحاجة للملكية الموجودة في أعماق الإنسان.

عندها تتيقن أنك مستخلف على ما تملك وتتحرر نفسك من عادة مستأصلة في النفوس البشرية، هي الخوف من الإنفاق: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: 100] عندها تعيش نفسك في سلام لأن الإحساس بالملكية أصبح عندك متوازناً، وستجد بأن الحل الأمثل لأكبر مشاكل البشرية في أمور الملكية والتملك هو الاعتقاد بأن الله هو: الملك جل جلاله: ولا أحد يملك سواه.

وتذكَّر عندما تضع يدك على أي شيء أن الله هو الملك الذي يملك ما بين يديك، وقل في نفسك دائماً: أنا لستُ مالكاً لأيِّ شيء بل مستخلف عليه ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7].

إن ظننتَ أنكَ تَمْلِكُ شيئاً أو أحسستَ في أعماق نفسكَ بشعور الملكية فأنت في غفلة، عليك التحرر منها، لأنك سترى يوم القيامة وتسمع سؤاله سبحانه ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: 16]، وستجد يومها بأن الله هو الملك جل جلاله، ولا أحد من الخلق كله كان يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، وأن الملكية المطلقة الكاملة الدائمة والشاملة الحقيقية هي: لله المَلِك جل جلاله، وأن ملكه سبحانه لا يستطيع أحد أن ينازعه فيه ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: 114]، وإن أحببت

أن تكون نفسك طليقة صافية جاهزة للسمو الروحي، وأردت أن لا تتعلق بأثقال المادة ولا يؤسَر تفكيرك في الطموح إليها، وأن تنجو نفسك من الحسد لما هو عند الآخرين، فاعلم أن الله هو وحده: الملك جل جلاله، وأنك إن مَلَكْتَ شيئاً في الحياة الدنيا فهو ملك عابر وأنت مستخلف عليه، ولو أنك كنت تملك حقاً إذاً لوجب أن يدفن ويبعث معك ما ملكت ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: 13].

المَلِكُ الحقُّ الأوحدُ هو الله، والمُلكيَّة الإلهية هي مطلقة لا يشارك الله فيها أحد أبداً، وهو سبحانه ليس يملك كل شيء فحسب بل هو أيضاً:

مالك الملك جل جلاله: أي أنه قائم بأمر المُلْكِ وحده ولم يترك حق التصرّف ولو بجانب من مُلْكِهِ لأحدٍ من خلقه، أو يتركه لغيره، ولا مُلْكَ إلا مُلْكُه يتصرف به كله كيف يشاء، وهو الذي يملك ولا أحد غيره يملك سبحانه.

اجعل أساس حياتك يقينك بأن الله هو الملك وهو بذات الوقت مالك المُلْكِ جل جلاله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: 26] وهذا اليقين هو الدواء لذلك الإحساس المتأصّل بالملكية في نفسك، والذي لا يمكن تجاهله لأنك إن أهملته يؤدي بك إلى عقلية ونفسية مادية صِرفة توصلك إلى أن تُقيَّم الآخرين بناءً على ما يملكون، والأخطر أن تُقيِّم نفسك بما تَملك، لذا فإن علمك بأن الله هو مالكُ المُلك جل جلاله يخلّص نفسك من كل ذلك، ويعلمك أن العزّ الحقيقي بيد الله، وكذلك الذل، فلا ذل إلا لله ولا عزّ حقيقياً إلا من الله و بالله.

أمَّا إن استخلفك مالك الملك جل جلاله على شيء فإياك أن تتكبّر، لأن الذي أعطاك هو من يؤتي مُلْكَهُ لمن يشاء سبحانه، إله واسع عليم أخبرنا كيف فعل بقارون وهو رجل من قوم موسى نسب عطاء مالك الملك إلى نفسه وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78] فعاقبه جل جلاله بقوله: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: 81].

الله هو الملك وهو مَالك المُلك جل جلاله، ولا مُلْكَ إلا مُلْكُه سبحانه يتصرف به كله كيف يشاء، وهو الذي يملك، ولا أحد غيره يملك لأنه أصلاً خالق وموجد كل شيء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾[الأنعام: 73].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكلِّ خير أنك:

إن كنت على يقين بأن الله هو:

الملك جل جلاله: وله الملكية المطلقة الكاملة الدائمة والشاملة الحقيقية وملكه سبحانه لا يستطيع أحد أن ينازعه فيه وأن الله هو:

مالك الملك جل جلاله: لم يترك حق التصرّف ولو بجانب من مُلْكِهِ لأحدٍ من خلقه، أو يتركه لغيره وهو قائم بأمر المُلْكِ وحده.

عندها تكون نفسك طليقة صافية لأن الإحساس بالملكية أصبح عندك متوازناً



من حُسْنِ إيمانك بالله تعالى أن لا تكون مثل أولئك الذين يَدَّعُونَ تمسكهم بالعلم الحديث والثقافة المعاصرة، وتراهم يرون الإرادة الإلهية محصورة في حياتهم ضمن عباداتهم ودعواتهم وهمومهم وحاجاتهم اليومية، أو في المحرمات المنصوص عنها في الشريعة، ولكنهم عندما ينتقلون إلى دائرة المجتمع وكل ما يحدث فيه تجد إحساسهم بهيمنة الله يضعف، ثم يتلاشى عندما ينتقل إلى دائرة ما يحدث في السياسة العالمية، وأخيراً تجد في قرارة أنفسهم قناعة بأن ما يحدث على الصعيد العالمي هو نتيجة قوى وتحالفات ومصالح، وخاصة كيف تنتقل السلطة والحكم من شخص إلى آخر، كل ذلك يأخذ مجراه عندهم بغياب الإرادة الإلهية، والسبب في ذلك: ظنهم الطفولي بأن الله يجب أن يكون منحازاً لأهل الإيمان مهما فعلوا، وأنه يستحيل أن تجري الإرادة الإلهية فيما لا يتوافق مع ظاهر مصالح المؤمنين الآنية؛ لذلك يستحيل في عقولهم تدخل إرادته سبحانه فيما يرون من أحداث عالمية.

والواقع أن هذا التصور الخاطئ ليس سوى جزءٍ من تجاهل حقيقة الهيمنة الإلهية المتجلية بأن الله سبحانه هو:

الوالي جل جلاله: وهو الذي يولي من يشاء الحكم في أي مكان.

تفكر في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26] ألا ترى فيه أن الله سبحانه هو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممَّن يشاء؟!

كُنْ على يقين أن الله هو الوالي جل جلاله الذي يولي فلان من الناس الحكم في بلد من البلاد، وما من أحد غيره قادر أن يفعل ذلك، لأنه يستحيل أن يجري أمر من تلقاء نفسه أو خارج إرادة الله جل وعلا والأمر كله بيده سبحانه، فهو المهيمن ولا توجد أيّ قوة غير قوته.

وإن سألتَ كيف يسمح سبحانه لأولي الأمر بالظلم وقهر العباد ويتركهم على ظلمهم؟ فالجواب هو ما قاله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: 11].

انظر كيف كان يتوجه صلى الله عليه وسلم بدعائه قائلاً: «ولا تُسَلِّط عَلَيْنا مَنْ لَا يَرْحَمُنا» [سنن الترمذي].

وإن أدركت أن الوالي جل جلاله هو الذي يولي من يشاء من عباده الحكم والأمر بيده سبحانه فعليك الآن التميز بين صفته تعالى الوالي جل جلاله وصفته تعالى الولي.

الولي جل جلاله: هو من يجب أن تجعل ولاءك له ليكون الله نصيرك، وليس لك من ولي إلا الله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 107]، وإياك أن تجعل ولاءَك لغيره؛ لأن من يفعلون ذلك لن يجدوا لهم نصيراً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: 31].

لا تظن أبداً أن الناس ينصرونك، الله هو الناصر لك. انظر كيف يضع الناس تنازلات من أجل الولاء، وكم يتنازل الناس عن قيم ومبادئ من أجل نيل ولاء إنسان مثلهم، وقد يصل الأمر بهم أن يستعين أحدهم بالشيطان ويتخذه ولياً!.

الله هو الولي جل جلاله وهو الأولى والأجدر والأحق أن تتخذه ولياً؛ لأنه السبيل الذي لا تخيب عنده الآمال ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 9]، ولن تخيب أبداً إن علَّقت أملك وقلبك بالله واتخذته ولياً لك، لأن من ترك ولاءه لله سبحانه في الدنيا فكيف يتولاه في الآخرة.

اسألْ نفسكَ دائماً بصدق: مَن أولى باتخاذه ولياً، عبدٌ فقيرٌ ناقصٌ مفتقرٌ محتاجٌ إلى غيره، عابر زائل، أم ربٌّ غني عمّن سواه كريم قوي متين لا يحتاج إلى مؤازرة!

ما خاب من علَّق أمله وقلبه بالله متخذاً إيَّاه وليّاً، وخاصة أن كلَّ ولي فانٍ ويبقى ذو الجلال والإكرام، إذ لا فائدة من أولياء الدنيا يوم الحساب، فقد شبه الله سبحانه أولياء الدنيا بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41].

طالما أنك ذو عقل فإيَّاك أن تنتظر حتى يقضى الأمر ويأتي اليوم الذي لا تغني فيه نفس عن نفسٍ شيئاً، واسعَ في الحال أن يكون الولي لك هو الله جل جلاله، وإن كنت تحب أن يَمُنَّ الولي جل جلاله عليك لتكون ممن قال عنهم:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62] فكن على هدي نبينا صلى الله عليه وسلم، فقد كان يسأل الله سبحانه في صلاة الفجر وفي الوتر الأخير من الليل قائلاً: «..وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ...» [سنن الترمذي].

وإن أحببت أن تمم ولاءَك إلى الولي جل جلاله وأردت محبة الله لك فاجعل تبعيتك لله فهو:

الوكيل جل جلاله: على كل شيء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: 12]. وكن من المتوكلين عليه فهو سبحانه الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

وإن عزمت على أي أمر فتوكل على الله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]، وإن أردت أن تكون حرّاً بالمعنى الحقيقي، وأن لا تكون لك أيّ تبعية لأحدٍ من الخلق، كن من المتوكلين على الله سبحانه، وإياك أن تُوَكِّل بأيِّ أمرٍ من أمورك أحداً غيره، فتقع في ذلِّ هوان التبعية للآخرين والامتنان لهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 3].

الله هو الوكيل جل جلاله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، إن وكلته أعطاك من عطائه بغير حساب؛ لأنه القادر والقائم على كلّ شيء، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62].

هيمنة الله سبحانه وقدرته شاملة مطلقة، ولا يستطيع أحدٌ أن يقوم بأيِّ عملٍ، أو أن يتدخل بأيّ شيء إن لم يسخّره تعالى لهذا الشيء؛ لذا من العبث أن توكِّل أمركَ لأحدٍ من خلقه تعالى إن كان إنساً أو جنّاً أو حتّى ملكاً، وأنت تعتقد كل الاعتقاد أن الذي وكلته قادر على تحصيل ذاك الأمر، لأن هذا هو حال أهل الغفلة ممن يضعون آمالهم وثقتهم بالخلق ناسين أن الله هو الوكيل جل جلاله.

اعلم أنه من كرم الله سبحانه أمره لك بأن توكّله ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: 9]، وحتى تصل إلى هذا التوكل الذي أمرك به، عليك بالأخذ بالأسباب كاملة مع علمك التام أن التوفيق والنجاح والنتائج كلها بيد الله ومنه وليس بجهدك وعملك.

إياك أن تجعل التوكل على الله سبباً ومبرراً لك في ترك العمل والتملص من المسؤولية، والكسل، وعدم الأخذ بالأسباب، وعدم بذل الجهد المناسب لكلِّ عمل، وليكن توكلك على الوكيل جل جلاله؛ دليله قول نبينا عليه الصلاة والسلام في دعائه:

«اللَّهُمَّ هَذَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْكَ الْإِجَابَةُ وَهَذَا الْجُهْدُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ» [سنن الترمذي].

وإن كنتَ تسعى في طلب الرزق فتوكل على الله حق التوكل، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام:

«لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» [سنن الترمذي].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

من حُسْنِ إيمانك بالله تعالى علمك أنه هو:

الوالي جل جلاله: الذي يولّي من يشاء الحكم في أي بلد من البلاد، وأن:

الولي جل جلاله: هو الأولى والأجدر والأحق أن تتخذه ولياً لك وأن

الوكيل جل جلاله: هو من تُوَكِّله بأيِّ أمرٍ من أمورك والتوكّل الحق عليكَ تعلّمه من قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].



هناك لله تعالى صفات عليكَ التمييز بينها، فقد تتلبس عليك فتظن أنها مترادفة متماثلة، وهي في الحقيقة كل منها يبين لك جانباً من عظمة الله تعالى، وهذا التميز لا غنى لك عنه لأنه يتمم إيمانك به سبحانه، أولها: المجيد جل جلاله، وثانيها: الحميد جل جلاله، وثالثها: الماجد جل جلاله، وهنا أبين لك جانباً منها لتكون واضحة في قلبك وعقلك مع اليقين أن صفات الله تعالى لا حدود لها لأنها تعرفك على الذي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[الشورى: 11]. وعلى الذي﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: 103] جل جلاله وتقدست صفاته.

أولاً: صفته تعالى المجيد جل جلاله؛ وهي صفة تدل على أن الله سبحانه هو الحريُّ بالتمجيد، والمجد الحق له وحده، ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: 15].

وهو سبحانه أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، الوحيد الحَرِيُّ بالتمجيد وبأن تُعظّم أفعاله ومآثره وتبجّل صفاته، لأنها صفات متأصلة، ومجده سبحانه فيه عظمة الأفعال والصفات؛ أي: إنه مجد كلّي لا سطحي، مجد أبدي.

المجيد جل جلاله حقاً هو الله، فما أمجاد أيٍّ من الخلق مهما عظمت بالنسبة والتناسب لمجد الله؟ وهي كنسبة العدم للكل؛ حيث أن سواه سبحانه بالتناسب معدوم!.

إياك أن تسترسل بمناجاة خالقك، كما قد يصدر من شططٍ أو جنوحٍ عند بعض الناس، فتعتبر المجيد جل جلاله كأنه صاحب أو خليل، تَرْفَعُ الكلفةَ معه لأنه سبحانه ودود.

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: 14-15] هيبة وعظمة ومجد ذلك الودود يعلّمك أن التودد إليه يكون بتمجيده سبحانه؛ وهذا التمجيد أساسي لا بدّ منه، تكرره كلّ يوم في الصلوات الإبراهيمية بقولك: «... في العالمين إنك حميد مجيد».

ثانياً: صفته تعالى الماجد جل جلاله؛ وهي أن المجد بيد الله والماجد جل جلاله هو الذي بيده كلّ المجد يُفيضُ به على من يشاء من عباده، يمنحه ويمنعه كيف يشاء.

وإن كنت عالماً بذلك فلا تتحرك نفسك حسداً لرؤية أمجاد الآخرين، بل تجد في ذلك تجلياً لإرادة الماجد جل جلاله وتثق به. فكما يشاء لأحدٍ من خلقه مجداً كذلك يجرّده منه، أو قد يكون منحه المجد لأحد عباده استدراجاً أو عطاءً أو امتحاناً، فهو سبحانه الحكيم والعليم الخبير بعباده وبسرائرهم.

إياك أن تتبع طرقاً ملتوية أو تتنازل عن مبادئك وقيمك طلباً لتحصيل أمجاد الدنيا؛ لأنك في الحقيقة تبحث عن مكانة تجعل منك إنساناً ذا أهمية بين الناس، وعندها تكون فقيراً في نفسك محتاجاً لغيرك.

انظر إلى أين تؤدي طموحات المجد في انحرافات النفس البشرية، فالبحث عن المجد قد يكون سبب هلاك أمم وشعوب وليس هلاك أفراد فقط، فكم من أشخاص كرَّسوا حياتهم لتحقيق الأمجاد، ثم ماتوا كما يموت أيّ إنسان، ودفنوا ولم يبقَ لهم أي ذكر، لأنه بالموت تزول أمجاد الدنيا، ولم تنفعهم التماثيل المقامة على شرفهم، والشوارع التي تحمل أسماءهم أو كونهم دفنوا في مقابر العظماء. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

وإن أنعم الله عليك بالمجد فعليك بالتواضع للآخرين، وإياك أن يصيبك الغرور، وكن على يقينٍ أن كل المجد بيد الماجد جل جلاله يمنحه ويمنعه كيف يشاء، وعندما تجتمع نفسك مع أنفس غير آبهة بمحدودية طموحات أهل الدنيا، متوجهة بعملها وسعيها نحو سموٍ روحيٍّ إلى الله الكريم، كلها يقين أن الله وحده يعطي ويمنع، وهو الذي يرفع من يشاء من عباده، عندها تنتهي هذه الأنفس من عقدة السعي والعمل لأمجاد الدنيا وتحصيلها، وتتجه للمصلحة الجماعية وللحياة الأبدية. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[فاطر: 5].

ثالثاً: صفته تعالى الحميد جل جلاله؛ فهو سبحانه الحريُّ حقاً أن يُحمد أولاً؛ إذ إنه هو صاحب الفضائل كلها، وهو الذي يَمنُّ ولا يُمنُّ عليه.

ومهما حصل لك من إحسان أو عطاء من أي امْرُؤٌ كان، فكن في قرارة نفسك حامداً لله وأحسن الأدب والتصرف معه سبحانه، وتيقن أن ما جاء به أيُّ امرئٍ من عطاء لك ما هو إلا عطاء الله وإحسانه أصلاً؛ لذا ينبغي عليك بالحقيقة حمده وذكر فضائله والتوجه إليه بالحمد، وهو غني عنه جل جلاله، لأن أفضاله حقيقية ذكرها العباد أم لم يذكروها ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[البقرة: 267].

وإن جعلك الله في موقع العطاء للآخرين فتيقن بأن الحميد جل جلاله له الحمد وليس لك، وانفِ عن نفسك الفضلَ وانسبه إلى الله، وإياكَ أن تَكْبُرَ نفسكَ بالمنِّ على غيرك وتقبل الامتنان والحمد منهم، إذ لا ينبغي أن يكون ذلك إلا لله.

ما أجمل أن يكون حال المعطين والآخذين حال الاعتراف بالفضل لله الحميد جل جلاله، لأنهم بذلك تصفو نفوسهم ويصبحون سواسية في فقرهم إلى الله، إذ الآخذ لا يأخذ في الحقيقة إلا من الله، والمعطي في الحقيقة ليس سوى الله، والكلّ مفتقر إليه كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، وإن كان حال المعطين وحال الآخذين كذلك، فما أصفى نفوسهم، وأيّ كرامة هم فيها.

ما أعظم ذنب زعماء الأرض من كافة الأصناف، أمثال فرعون ومَن كان على شاكلته، الذين لا يعملون شيئاً ولا يقدّمون أي خير للآخرين، وبذات الوقت يسعون لنيل الامتنان وحمد الناس لهم، حتى تصير أُمة بكاملها تشيد بفضل ومآثر ومناقب أولئك الزعماء الذي ليس لهم من الزعامة إلا زعمهم لأنفسهم ما ليس منها. ما أخطر حالهم الذي عبَّر عنها سبحانه بقوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 188].

توجه إلى الله الحميد جل جلاله بالفضل والحمد والامتنان، لأنه منَّ على البشرية بنبي كريم جعل فيه خير الشمائل فكان ﴿أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6] و﴿مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: 2] عليه أفضل الصلاة والتسليم.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

لله تعالى صفات ثلاث عليك التميز بينها لتكون واضحة في قلبك وعقلك:

أولها المجيد جل جلاله: هو الوحيد الحريّ بالتمجيد وبأن تُعظّم أفعاله ومآثره.

وثانيها الماجد جل جلاله: هو وحده الذي يمنح المجد لمن يشاء من عباده.

وثالثها الحميد جل جلاله: هو وحده الحريّ بالحمد، وهو الغني عنه، وأفضاله حقيقية إن ذكرها العباد أو لم يذكروها.



مهما كان عندك من مَلَكاتٍ ذهنية ومادية، ومهما كنت في مكانٍ رفيع، إن لم يكن الله سبحانه مهيمناً وحاضراً في قلبك، وهو الدليل والمرجع في كل عمل تعمله، فأنت من الغافلين، وتعظيم أي شيء أو أي أمر، غير الله، هو غفلة عنه سبحانه.

والحل الأمثل كي لا تكون من الغافلين: أن تستفيد من كل طاقاتك التي أعطاك الله إياها، وأن تنظر إلى سُلَّم الأولويات وأيّها الأهم في حياتك، وأي شيءٍ يجب أن تبدأ به يومك؟ ونفسك عندما تكون جاهزة مع الله دائماً وتقول: لبيك اللهم؛ فإنك ترى بقية الأمور جانبية ولا يبقى مشكلة في حياتك أبداً، وعندها إن شاء وتكرم سبحانه يساعدك ولا تبقى عبداً إلا لله وحده، ولتكون نفسك على أحسن حال يجب ألَّا يغيب ذكر الله سبحانه عنك منذ لحظة الاستيقاظ وحتى ساعة النوم.

عالج نفسك واجمع شتاتها حتى تصل إلى تطابق بين اعتقادك ونفسك، وإياك والإكراه فإنه يزيد نفسك بعثرة وتمزقاً. وعليك أن تبحث عن قناعة داخلية، جداً عميقة، وأن تقود نفسك بحكمة وروية حتى تصل بها إلى النور الإلهي الذي يمدها بطاقة خلَّاقة، لا تلبث إلا وتجد أن كل أجزائها قد جمعها نوره سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: 35]، وعليك ألا تهمل شيئاً في نفسك ذلك لأن نوره سبحانه إن غاب عنها ترهلت وتخلخلت؛ فالحياة بدون نوره سبحانه هي كغرفة مظلمة وأنت تبحث عن مفتاح ضوء يضيئها، وكيف تصل إليه إن لم يكن لديك نور تهتدي به ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40]؛ فهو سبحانه النور الذي يدلُّكَ على الطريق القويم، ضمن لا نهاية من طرق تقف على مفارقها كل يوم، وليكن قدوتك نبينا عليه الصلاة والسلام فقد كان يسأل ويتوجه إلى الله جل جلاله قائلاً:

«اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي نُوراً، وَأَعْطِنِي نُوراً، وَاجْعَلْ لِي نُوراً» [سنن الترمذي: 3341].

واحْذَرْ من الخلط بين الضوء والنور، لأن لفظ ضوء يعبِّر عن مفهوم ينتمي لعالم المادة، مثل ضوء النهار، وهذا الضوء يمكن لك أن تحصِّلهُ بنفسك، في حين أن لفظ نور ينتمي إلى عالم الحقيقة، وهو عطاء وهداية من الله سبحانه يهديها لمن يشاء من عباده:

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: 35] فهو النور جل جلاله ولا نور بالمطلق إلا منه وأيّ نور فهو حصراً منه سبحانه، ومثاله الكتاب الذي أنزله على نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1].

الله هو النور جل جلاله: ونوره سبحانه كمفهوم هو الذي يُظهِرُ حقيقة الأمور ويعطيهَا معنى حكمة وجودها وغايتها، وهو أساس العلم الحق النقي من كلّ شائبة، الذي لا تغيب فيه معرفة حقيقة الأسباب والغايات ضمن وضوح رؤية الإطار الكلّي للمقاصد في البدايات والنهايات، ونوره سبحانه هو حصراً السبيل إلى العلم الحق والهداية الذي يهدي به من يشاء من عباده ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: 35] .

واحذر وأنت تقود نفسك بحكمة ورَويَّة حتى تصل بها إلى النور الإلهي الذي يمدها بطاقة خلَّاقة، أن تقع في حبائل ضلال أولئك الذين يطلبون النور من غير الله، فهناك من سمُّوا الخمر نوراً وعبدوه في طقوس تتصف بالفحش، وأمثالها من الضلالات كثيرة لمن يطلبون النور من غير الله ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40]. نوره جل جلاله هو السبيل الذي لا بدّ منه للسمُّوِّ وللعلم الحقيقي وللهداية، فلا هداية بلا نور ولا سعادة بلا هداية؛ إذ ما فائدة السعادة الوهمية المؤقتة عندما تزول ولا يبقى محلها إلا الندامة والتعاسة الأبدية، ولا يتم بلوغ ذلك إلا بذكر الله والصلاة والوضوء وطاعة الله، والتوجه بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً، وَفِي بَصَرِي نُوراً، وَفِي سَمْعِي نُوراً، وَعَنْ يَمِينِي نُوراً، وَعَنْ يَسَارِي نُوراً، وَفَوْقِي نُوراً، وَتَحْتِي نُوراً، وَأَمَامِي نُوراً، وَخَلْفِي نُوراً، وَاجْعَلْ لِي نُوراً» [صحيح البخاري].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله هو النور جل جلاله ونوره سبحانه هو الذي يُظهِرُ حقيقة الأمور

وهو الأساس والسبيل إلى العلم الحق

وهو حصراً طريق الهداية الإلهية ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: 35].



يستحيل أن يكون إيمانك حقاً مع تجاهلك أو إنكارك لأي صفة من صفاته سبحانه، من حيث تدري ومن حيث لا تدري؛ لذا لا بد لك ليكتمل إيمانك من أن تشهد حقاً، في خواطرك ووجدانك وعملك، بأن الله هو الرحمن، وأنه الرحيم، وأنه الملك، وأنه القدوس، وكما أنه المُعِزُّ فهو المُذِلُّ ﴿...وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ...﴾ [آل عمران: 26]، وبقدر ما هو رحيم هو قهار... إلى آخر صفاته، وإن كنت ناسياً أو متجاهلاً أو مهملاً أو منكراً لأيِّ صفة من صفات الله، فسوف تحاسب عليها لأنها نقص أو فجوة أو عيب في إيمانك.

عليك السعي ليكون الله سبحانه مركز حياتك، وأن يكون جل جلاله يغنيك عما سواه، وعندك يقين مطلق بأن كل شيء منه وبيده عز وجل ولا يكون ذلك لك، إن لم تكن متمثلاً لصفاته وهي أسمائه التي قال عنها نبينا عليه الصلاة والسلام: «إنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعينَ اسْماً، مئةً إلَّا وَاحِداً، مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الجَنَّة» [البخاري].

كي تفهم حكمة الخالق جل جلاله فيما خلق والذي بيده ناصيتك، عليك أن تكون مؤمناً متيقناً من كل أسمائه وصفاته سبحانه، وعليك استثمار فرصة الحياة الدنيا بحدها الأقصى للتعرف عليها، قبل فوات الأوان لأنك في النهاية، حتماً ويقيناً، مُلاقٍ ربك سبحانه، وستقف بين يديه في حساب دقيق، عندها يتبين لك أن أي إساءة في موقف أو عمل حدث معك في الحياة الدنيا، ما هو في الحقيقة، إلا بسبب جهلك أو غفلتك أو وهن صلتك بحقيقة معرفة صفات الله، وعندها تنكشف لك عيوب إيمانك، مثلاً إن كنت الآن تخوض في أي أمر من امور حياتك الدنيا، وتبني مواقفك وعملك، وأنت ناسٍ ومتجاهلٌ لأي صفة من صفاته جل جلاله، فأنت تسيء الظن بالله، وستجد يوم القيامة أنك كنت من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: 74].

والآن أُسدي لك نصحاً ينفعك في دنياك وآخرتك، فقد غفل الناس عن صفات الله وهي في غاية الأهمية، علماً أن يقينك بها يجعلك في سعادة ويضفي على نفسك راحة وإيماناً في رحلة الحياة على هذه الأرض ومن هذه الصفات التي عليك التيقن منها:

أن الله هو الضار وهو النافع جل جلاله؛ إذ هناك من يعتبر نفسه مؤمناً تجده يعظم الحسد ويخشاه ويخشى الضر المترتب عنه، ويغيب وعيه عن الله وهيمنته سبحانه وكأن قوة الحاسد

مستقلة عن الإرادة الإلهية. كذلك الخوف من الضرر المترتب عن السحر، وكيف تجد من يعتبر نفسه مؤمناً يقف خائفاً منه، ويضع التنازلات لبشر أمثاله ظانّاً أن بأيديهم رفع الضرِّ عنه، وينسى أنه سبحانه قال عن السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 102].

لتعيش نفسك في راحة وإيمان وتكون مؤمناً حقاً عليك اليقين أن الله هو الضار وهو النافع جل جلاله، ولتصل إلى هذا اليقين اجعل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام هي المَثَل الأعلى لك في أي ضُرٍّ أصابك، وتذكر كيف اجتمع عليه قومه بكل ما أوتوا من قوة ليعاقبوه حرقاً، فلم يتزعزع إيمانه بالله جل وعلا خالق النار الذي قال لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69].

إن مَسَّكَ ضرٌّ فإيّاك أن تلجأ إلى تعويذةٍ أو قديسٍ أو قبر وليٍّ أو مُشعوذٍ فإن ذلك لا ينفعك ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس: 18]؛ بل عليك بالإيمان المطلق بهيمنة الله الضار جل جلاله وأنه سبحانه هو وراء كل ما يجري من أسباب الضر أو غيره؛ لذا ضع أملك حصراً عند:

الضار جل جلاله؛ فهو بيده وقوع أو رفع أي ضر كان، لأنه هو سبحانه المقدِّر للضّر لمن أراد وكيف أراد، وذلك بمقتضى حكمته؛ بل وأي حدث كان هو مطابق للإرادة والحكمة الإلهية، وما أسعدك إن كنت كذلك لأنك لن تخاف من أي ضُرٍّ كان: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107].

في رحلة الحياة على هذه الأرض لتكون نفسك في راحة وسعادة، وتكون مؤمناً حقاً فكن على يقين أن الله هو الضار وهو:

النافع جل جلاله؛ وأيّ نفع لا وجود له بحدِّ ذاته مستقلًّا وإنما هو مظهر من مظاهر الإرادة الإلهية، ولا يصل إليك أي نفع كان إن لم يأذن به الله تعالى، فهو وحده النافع جل جلاله: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [المائدة: 76]، ومن حكمته سبحانه أن جعل النفع هو دافع ومحرك أساسي لتبقى الحياة مستمرة، لذا وأنت تجري وراء النفع ـ ولا إشكال في ذلك ـ إياك أن يكون النفع حصراً في إطار الحياة الدنيا لأنه يصبح ضراً شاملاً لك، ويلهيك عن الأهم ـ عن الآخرة ـ فالحياة الآخرة هي

الحياة الحقيقية، وما حياتك أنت والمكلفين من إنس أو جن على هذه الأرض إلا حياة مؤقتة وقصيرة قال عنها سبحانه: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[الأنعام: 32].

احذر من أن يعميك الجري وراء نفع دنيوي ليصبح هدفاً بحدّ ذاته خاصة، المنافع المالية، التي نبهك الله سبحانه عنها بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفجر: 20]، حتى تصبح بيت قلبك ومحطَّ رجائك، معتقداً بمنفعتها عند الشدائد، فكم من صاحب مال كان المال الذي جرى وراءه بالنتيجة قد حمل له أشد الضرر عندما نسي أن الله هو النافع جل جلاله، وأصبح هذا المال فيه التعاسة له في الدنيا قبل الآخرة.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله هو وحده الضار وهو النافع جل جلاله وهو سبحانه الذي يضع حدّاً لكلّ أنواع الضر والنفع، وبيده وقوع أو رفع أي ضر أو نفع كان

في رحلة الحياة على هذه الأرض إن أحببت أن تعيش نفسك في راحة وإيمان وتكون مؤمناً حقاً فكن على يقين أن الله هو الضار وهو النافع جل جلاله.



تفكيرك الصحيح بصفات الله تعالى هو من ضرورات الإيمان؛ إذ هل يمكن لك أن تؤمن بأن الله منتقم ولا تؤمن أنه عفو جل جلاله، هذا مستحيل، عقيدتك وإيمانك بجميع صفات الله تعالى يجب أن تكون بالمستوى ذاته، ولا تفاضل بينها؛ لأن الله جل جلاله هو الكمال المطلق، ولا يمكن لشيء أن يحدث إلا بعلمه وحكمته جل وعلا، وهناك فارق جذري ونوعي بين الله وبين أيٍّ من خلقه، هذا الفارق يكمن في انتماء أي مخلوق إلى عالم الزمان والمكان، أما هو سبحانه، فإنه قدوس منزه عن عالم الخليقة برمته ومهيمن عليه، بناءً على ذلك، فلا بد لك من صفاته تعالى التي جاءت في القرآن الكريم والسنة المشرفة، والانتباه جيداً إلى عنصر الزمن فهو سبحانه وتعالى لا يتابع الأحداث، بل الأحداث تتبع إرادته وسابق علمه.

كل حدث تراه أمامك إن كان عطاء أو مصاباً فهو ﴿فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: 22]، يجب ألا تغيب عن عقلك ووجدانك صفات الله جل جلاله، وهذه الصفات تجدها في كتاب كريم تقرؤه متى شئت ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: 2]، وكم هي نعمة أنعم الله بها عليك من خلال هذا الكتاب بتوجهك إلى:

الله الواحد جل جلاله: ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: 163]، فلا تَضِيعُ ولا تحارُ في تَوَجُّهِكَ وتَوسُّلكَ إلى آلهة مزعومة متعددة، لكلٍّ منها اختصاص ولكلٍّ منها أذواق وميول ورغبات وطلبات، كما هو حال الديانات أخرى.

وكم هي نعمة أكثر تجدها في هذا الكتاب أنك تنشأ على التوجه لإله واحد تجتمع فيه جميع صفات الألوهية، فلا تضيع في شتات الجهات والتوجهات لأنك تجد فيه أن:

الله واحد جل جلاله: أي غير مركَّب، وغير مكوَّن، وغير مؤلَّف، غير مكون من ثلاثة؛ بل هو واحد، لا يؤثر فيه شيءٌ ولا أحدٌ، ولا يتبدَّل، وبضرورة مخالفة صفة الألوهية ما سواه: مكوّن، مركّب، متغيّر، متبدّل... ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ [النساء: 171].

إيمانك بأن:

الله هو الواحد جل جلاله يجعلك ترى الانسجام المطلق في تجليات إرادته في الخلق والقوانين والنواميس الإلهية، وترى وحدانيته سبحانه تتجلى في آياته وكلماته ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ

مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 3]، وبهذه الآيات ينجلي لك مظهر كلّ ما أوجده الله، فتجده خاضعاً لقوانين ونواميس منسجمة مكونة مع بعضها قانوناً واحداً يوصلك إلى حقيقة أن الله واحد مطلق ولا واحد أو أحد غيره سبحانه. ومن رحمته سبحانه أن جعل لك طرقاً مختصرة توصلك إلى هذه الحقيقة بجلاء ووضوح، إحدى هذه الطرق تجدها في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم معلّماً إياك فضل سورة الإخلاص، وفتح لكَ باباً من أبواب الخير قائلاً: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» [صحيح البخاري] وهذا الباب لا يمكن لك أن تدخله إلا إن تفكرت بنور من الله، كيف بدأت سورة الإخلاص بأمر رباني هو: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وختمت: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ وهذا إخبار لك أن الله تعالى هو:

الأحد جل جلاله: أي: لا ثاني له ولا ثالث ولا أكثر، ولا مكافئَ ولا مماثلَ ولا نظيرَ، ولا شبيهَ ولا مقابلَ له؛ لأنه إن كان أي شيء قبله فلن يكون سبحانه أحدٌ، وإن كان أي شيء بعده فلن يكون سبحانه أحدٌ؛ لذا لا مقابل له وهو سبحانه أحدٌ ولا أحدَ سواه.

الله هو الأحد جل جلاله، حقاً قائم بذاته مستغنٍ عن كلِّ ما خلق، متفرد بوحدانيته جل وعلا، يستحيل تصوره وإدراكه سبحانه لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، ولا يشبهه شيءٌ ولا يماثله شيء، ولا شيء قبله ولا بعده.

احمدِ الله دائماً أنه سبحانه هو الأحد وبذات الوقت هو الواحد جل جلاله؛ أي: لا أجزاء ولا مكونات ولا طبقات ولا عوالم فيه، لا يتألف من ثلاث، ولا من شيء؛ بل هو واحد مطلق ولا واحد غيره سبحانه وتعالى، وما سواه متعدد متباين، وبناءً على تلك الحقيقة، يمكنك فهم التعدد والتنوع في الخلق؛ ومثاله أنت كإنسان هناك أناس من أمثالك الكثير، وكلهم خلقهم الواحد جل جلاله وسوّاهم وركبهم وخاطبهم قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8]، فكن دائم الأدب مع الله الواحد لأنه من صفاته المتلازمة مع وحدانيته هي صفة القهار سبحانه ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: 65] وتذكر أن القهار هو وحده الله، وأنك كعبد موقوف بين يديه وبارز أمامه يوم الحساب ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]

وإن كنت على يقين باللقاء الذي لا فرار منه فإياك أن تقهر أحداً من خلق الله، واعلم أن الواحد جل جلاله هو وحده القهار.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله سبحانه هو:

الواحد جل جلاله: الذي ليس مركَّباً، ولا مكوَّناً، ولا مؤلَّفاً،

بل هو واحد، وأن الله سبحانه هو:

الأحد جل جلاله: الذي لا ثاني له ولا ثالث ولا أكثر، ولا مكافئَ ولا مماثلَ ولا نظيرَ، ولا شبيهَ ولا مقابلَ له

وكم هي نعمة أنك نشأت على التوجه إلى الله الواحد الأحد جل جلاله.



إياك أن تطرح أسئلة عن الله سبحانه وتعالى، وهي بحد ذاتها خطأ فادح لما في طياتها من جملة تناقضات غير صحيحة.

هذه الأسئلة أغلبها من نمط: «كيف سوف يحاسب الله...؟» أو «كيف سوف يعاقب الله... أو ماذا سيفعل الله...؟».

وهذه الأسئلة ومثيلاتها من بدايتها ليست صحيحة، لأن فيها تعميم النِّسبيّ على المطلق، أي: تعميم معرفة الإنسان المحدودة ضمن علمه ومعرفته، على العليم جل جلاله الذي: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5]، وأوجد الخلق وقال مخاطباً الناس: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

المنطق الذي تناقش فيه أي أمر من أمورك هو نسبيّ؛ لأنك تنظر إلى الأمور من خلال منظار الظاهر وما تراه في حياتك وضمن نطاق المكان والزمان الضيّق الذي أنت فيه، وهنا مكمن الخطأ.

الله سبحانه هو الخالق، وكل ما يتعلق به جل جلاله، منزهٌ عما ينطبق على الخلق من منطق أو قوانين، فأين هو في علوه وقدسيته سبحانه مما يصل إليه فهمك أنت أو أي خلقٍ من خلقه.

الله جل جلاله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]، وبشيء من التفكير السليم، تستنتج أنه خالق تقدست أسماؤه وصفاته عن خلقه، ولا يمكن اعتماد المألوف عند التفكر بالسبوح القدوس سبحانه وتعالى، الذي لا تدركه الأبصار ولا تبلغه العقول والذي هو ﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4]؛ والذي وصفه نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله: «لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلَا عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [سنن الترمذي].

لذا؛ إياك أن يتبادر إلى ذهنك مثل هذه الأسئلة، فأنت من حيث لا تدري تُسْقِط فهم المخلوق وهو أنت، على الخالق جل جلاله؛ ومثال ذلك: موضوع الهداية فهناك من الأسئلة التي قد تتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: 8] فتظن أن مشيئة الله في الهداية فيها طغيان أو غبن، وهو جل وعلا منزَّه عن ذلك؛ لأنه مُحال عليه الظلم، فهو النور جل جلاله.

انظر في الكتاب الذي قال عنه منزله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] تجد جليّاً واضحاً أنه جل وعلا جعل لمشيئته بالهداية أسباباً، وهذه الأسباب يمكن أن نوجز جانباً منها بنقاط ثلاث:

1 ـ أول الهداية هي أن يمنَّ الله بالدخول في الإسلام لمن يتصف بخصال حميدة، على رأسها الغيرية والإيثار و المروءة و النخوة و النجدة وهي كالخصال التي امتدح بها نبينا صلى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

2 ـ قد يمنَّ الله سبحانه بالهداية لمن تجاوز الظلم والكفر والفسق وغيرها ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: 7]، لأن هذه الخصال يصدر عنها برّ الوالدين والكرم والأمانة والصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

3 ـ لا يدّعي المسلم هداية أحدٍ، ولا يمنُّ على أحد بذلك؛ بل يسعى جاهداً ليكون أهلاً لشرف وسعادة الهداية والطريق إلى ذلك:

أولاً: بتمثل هداية الله في كتابه وسنّة نبيه، فيصير المسلم المؤمن قدوة ومثلاً يُحتذى به، وإلا، فكيف له أن يُعَرِّف بالإسلام؟ فكم ممن دخلوا الإسلام، دخلوه بمجرد تعاملهم واحتكاكهم مع مسلمين لائقين وكم ممن نفروا منه، كانوا ضحية من يسمّى مسلماً وهو يسيء إلى الإسلام بكذبه ونفاقه وعدم وفائه بعهوده، وخاصة بضعفه وجهله وتخلّفه.

ثانياً: هناك خطوة يستطيع المسلم القيام بها للهداية، تتمثل بإزالة موانع الهداية من ظلم وفسق وكذب وإسراف وكفر ضمن مجتمعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

ثالثاً: أن يدعو المسلم لغيره؛ لأن الهداية لا تكون إلا بمشيئة الله لمن أراد له الهداية، وباب السؤال والدعاء مفتوح.

وهكذا يكون الدعاء تتويجاً للخطوتين السابقتين، وكم من أناس أسلموا بدعوة صالحة، ومثالها: دعاء سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا عمر.

رابعاً: المسلم المؤمن يدرك أن الهداية هي النعمة الحق، فلا تغيب عن وعيه، بل يسألها في كلّ صلواته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 5 – 6].
واحمد الله سبحانه أن تفضل عليك أن تطلب الهداية لك ولغيرك لأن الهداية هي حصراً بيد الله، ولا تكون إلا بمشيئة الهادي جل جلاله؛ الذي يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]. وما أسعد الذي يمن الله عليه بالهداية الحق قبل فوات الأوان! وما أتعس من يتّبع نهجاً ظاناً أنه يوصله إلى الحقيقة والسعادة ليجده بعد سنوات طويلة من الجهود ضلالاً وسراباً.

لا هادي يهدي هداية كاملة إلى الحقيقة إلا الهادي جل جلاله ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: 71] فلا تُضِيعْ جهودك في طلب هداية من عند غير الله، إذ لا وقت لديك في زمن متسارع لتبحث وتجرب أو تنصت للذين يدّعون أن كلَّ الطرق توصل بالنهاية إلى الحقيقة نفسها؛ لأنه سبحانه وتعالى بَتَّ وقطعَ في موضوع الهداية بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 73]. ودلّ بكتاب كريم لا ريب فيه على هداية المتقين ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 1-2] الذين هداهم ربهم ليكونوا من المفلحين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:5]. وأرسل للبشرية مئات الأنبياء والرسل ليرشدوهم إلى الهداية الحق وآخر هداية كانت للناس كافة هي كلمات الله في كتاب قال عنه سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: 29].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله هو الهادي جل جلاله

ولا تكون الهداية إلا لمن شاء الله له ذلك

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: 23]

لذا إياك أن تدّعي هداية أحدٍ، بل عليك بالسعي جاهداً أن تكون ممن هم أهل لشرف وسعادة إيصال هداية الهادي جل جلاله لنفسه وللآخرين.



إن لم تجد أحداً للكلام معه فإنك تتحدث مع نفسك. والعبرة ليست بالفكرة التي تدور في ذهنك، ولكن بالأحاسيس والمشاعر التي تتولد منها؛ لأن النفس بشكل عام تجري وراء الشيء الذي تهتم به، ولا بد أن جانباً من نفسك مهتم بما تفكر به.

افتح قلبك لله سبحانه وتعالى، واسأل نفسك: تُرى من هو أعظم في قلبي ذلك الأمر الذي يجول في خاطري أم الله تعالى؟ لأن تعظيم الله سبحانه هو من أهم الأمور، ثم اسأل نفسك بصدق وتوازن عند أية فكرة: ما جدوى النقاش الذي يدور في مخيلتي حول هذه الفكرة؟ وما الفائدة منه؟ وعندها تجد أن أكثر ما يدور في خاطرك طوال نهارك قد يكون نقاشاً بحدِّ ذاته تافهاً، وما هو إلا ترويح عن النفس، إن أدركتَ هذا الشيء يمكن لك أن تتجاوزه ويصبح مثل رواسب قديمة.

من أهم ما يضبط أفكارك بشكل سريع هو السعي للسموِّ بنفسك والارتقاء بها، وتجنيبها حياة التناقضات، فلا يوجد في نفس المؤمن صراع داخلي أريد، لا أريد، بعبارة أخرى:

عليك إزالة وإعدام صراع الأضداد في نفسك أو مع غيرك، وذلك بأن تتعامل مع نفسك ومع الآخرين ليس بالمجابهة والمعاكسة، مثل جبهة ضد جبهة، وإنما نفسك والآخرين بذات الاتجاه لا تضاد بينها، والطريق إلى ذلك هو التوجه الصادق لمن أوجدك وخلقك إلى:

الله فهو السلام جل جلاله: وتجليات إرادته سبحانه منبثقة من السلام؛ أي: لا صراع للأضداد في نفسه، وكل شيء لديه منسجم بالكلية وبشكل مطلق لأنه جل وعلا «السلام»، وتجليات إرادته ليست نتيجةً لردود فعل أحوال سلبية وإيجابية كأحوال الإنسان، بل تجليات إرادته في عالم الخليقة ناتجة عن السلام؛ أي: انعدام صراع الأضداد فيه وانعدام غلبة بعضها على بعض أبداً.

الله جل جلاله هو القابض والباسط، الخافض والرافع، المعز والمذل، العفو والمنتقم، الضار والنافع، تقدست أسماؤه وصفاته، هو كلّ هذه الصفات والأسماء بآن واحد، لا تغيب صفة من صفاته سبحانه إطلاقاً، جمع بينها كلها لفظ الجلالة «الله» بتجرده، ليعبّر عن هذا الانسجام التام والدائم لانعدام تام لصراع الأضداد، ولا يقدر على ذلك إلا الله.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: 23].

وإن أردت ضبط أفكارك بشكل سريع وشعرت في نفسك أو مع غيرك أحوالاً سلبية وإيجابية وردودَ فعل يغلب بعضها على بعض؛ فعليك بالتوجه إلى:

السلام جل جلاله فهو وحده الذي يهديك إلى ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: 16]، فلا يبقى في نفسك أي تناقض لأن من يتبع ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ فإن المأوى بالضرورة هي دار السلام ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]؛ أي الجنة.

كذلك من أهم ما يضبط أفكارك بشكل سريع هو الشعور بالأمان أيضاً فلا يمكن لنفسك أن تهدأ طالما كانت تعيش شعور انعدام الأمن والأمان لذا لا تضيع جهودك بطلب أمان من غير الله؛ لأن الله هو:

المؤمن جل جلاله: الذي يمنح أو يعطي الأمان، يمنح الأمان لمن يشاء، وهو القادر على منح الأمان الحقيقي، ومنح الأمان هو من تجليات إرادته سبحانه وتعالى، والشواهد في هذا الصدد في كتاب الله كثيرة.

انظر كيف منح الله تعالى الأمان لسيدنا موسى عليه السلام حين ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ قائلاً له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: 31].

وحين أرسل سبحانه سيدنا موسى وأخاه هارون إلى فرعون ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46].

وفي غزوة بدر حين استغاث سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام طمأنه ربنا جل وعلا:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11].

وهذا دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: 126].

الله جل جلاله هو وحده الذي يمنح ويعطي الأمان لمن شاء من عباده، لأنها من صفاته فهو: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: 23]. الذي يعطي ويمنح الأمان لمن شاء من عباده.

فإن كنت تريد الأمان من المؤمن جل جلاله، وتسعى لأن تحظى به فعليك تحقيق الأمن والأمان للآخرين، وأن تكون مأمناً لهم طمعاً بأمن الله سبحانه وتعالى الذي قال: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: 4]، وأكثر من الحسنات لأنك ستجد خيراً منها يوم الفزع الأكبر،

بل ستكون من الآمنين يومها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: 89]. ولا أماناً حقيقياً إلا من المؤمن جل جلاله وذلك بطاعة الله ومن الله.

أخيراً:

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله سبحانه هو:

السلام جل جلاله: وتجليات إرادته سبحانه منبثقة من: السلام؛ أي: لا صراع للأضداد في نفسه وهو سبحانه:

المؤمن جل جلاله: الذي وحده يمنح ويعطي الأمان لمن شاء من عباده،

وإن حققت في نفسك السلام والأمان، تكون أفكارك منضبطة

بل وتنتهي مما يعتري قلبك من وساوس وهواجس



عليك الانتباه جيداً، أن الملائكة هم أول من تعلم القرآن وعلى رأسهم سيدنا جبريل عليه السلام ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: 1-2]، ولو لم يكن الرحمن الذي علم القرآن لكانت الملائكة عند إساءة الأدب مع القرآن الكريم تُوقِعُ كارثة، لكنه سبحانه بالرحمن علم القرآن، وهنا يتضح لك استغفار حملة العرش: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: 7].

والآن انظر إلى قوله تعالى مخاطباً نبينا عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: 113]. ثم تأمل في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: 5]؛ أي سيدنا جبريل عليه السلام، الذي كان بأمر من الله جل وعلا يُعَلِّمُ نبينا، بل ويُعَلِّمُ أحياناً صحابته عليه الصلاة والسلام، ولا أدل على ذلك من الحديث المشهور، حين جاء سيدنا جبريل على هيئة رجل جلس إلى نبينا عليه الصلاة والسلام وأخذ يسأله والنبي يجيب، وبعد كل جواب كان سيدنا جبريل يقول لنبينا: (صَدَقْتَ)، وهذا ما جعل سيدنا عمر رضي الله عنه ـ وهو من حضر ذلك اللقاء ورواه لنا ـ يقول: (فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ) وحين انتهى ذاك اللقاء سأل النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر قائلاً: «يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قال: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» [صحيح مسلم].

ومن كَرَمِ الله عليك أن جعل لكَ كنوزاً عن معرفة الملائكة تجدها في سُنَّة نبينا عليه الصلاة والسلام، ومثالها تلك القصة التي رواها الصحابي أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخاً لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ» [صحيح مسلم].

ألا ترى في هذه القصة النبوية كيف أن ملكاً من الملائكة بأمر منه سبحانه علّمنا قيمة وأجر الأخوة في الله، والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

معرفتك عن الملائكة وعلاقتهم بالخلق ـ وأنت منهم ـ هي أساسٌ في طلبك لأي علم،

وبالذات علوم الخلافة أو العلوم الماورائية على وجه العموم، ودون هذه المعرفة لن تصل إلا لقشور وظاهر تلك العلوم دون حقيقتها، ولا غنى لك أبداً عن معرفة الملائكة وماهيتهم ودورهم في حياة الخلق بأكملهم، وخاصة في طلب العلم؛ ويكفي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ» [سنن الترمذي].

إذاً:

لا بدَّ من إدخال الملائكة في معرفتك وعِلْمك وهذا إن نظرت من منظار الحقيقة، فهُمْ شيء أساسي في كل ما حولنا، وكل شيء في هذا الكون موكَّل فيه ملائكة عليهم السلام، ولهم وجود وحضور في حياة الإنسان، وذلك كله بترتيب إلهي، والأمر أولاً وأخيراً يعود إليه سبحانه.

ومما لا شك فيه أن الله جل جلاله قد أوجد وخلق ما في الكون جميعاً بعلمه، وقدرته وهو مهيمن على جميع مخلوقاته.

وأن الأشياء والمخلوقات جميعها لا يقوم لها قوام ولا يمكن لها الاستمرار أو التماسك على ماهيتها إلا بقوته وإرادته.

وأن إحدى تجليات قدرته وهيمنته المطلقة جل وعلا، أنه وكَّل خلقاً من خلقه، وهم الملائكة الكرام، بأمور مخلوقات أخرى وجعل قوام ودوام واستمرار عمل هذه المخلوقات لا يحدث إلا بإشراف ومراقبة هؤلاء الكرام الموكلون بأمر من الله سبحانه.

إذاً:

الله جل جلاله شاءت إرادته، إيجاد الخلق، و وكل بخلقه ملائكة، وضبط أمور الخلق والملائكة بمنتهى الدقة والسيطرة التامة: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[الأنعام: 59].

ومن أحد تجليات هيمنته المطلقة وقوته وإرادته سبحانه هو هذا التوكيل للملائكة وكيف جعلهم مسؤولين عن كل شيء، وهذه المسؤولية تحت إشرافه المباشر جل وعلا، وجعل علاقة وثيقة بين الإنسان والملائكة بدأها حتى قَبْلَ خلق آدم عليه السلام حين أخبر سبحانه ملائكته:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: 30].

ثم عند خلق آدم أمر سبحانه الملائكةَ أن يسجدوا لآدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 29].

وعند خلق الإنسان هناك ملائكة موكلة فيه أيضاً، فإن النطفة تقع بيد الملك ويسأل الله سبحانه: هل هي مخلقة أم غير مخلقة؟.

وتستمر المسألة إلى نفخ الروح، ثم الولادة وعلاقة وثيقة مع الإنسان، فقد وَكَّل سبحانه ملائكة يحفظونه طوال حياته ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: 11] (أي: بأمر الله).

وعند الموت، ثم في القبر سؤال الملائكة، وتستمر إلى يوم القيامة ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: 21].

ثم في الجنة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: 73].

بل حتى في النار ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [التحريم: 6].

والملائكة الكرام لهم مهام، وهم موكلون دائماً بأمر من الله سبحانه بكلِّ شيء.

فهناك مَلَكٌ للجبال والسحاب، وهناك ملائكة للقرآن الكريم موكَّلة بالسُّور وبالأحرف، وملائكة ترفع الأعمال في يومي الاثنين والخميس،... وغيرهم مما لا يحصى في حياة الإنسان، وما حوله من الأرض حتى السموات وتصل إلى حملة العرش ـ عليهم السلام ـ مما حمل كثيراً من الكُتَّاب والعلماء إلى إفراد مصنفات وكتب عما جاء في الكتاب والسنة من آيات وأحاديث عنهم.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

هناك كنوزٍ من المعلومات عن الملائكة تجدها في كتاب الله الكريم وسُنَّة نبيّه عليه الصلاة والسلام تكرم بها سبحانه على الإنسان، وهذه المعلومات ليست عن الملائكة فحسب بل عن العالم الخفي وغير المرئي



إياك والظن أن القدر في حياة الإنسان هو أمرٌ محتَّمٌ لا مفر منه، لأن هذا من أكبر الأخطاء التي يتسلل الشيطان عبرها إلى قلوب الناس، وخاصة السُّذَج والبسطاء؛ ليبرر لهم أخطاءً كإتيان المعصية، وأفعالاً كالجور والظلم، وسبب هذا الخطأ القاتل هو عدم التمييز بين:

سابق علم الله وبين القدر.

ما يُشْكِل على الكثيرين في فهم سابق علمه سبحانه، ما هو إلا الوقوع في مغالطات إسقاط منطق وقوانين الأدنى على الأعلى.

سابق علمه سبحانه، متعلق به، وهو الله الخالق جل جلاله، وطالما أنه متعلق به سبحانه، فإنه وكل ما هو متعلق به، منزهٌ عما يحكم الخلق، فأين هو في علوه وقدسيته سبحانه مما يصل إليه خلقٌ من خلقه من منطق أو قوانين.

عندما يَمُنُّ الله عليك وتتشرَّف بالتفكُّر بما يتعلق به جل جلاله، إياك أن تُدْخِلَ عاملَ الزمنِ في ذلك، لأنه منزَّه عنه سبحانه، وهذا ما يشير إليه القرآن برمته.

وإن كنت على يقين بعظمة ورقيّ ـ وبشكل خاص ـ دقة لغة كتاب الله الذي قال عنه من أنزله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: 41 – 42]، فإنك تجد البرهان على تنزه الله جل جلاله عن الزمن، أي انعدام الزمن في كل ما يتعلق بذاته، تجده بشكل واضح عندما يعبِّر سبحانه بآيات كثيرة عما يكون في الآخرة ـ أي في المستقبل بالنسبة لنا ـ بفعل ماض، بدلاً من فعل مضارع من مثل قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: 71] وقوله جل وعلا: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ [يس: 26]. وإن نظرت كيف استخدم سبحانه الزمن في هذه الآية ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47] أو هذه الآية: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: 112–113] تجد أن استخدام الزمن في تلك الآيات ومثيلاتها، ليس مجرد أسلوب بلاغي، بل هو إشارة جعلها في كتابه الكريم دليلاً على تنزهه سبحانه عن الزمن.

بهذا التفكير تدرك تمام الإدراك أن الزمن كله لا وجود له عند من أوجد الزمان جل جلاله، وما هو ماضٍ وحاضر ومستقبل بالنسبة لنا، لا وجود له عند الله سبحانه، فلا زمان ولا شيء قبله ولا بعده، وله الإحاطة التامة بكل زمان ومكان.

وكم هو فضل منه ورحمة جل جلاله أن أعلمنا ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

إن استطعت بعون من الله، حذف عامل الزمن عند التفكّر به جل وعلا، فقد حققت قفزةً نوعيةً في فكرك، وعندها ترى بجلاء ووضوح معنى سابق علم الله جل جلاله.

ثم بعد حذفك عامل الزمن يكفي أن تستحضر في عقلك كل اشتقاقات جذر «قَدَر» في القرآن الكريم، وبشكل خاص كلمةً مثل: «مِقْدَار»، لتجد أن عبارة «القَدَر»، هي:

تحديد المقادير كَمّاً وزماناً، في الخلق وفي الأرزاق والآجال.

هذا التقدير، أي تحديد المقادير، أي الضبط، تجَلٍّ لما لا بد منه من هيمنةٍ إلهية وإحكامٍ وتوازنٍ في الخليقة.﴿...وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: 2].

الإنسان هو أحد العناصر الموجودة ضمن النظام الكوني، فلا بد من تقديرٍ وضبطِ كل ما يتعلق به، كما هو الحال بالنسبة لغيره، لأن الإنسان ليس معزولاً عن الخليقة في فقاعة مخصصة له، بل هو مع غيره من الخلق في علاقةِ تفاعلٍ وثيقةٍ ضمن حيِّز الزمن، وهو يتقدم في سيره عبر الزمن بقوانين مضبوطة ودقيقة ضمن النظام الكليّ لمن خلق السماوات والأرض حيث لا زيادة ولا نقصان فيما خلق، ولا تقطّع أو تفتُّت في خلقه سبحانه؛ بل ترابط وتواصل بتوازنٍ وتكامل: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: 3].

ذلك النظام الذي بدأتْ جوانب ضئيلة منه تتراءى في العقود الأخيرة لعلماء الفيزياء الذرية والكونية. فهُم يدركون أكثر فأكثر علاقة أي جزء بالكل، ويفترضون أن أي شيء يحدث لمكَوِّنات أية ذرة ينعكس في الحال على ما يقابل تلك المكونات في «اللامادية».

فالقدر، إذاً، ليس محصوراً بالإنسان، بل يشمل الخلق كله. ويمكن النظر إليه من خلال رؤية حديثة بأنه تحديد وضبط للطاقة وتجلياتها في المادة و«اللامادية» ضمن الزمن، ولا يقدر على ذلك، إلا الذي قال: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ [الحجر: 21].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير إن:

حذفت عامل الزمن عند التفكّر به جل وعلا يتضح لك فهم واستيعاب سابق علم الله

وإن تابعت عبارة «القدر» في القرآن الكريم يتضح لك مفهوم القدر أنه:

ضبطٌ لكلِّ شيءٍ ضمن النظام الكوني، وأنه إحكامٍ وتوازنٍ في الخليقة

دين الإسلام هو الدين الوحيد الذي تتعرف به على الله جل جلاله، على الذي لا تدركه الأبصار ولا الحواس، ولا تحيط به العقول، تتعرف به على من أوجدك من العدم أنت وكل شيء في هذا الوجود، وهذه المعرفة جعلها سبحانه من خلال كتاب أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا الكتاب الذي أنزله، فيه كل ما تحتاجه لمعرفة الذي خلقك، ولمعرفة كل أسباب وجودك على هذه الأرض، وعرَّفَك سبحانه عن نفسه في هذا الكتاب وأعلمك أن الله هو الاسم الحقيقي الذي تتوجه به إليه جل جلاله وأنك إن قلت: ياالله فأنت تنادي الذي خلق السماوات والأرض وأوجد كل شيء دون الحاجة لمن يوصل نداءك إليه، لأنه سبحانه قال في هذا الكتاب الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[غافر: 20].

و تجد في هذا الكتاب أن هناك حقيقة أبدية واحدة هي أن الدِّين مسألة كونية شاءها مُوجد الأكوان جل وعلا، وأنه قرار إلهي لا رجعة فيه، وأن الدِّين ملازم لمسيرة البشرية منذ إيجادها، وهو ملازم للإنسان كما أن نفسه ملازمة له، لذا جعل سبحانه الدِّين استعداداً فطرياً: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 30] وجعل الدِّين منهج الأنبياء جميعهم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[الشورى: 13].

وجعل اسم هذا الدين: الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: 19]وجعله الدين الحق الذي شاءه سبحانه منذ القِدم لأنبيائه ورسله؛ ومنهم سيدنا نوح عليه السلام الذي قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 72]. وقال سبحانه عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 67].

وفي هذا الدِّين تجد أن سيدنا محمد هو خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[الأحزاب: 40]، وهو آخر الأنبياء على هذه الأرض، وقد شهد له سبحانه وتعالى بالدين الحق: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: 28].

أنت وكل الخَلْق موصولون بالله جل جلاله صلة روحية مستمرة منذ الإيجاد إلى الإفناء؛ وهذه الصلة جعلها سبحانه من خلال هذا الدين الذي جعل فيه كل الخير لك، ويكفيك فخراً أنك في يوم واحد وفي الصلوات الخمس المفروضة، تسأل الله جل جلاله بهذه الكلمات: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 6-7].

وكم هي نعمة منه سبحانه، أن أعلمك تلك الكلمات، وأعلمك بأنك ستجد عنده يوم تقف بين يديه كل خير قدمته، بل وستجده أضعافاً مضاعفة، وهذه الكلمات هي الآن بين يديك فاجعلها طريقك إليه، لأن كل كلمة أنزلها سبحانه هي كاملة نقية، كمال ونقاء الذي قال عن نفسه سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: 20].

مهما حاولت فلن تجد مهرباً من لقائه جل جلاله، ولا بد لك يوماً من الوقوف بين يديه سبحانه، وهذا ما أخبر به نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ» [صحيح البخاري].

لذا؛ فاحرص أن تجعل رسالته التي حملت لنا كلماته هي طريقك إليه جل وعلا، واعلم أنها الفرصة الأخيرة للبشرية، وأنها تتمة وإكمال لكلِّ مَا جاء قبلها من أمم سارت على نهج الحقيقة، وأنها استمرار للتراث الكوني الأصيل وتطهير له من شوائب التدخل البشري، وهذه الرسالة فيها شرع متكامل، تجده من خلال شعائر العبادة كالصلاة والحج والصيام، وهي رسالة كاملة نقية كمال ونقاء الوحي الذي جاء بها، وهذا ما عبَّر عنه نبينا عليه الصلاة والسلام قائلاً:

«إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ؛ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ» [صحيح البخاري]. وهذا ما تجده في سورة الأنبياء، حيث تجد ذكراً معبِّراً لأنبيائه سبحانه، مع جانبٍ أساسيٍّ من حياتهم، ثم يختم الله تعالى ذلك الذكر بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92].

ويوم تلقى الله جل وعلا ستجد أن الأنبياء يمثلون جماعة أهل الإيمان والمعرفة الحقيقية، وأنهم يكَوِّنون أمة واحدة، وأن الإسلام استمرار لطريق أهل الحقيقة؛ وهذا ما تجده أيضاً في

سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:84].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

هناك حقيقة أبدية واحدة هي:

أن الله جل جلاله جعل الدِّين مسألة كونية وجعل الإسلام هو الدين الحق الذي شاءه منذ القِدم لأنبيائه ورسله ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران: 19]

دين الإسلام تتمة وإكمال لكل الرسائل الإلهية التي جاءت قبله، وهو استمرار للتراث الكوني الأصيل وتطهير له من شوائب التدخل البشري

دين الإسلام هو الفرصة الأخيرة للبشرية لذا جعله سبحانه

رسالة نقية فيها شرع متكامل.



لا بد لك من التعرف على كلمة قرآنية هامة هي «الإسلام»، ولا بد من تعريف دقيق وموضوعي لأصلها؛ لأنه جل جلاله يقول في محكم كتابه:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران:19].

كلمة «الإسلام» مصدرها إلهي، وهي للدلالة على أن الإسلام هو الاسم الحقيقي والمطلق الذي شاءه سبحانه منذ القِدم لدين أنبيائه ورسله.

المنهج الصحيح الذي ينبغي عليك إتباعه لتعريفها يقتضي اعتمادك عملياً: القرآن الكريم. وإن أنت تتبعت الكلمات المبنية على الجذر ذاته، ستصل إلى اسمه تعالى السلام لأنه سبحانه هو الأصل فهو السلام جل جلاله وتجليات إرادته سبحانه وتعالى منبثقة من السلام؛ أي: انعدام صراع الأضداد فلا صراع للأضداد في نفسه؛ بل انسجام مطلق، وكل شيءٍ لديه سبحانه منسجم بالكلية لأنه جل وعلا «السلام»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الحشر: 23]. وبذلك يكون تعريف كلمة «الإسلام»: القيام بتحقيق انعدام صراع الأضداد.

أيضاً كلمة «الإسلام» مبنية على وزن: «الإِفْعال»، مثل الإنجاز والإيقام والإنهاء والإتمام والإنشاء وجلي أن وزن «الإِفعال» يفيد المبادرة للقيام بأمر أو تحقيقه على التمام، والإسلام قائمٌ على المبادرة و الهمّة و العزم.

وكلمة «مسلم» تتماشى تماماً مع ما سبق، فهي مبنية على وزن «مُفْعِل»، مثل مُنْصِف، منجز، منذر، مُكمل؛ والتي يُفهم منها أن وزن «مُفْعِل» يعبِّر عن الذي يقوم بأمر يثابر عليه محققاً إياه.

فلا يوجد في نفس المسلم صراع داخلي: أريد، لا أريد. بعبارة أخرى: على المسلم إزالة وإعدام صراع الأضداد في نفسه أو مع غيره، وذلك بأن يتعامل مع نفسه ومع الآخرين ليس بالمجابهة والمعاكسة، مثل جبهة ضد جبهة، وإنما نفسه والآخرين بذات الاتجاه لا صراع أضداد بينهم، والطريق إلى ذلك في الإسلام وبالتوجه الصادق لمن هو السلام جل جلاله.

أما ما هو متداول وشائع عن تعريف كلمة «الإسلام» على أنها تعني الاستسلام لإرادة الله، والثقة بحكم الله والتسليم بمشيئته والقبول بقدره وقسمته، ما هو إلا من معاني الإيمان و سِماته! وخير ما تعبّر عنه هي كلمة «الإيمان»، وهو في الحقيقة نتيجة التباس وخلط بين

كلمتين: الإسلام والإيمان.

أيضاً لا يمكن دعم فكرة أن الإسلام «استسلامٌ» لإرادة الله بأي شاهد قرآني.

بل على العكس، لأن المرة الوحيدة التي يَرِدُ فيها اشتقاق لكلمة «استسلام» في القرآن الكريم، هي في سورة الصافات، في قوله تعالى عن الظالمين: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾! [الصافات: 22-26].

بالمقابل، فإنك تجد شواهد كثيرة عن الطاعة، بصريح العبارة أو من حيث المضمون. و إن تفكرت بالأمر تجد الفرقُ الشاسع ما بين الطاعة والاستسلام؛ فالاستسلام موقف سلبي تنعدم فيه المبادرة و الهمة و العزم، و هو بشكل خاص تعطيل كامل لفكر المستسلم هذا كله على النقيض التام لروح الإسلام، و لما يريده سبحانه من عباده من مبادرة و عمل، ويمكن لك بسهولة تتبع مدح الله جل جلاله لأنبيائه في كتابه الكريم إذ يشيد بهم قائلاً: ﴿...وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 17]، و﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 30]، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي رجّاع إلى الله تعالى أوّاب إليه، كلما ابتعد سارع بالرجوع إلى الطاعة والتوبة، كذلك يمكنك تتبُّع مدحه جل جلاله لعباده وكيف يشيد بهم قائلاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: 57-61].

وفي كلا الحالتين عند مدحه سبحانه أنبيائه أو عباده تجد أنها مواقف إيجابية تتسم بالعزم و المبادرة و بدرجات عالية من حضور القلب و الوعي.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الإسلام هو ضمن الترتيب الإلهي الاسم الحقيقي والمطلق الذي شاءه سبحانه منذ القِدم لدين أنبيائه و رسله، وكلمة «الإسلام» تفيد المبادرة للقيام بأمر أو تحقيقه على التمام، و على المبادرة و الهمّة و العزم



لا بد لي من التأكيد لك أن كلمة «عربي» في القرآن الكريم، ليست اسماً لتلك اللغة كما هو شائع، بل وصفاً لها.

فالخطأ الشائع هو فهم كلمة «عربي» في القرآن الكريم على أنها اسماً للغة العرب؛ أي إنها لغة جرت على ألسنتهم وطوروها فنسبت إليهم، كما هو الحال بالنسبة لباقي لغات العالم التي تسمى باسم القوم الذين تكلموا بها أصلاً.

اللغة العربية حالة خاصة، لا تنطبق عليها الاعتبارات السابقة؛ فهي لم تُنسَب إلى العرب؛ بل العرب نُسِبوا إليها.

ويمكنك فهم المقصود من كلمة «عربي» في القرآن الكريم، من خلال استخدامها في النص الشريف؛ إذ أكثر ما يلفت النظر في تلك الآيات هو المقابلة بين «عربي» و«أعجمي».

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَـرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 103].

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَـٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عۡجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: 44].

فَهْمُ «أعجمي» على أنها تعني «فارسي» غير صحيح! المقصود في القرآن الكريم من «أعجمي»: ما يثير الالتباس لعدم وضوحه؛ لذلك فإن الأحرف ذات النقط تسمى «معجمة» لإمكانية الالتباس بينها لولا نقطها، مثل: الباء والتاء والثاء.

و هكذا و بالمقابلة مع «أعجمي»، يتجلى لك المقصود في القرآن الكريم من كلمة «عربي» أي: الوضوح التام، وخاصةً انعدام إمكان الالتباس. فعندما تُعْرَبُ جملة، يصبح المقصود من كلماتها واضحاً جليّاً لا لبس فيه. وكذلك عندما يُعْرِب المرء عن أمر، فإنه يعبر عنه بوضوح وبلا مواربة؛ بذلك يفهم قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: 2] أن المقصود بـ: ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾: قرآناً واضحاً جليّاً، لا مجال للتضارب أو الالتباس في فهم معانيه مهما تعمق الباحث فيها.

فهمك الصحيح لمعنى كلمة «عربي» يجعل انتمائك إلى دين الله هو انتماءٌ إلى البشرية جميعها، وهو انتماء أبعد ما يكون عن الاعتبارات القومية أو العرقية، لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أراده الله سبحانه للعالمين، أراده شاملاً لكل رسالاته متمماً ومكملاً وخاتماً لها، ولم يرسل الله سبحانه رسوله عليه الصلاة والسلام إلى العرب حصراً ليخلصهم من الوثنية، بل أرسله للناس كافة:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: 28].

حتى نبينا عليه الصلاة والسلام هو وقومه وأول مَن آمن به، كلهم أنفس أصلها من عالم آخر لا مادي، عالم لا علاقة له بالمواقع الجغرافية ولا بالأجناس ولا بالأقوام، أنفسٌ رتب لها العليم الحكيم أن تولد في أجساد، وتجتمع في وقت واحد ومكان واحد، كما هو الحال بالنسبة لك ولأيٍّ منا ولمعاصرينا، أو لأيِّ نفسٍ تولد في عالمنا في الماضي وفي المستقبل.

الانتماء إلى الإسلام ليس انتماءً إلى «دين ابتكره عربيّ من مكة»، بل انتماءٌ إلى الدين الوحيد الذي أراده الله سبحانه للعالمين.

لذا إياك أن تقع في محدودية الدعوات العرقية أو الطائفية، واجعل انتماءك إلى دين الله الخالق جل جلاله فهو أعلم بما خلق ولِمَ خلق، وتذكر قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 13].

انظر كيف ودّعَ نبينا عليه الصلاة والسلام الناس في حجه الأخير قائلاً:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟» [مسند أحمد]، فهو عليه الصلاة والسلام يوجه خطابه إلى البشرية جميعها بعبارة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كما هو في الآية الكريمة.

دين الله هو الوحيد الذي أراده سبحانه للعالمين، وأراده شاملاً لكل رسالاته متمماً ومكملاً وخاتماً لها، لذا أرسل رسوله عليه الصلاة والسلام إلى البشرية جميعها: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]، وكلمة «الناس» في القرآن تعني «البشرية» في لغة معاصرينا، و رسالة القرآن تشمل البشرية وتتجاوزها إلى من سواها، لأنها رسالة للعالمين: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: 27-28].

أما الرسالات و الشرائع الموحاة من الله سبحانه و السابقة للإسلام، فإنها تتصف بانحصار رسالتها بقوم و لا تتعداهم إلى غيرهم.

مثال ذلك ما ورد في القرآن عن سيدنا عيسى عليه السلام، أنه أُرسِل لبني إسرائيل حصراً.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ...﴾ [الصف: 6].

ليكن انتماءَك دائماً إلى دين الله الخالق جل جلاله الذي قال: ﴿.. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، واحذر محدودية الدعوات العرقية أو الطائفية. فما أبعد رسالة القرآن وخاتم النبيين عن عِناد العرقية والقومية، وما أعظم وأجمل الدعوة القرآنية الإلهية إلى البشرية: ﴿...لِتَعَارَفُوٓاْ ...﴾ [الحجرات: 13].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الإسلام هو الدين الوحيد الذي أراده الله سبحانه للعالمين

فهمك الصحيح لمعنى كلمة «عربي» يجعل انتماءك إلى دين الله هو انتماءٌ إلى البشرية جميعها، وهو انتماء أبعد ما يكون عن الاعتبارات القومية أو العرقية لأن سبحانه أرسل رسوله للناس كافة وليس إلى العرب حصراً:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: 28].



الإسلام ليس مجرد دين بين الأديان، بل هو بمثابة آخر فرصة يمنحها الحق جل جلاله للناس كافة؛ لإخراجهم من الظلمات إلى النور وهي رحمةً منه جل وعلا للعالمين.

نقاطاً كثيرة تجدها في القرآن خاصة، وفي الإسلام عموماً، هي بالواقع أجوبة عن تساؤلات وإشكالات قد تكون أنت لا علاقة لك بها، بل ولا تخطر على بال معظم الذين ولدوا مسلمين، ولكنها أجوبة عن تساؤلات وإشكالات في حياة غير المسلمين، وخاصة من يبحث منهم عن الله تعالى بصدق وأمانة؛ إذ إن السبب الأساسي للإلحاد أو الكفر أو الشرك أو الاضطراب الديني هو الافتقار إلى معلومات ومفاهيم صحيحة وكاملة عن الله جل جلاله.

ما أكثر الآيات والأحاديث التي هي أجوبة عن تساؤلات البشرية، وهي لكل باحث يريد معرفة الطريق الذي يوصله إلى الإله الحق، حيث يجد الأجوبة اليقينية في صفحات القرآن الكريم فهو المرجع الأعلى واليقيني للتعريف بربّ العالمين. انظر في قوله تعالى من سورة الحديد:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الحديد: 1 – 6].

في هذه الآيات من القرآن الكريم وأمثالها يجد الباحث عن الله جل جلاله رؤية كاملة متوازنة وصحيحة عنه سبحانه، ما أحوج الذين يبحثون عن الحقيقة، والذين يهتمون بالمسائل الروحية إليها؛ إذ لا يمكن ادّعاء الخوض في المسائل الروحية من غير التعرّف على أصل الروح، ومن غير تواصل حقيقي وصحيح مع الحق جل جلاله، الذي هو أصل الروح.

وإن بحثت البشرية كلها عن نصٍ صادرٍ يقيناً عن خالق السماوات والأرض، فلن تجد سوى النص القرآني الشريف، فهو الوحيد الحرفي والأصيل والكامل المتوفر منذ أكثر من ألف وأربع مئة سنة، ويتميز باحتوائه على ما لا يمكن إحصاؤه من أدلة ساطعة على ألوهية مصدره.

كذلك فإن المعلومات اليقينيّة والاستثنائية، المتوفرة في القرآن والسنة المشرفة عن العالم الخفي الذي لا نراه وعن العالم الظاهر لنا، تغطي كل حاجات وتطلعات البشرية، من أبسط

الناس إلى أعظمهم مقاماً ومسؤولية و مهامّاً أنظر في قوله تعالى:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: 1 – 3].

كم في هذه الآيات ومثيلاتها من معلومات لا غنى عنها للتعرف على العوالم الخفية. والتي لا غنى عنها لكل من يتوق إلى فهم حقيقة العالم الذي يحيط بنا والتعرف عليه، ولا يمكن فهم حقيقة ذاك العالم ولا الخوض فيه بنجاح، إلا بمعرفة أنه ينقسم إلى عالم ظاهر وعالم خفي، وهي حقيقة جلية تجدها في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27].

أيضاً ما أحوج البشرية إلى التعرف على الأخلاقيات والأعمال والمناسك والشعائر الحقيقية التي تسمو بها لتُقَربها إلى الله سبحانه، ولن تجد ذلك إلا في دينه وكلامه المنزَّل.

شعائر الصلاة الأصيلة والوحيدة ذات المصدر الإلهي في العالم، هي شعائر الصلاة الإسلامية.

كذلك بالنسبة للحج؛ فالحج الإسلامي إلى مكة المكرمة، هو الحج الوحيد في العالم الذي يطابق في تحديد أماكنه، وفي شعائره وكل تفاصيله وحي خالق السموات والأرض:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: 27 – 29].

ما أحوج البشرية إلى التعرُّف على خالقها الذي هي لا محالة ملاقية إيّاه، ومعرفة وفهم حقيقة العالم الذي تعيشه بكل أبعاده المرئية وغير المرئية، من خلال القرآن الكريم؛ فهو رسالة للبشرية جميعها، وهو أصل العلم الحي لأنه يحيي صاحبه وينقله من الظلمات إلى النور، وهو مجال روحي لا مادي، وتدبره قُرْب من الذي أنزله، والذي هو أصل الروح؛ وقد جعل فيه سبحانه كنز من كنوزه بالتوجه إليه بأسمائه الحقيقية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: 8].وهي دعوة من الله الحق إلى كل من يتوق إلى الارتقاء الروحي بالتوجه إليه

أو التواصل معه بكلمات من الحقيقة، تعبر عنها آياته وكلماته سبحانه والتي منها: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴾ [الإسراء: 110].

السور والآيات التي تحوي أسماء الله الحقيقية هي كنز، يقدِّم الإطارَ الأمثلَ لفهمٍ موضوعيٍّ ودقيقٍ وعالٍ عن الألوهية؛ لما فيها من معلومات دقيقة ومفاهيم عالية.

نعمة التوجه إليه سبحانه بأسمائه توفر على غير المسلمين تعاسةَ إساءةِ التوجه إليه سبحانه بأسماء لا تليق به، إن لم تكن مشينةً كونها أصلاً أسماء وثنية لآلهة وهمية لا وجود لها، والتي قال عنها سبحانه:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النجم: 23] كَمٌّ عظيمٌ واستثنائي من المعلومات والمفاهيم الأساسية عن الألوهية، مركَّز بكثافة عالية في كلمات هي أسماءه سبحانه.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أنك:

في دين الإسلام تجد رؤية كاملة متوازنة وصحيحة عن الله سبحانه

وتجد بهذا الدين خير ما يمكن أن تتواصل به أنت وكل الخلق معه جل وعلا

كما وتجد فيه كل الإجابات عن التساؤلات والإشكالات لكل من يبحث عن الله تعالى بصدق وأمانة من المسلمين وغير المسلمين.



تَوَصلَ معظم القائمين على المجتمعات الحديثة العلمانية، إلى الاعتراف أن الرادع الوحيد الفعال في القضاء على الجريمة في كل أشكالها هو الرادع الديني.

وخير رادع ديني تجده في الأخلاقيات الإسلامية؛ لأنها تشكل القوة الرادعة التي تنجح، حيث تفشل كل قوانين العالم الحديثة في الحدِّ من السرقات والعنف والقتل وانتشار المخدرات.

ذلك الرادع في الإسلام متكاملٌ وفعّال، إذ يقوم على نصوص من الوحي صريحة، قادرة على استباق الأحداث والتحسب لكل الحاجات، لتقدم أسس كل ما يحتاجه المجتمع في هذا المجال، حيث تجد فيها الفارق بين عمق وشمولية النظرة الإلهية لمسألة ما، وبين نسبية النظرة البشرية للمسألة ذاتها، ومحدوديتها في الزمان والمكان.

التعاليم الإلهية التي تجدها في القرآن الكريم كلها متوافقة متوازنة ما بين الإنسان وفعالياته، وما بين العالم الذي يحيط به وما فيه من مخلوقات، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ أذكر لك بعضاً منها:

أولاً: يستحيل على المتمثل لتعاليم القرآن والإسلام أن يفسد في الأرض، أو أن يلوث، أو يسمم، أو يخرِّب، أو حتى يقطع شجرة حيَّة بلا مبرر.

ولا مجال للكوارث البيئية في مجتمع إسلامي نشأ أفراده على الإيمان والاحترام الشديد لأيّ مخلوق ولأيّ شكل من أشكال الحياة؛ لأن المؤمن بآيات من القرآن مثل: ﴿... وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...﴾ [الإسراء: 44]، و﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم...﴾ [الأنعام: 38]، شديدُ الاحترام أمام أيّ مخلوق، ولو كان حجراً.

ثانياً: القائمون على المسائل البيئية والموارد الطبيعية مُجمعون على أن التبذير من الأسباب الأساسية في المشاكل البيئية الحديثة؛ لذا فإن الجهود العالمية الحالية للحفاظ على البيئة تُجْمِعُ على أن الخطوة الأولى التي يجب اتخاذها هي الحدُّ من التبذير.

المتمثل لتعاليم القرآن والإسلام لا يمكن له أن يكون مبذراً فهناك آيات صريحة وأحاديث كثيرة تنهى عن التبذير وعلى رأسها آيةٌ تشبّه المبذرين بالشياطين: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: 27].

والمسلم على العموم يجد نفسه بدافع من إيمانه ملزماً بتأدية واجب الشكر لله، وذلك من

خلال التوظيف الأمثل لكلِّ ما يحيط به من موارد طبيعية، فالشكر في لغة القرآن ليس بالقول كالحمد؛ بل بالعمل وذلك من خلال حُسن توظيف العطاء الإلهي؛ وهو عين ما تسعى إليه الجهود الحديثة بحثاً عن التوظيف الأمثل للموارد الطبيعية.

ثالثاً: لا مجال في الإسلام لكوارث بشرية، كالتي حصلت نتيجةً الاستهتار بالناس ودعوتهم باسم الحرية إلى الانحلال الخلقي في المسائل الجنسية، كما حدث في الستينات والسبعينات من القرن الماضي وفي الغرب خاصةً. وما جاء بعدها من الصحوة المزعجة للنتائج المأساوية لملايين ضحايا مرض نقص المناعة، إضافة للمآسي النفسية والاجتماعية لناشئين بعشرات الملايين في أسرة مزقتها «الحرية»، أو ولدوا أبناء زنىً، أضاعوا عمرهم في بحثِهم عن آبائهم أو أمهاتهم الحقيقيين.

رابعاً: الأسرة الإسلامية الحقيقية أسرة متماسكة متضامنة إلى أقصى حدٍّ؛ وذلك لأن صلة الرحم واجبة بحسب النص القرآني واستناداً إلى الحديث الشريف، إلى درجة أن الذي لا يحترمها تُرفض كل حسناته ويُطرد من الرحمة الإلهية.

هذه الأسرة بدورها، نواة لمجتمع متماسك متضامن متوازن، يوفر لجميع أفراده الكرامة والاحترام والرعاية التي يحتاجونها، حيث لا مجال أبداً في ظلّ مجتمع الإسلام للتعاسة والوحدة، التي تقتل ببطء الملايين من المسنين المتروكين في بيوتهم أو في دور العجزة، والملايين الذين يعيشون على هامش المجتمع وعلى قمامة الأثرياء.

خامساً: لكل مسلم دوراً في التكافل الاجتماعي من خلال واجب الزكاة، وكذلك من خلال ما لا حصر له من الصدقات والهِبات؛ لأن الزكاة من أسس التكافل الاجتماعي، وهي كافيةٌ لتخليص الاقتصاد من الأزمات المالية الناتجة عن الاختناق الدوري الذي يعتريه.

دين الإسلام يتميز عن «الأديان» الأخرى باحتوائه بصريح النص على أسسٍ جوهريةٍ كثيرةٍ، لا يقوم اقتصادٌ عادلٌ وناجح إلا عليها. وعلى سبيل المثال كيف حرم الرشوة؛ حيث أخرج الترمذي بسند حسن صحيح قول ابن عمر: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ» [سنن الترمذي].

وهناك ضوابط واضحة وصريحة فيما يتعلق بالتبادلات التجارية، تلك الضوابط التي تمنع الاحتكار والمضاربة، ولا تترك مجالاً لحدوث ما يسميه الاقتصاديون «الفقاعة»، حيث ينهار الاقتصاد بشكل دوري بانفجارها.

سادساً: هناك احترام شديد ورعاية للمُلكية الخاصة تتوازن مع حرص فائق على الدقة والأمانة في تأدية وتأمين حقوق الآخرين، وعلى رأسهم حقوق العمال وما يتعلق بحسن معاملتهم وضمان حقوقهم؛ وبالتالي الأمان والاستقرار في أي مجتمع وهذا ما أمر به نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله: «أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ» [سنن ابن ماجه].

ومن ميزات تلك الأسس الجوهرية الإسلامية، التي تضمن وجود واستمرار اقتصاد عادل ومنتعش، انسجامها مع الروحانيات، تلك الروحانيات التي ينضح بها القرآن الكريم تعيد الاقتصاد إلى مكانه الصحيح: وذلك بتحويله من هاجس جنوني في طلب الثراء سعياً وراء الهيمنة، إلى وسيلة تساعد الناس في عبورهم هذا العالم طلباً للآخرة.

ومن هاجس جنوني يهبط بالنفس ويشوهها، إلى وسيلة تُحَرِّرُ النفسَ من الركوع أمام الحاجات المادية للالتفات والتَّسامي في المساعي الروحية.

كم هي ميِّزة عظيمة: وجود نصوصٍ مُوحاةٍ من خالق الكون تقدم أسس وضوابط كل النقاط التي تعرضنا لها، وهي تعاليم قرآنية كلها متوافقة متوازنة ما بين الإنسان وما بين العالم وما فيه من مخلوقات، ذلك لأن من سمات القرآن الكريم التوازن فيما بين سوره، وفيما بين آياته، وفيما بين كلماته، وحتى فيما بين أحرفه، وهو توازنٌ دقيقٌ وعجيبٌ في مدلولاته وفي الآفاق الشاسعة التي يفتحها لفهم مكنونه، ليس هذا فحسب بل حيثما نظرت تجد هذا التوازن سمةٌ من السمات الأساسية لدين الإسلام كدين و شرع ومنهاج متوازن، كما هو ذلك التوازن العجيب للقرآن الكريم؛ لذا فهو الوحيد بما فيه من أخلاقيات إسلامية متوازنة تشكل القوة الرادعة التي تنجح حيث تفشل كل قوانين العالم.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الإسلام هو الدين الذي يتميّز بكمال التوازن بين ما يتعلق بالأمور الدنيوية و الأخروية

وهو الوحيد بين الأديان الذي يحقق توازن بين:

الإنسان وبين العالم الذي يحيط به بكل ما فيه



الزمن ليس مجالاً ثابتاً في خصائصه، بحيث يتطابق فيه أي «جزء» منه في الماضي مع مثيله في الحاضر أو المستقبل.

الزمن، وكما هو جليٌّ في النص القرآني وفي الحديث الشريف، نسبيٌّ ومتبدل، وهو حالياً متسارع باضطراد.

لذا لا بد لك من إدخال حقيقة نسبية الزمن وتسارعه في الحساب عند النظر في مختلف النُّهُج والشرائع الدينية.

افترض أنك وجدت نهجاً أو شرعاً دينياً من وحي الله إلى قوم من الأقوام، وأنه وصل إليك كاملاً بلا تحريف وبلا أي تدخل بشري، فإن ذلك الشرع غير مناسب للزمان الذي أنت فيه، لأنه كان مُعَدّاً لزمن آخر مختلف في خصائصه. وتطبيق ذاك الشرع أو النهج في زمانك هيهات أن يوصلك بجهدٍ جهيد إلى منتصف الطريق.

الدين الذي جاءك مع القرآن الكريم، هو الدين الأوحد المعَدُّ في كافة جوانبه ليتناسب مع تسارع الزمن، لأن رسالته التي حملها، هي آخر رسالة من العليم الحكيم جل جلاله إليك وإلى البشرية قاطبة حتى آخر الزمان، وهي الوحيدة المعدة أصلاً لتواكب تقدم الزمن بل وتسبقه، والأهم أنها رسالة فعالة لدرجة أنه يمكِّنك إن طبقت الحد الأدنى منها الوصول إلى بر الأمان.

ليس الإسلام ديناً كان مناسباً لعرب صدر الإسلام (القرن السابع الميلادي) حصراً، ثم كُيِّفَ بشكل متواصل ليتناسب مع المكان والزمان وظروف العباد، بل هو مُعَدٌّ أصلاً بحيث تجده البشرية على الدوام سابقاً لها وبانتظارها، وكلما تقدّم الزمن، كلما صار لآيات القرآن ولتعاليم الإسلام معنى. حتى أن معظم الآيات عن التاريخ وأحوال البشر والأرض والخليقة والكون، لم يكن بالإمكان فهمها أيام التنزيل وفي صدر الإسلام كما يمكن فهمها حالياً، والأمثلة التي تجدها في كتاب الله سابقة لزمان تنزيل القرآن كثيرة منها مثلاً:

آيات من سورة الواقعة يقول فيها جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: 58-59]، وكيف هي سبق لزمان التنزيل لأنها جواب للإنسان المعاصر كي لا يصاب بدوار جنون العظمة في اندفاعه في أبحاثه البيولوجية المتعلقة بالتلقيح الاصطناعي وأطفال الأنابيب، أو أجنة الأنابيب لاستخدامها كخلايا جذعية، أو حتى مسألة الاستنساخ.

الآيات من سورة الواقعة تذكرة إلهية ما أحوجها للإنسان المعاصر إن ادَّعى السيطرة على الحياة وتكييفها حسب إرادته؛ أي: بعبارة أخرى أن يصير خالقاً لما يريد من خلال التدخل في الجينات، لكن الله سبحانه يعيده إلى الوعي والتواضع سائلاً إياه: إن كنت حقاً تسيطر على الحياة، فما تفعل بما سأقوله لك: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: 60-61]؟

وهناك آيات سابقة لزمان التنزيل لا يمكن فهمها إلا في زماننا الآن، بعد التطور الكبير في علوم الفلك كما في سورة الطارق المتعلقة بالأرض وما عليها وبالكون وما فيه: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾؟ [الطارق: 1-3].

كذلك قوله تعالى ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: 12]، وهي آية لا يمكن فهمها إلا الآن وذلك بناءً على الخرائط المعاصرة لأعماق المحيطات، حيث يظهر ذاك الصدع بجلاء؟.

وهناك آيات من سورة الذاريات يمكن فهمها الآن بناءً على التطور المتسارع للمشاهدات الفلكية المعاصرة: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [طارق: 11]، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47].

كذلك من المستبعد أن يدرك الناس فيما سبق، أبعاد موضوع الفساد المطروح في القرآن الكريم، كما يمكن معاصرونا إدراكه و لمسه.

ذاك الموضوع الذي لا يمكن لك إلا أن تتذكره عند قراءة قوله تعالى من سورة الروم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41]. لا يمكن أن يدرك أبعاد هذه الآية إلا الإنسان المعاصر عندما يشاهد الكوارث البيئية العالمية التي يحمل هو مسؤوليتها. حيث بدأ يستفحل هذا الفساد بتسارع مضطرد منذ ما سُمِّيَ بالثورة الصناعية؛ ليصير كارثة فيما سُمِّيَ بالثورة الزراعية، وهذا كله باسم التقدم والإصلاح لسعادة البشرية، ألا يذكرك ذلك بقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 11-12]؟ فساد لا يقف عند الكوارث البيئية، بل يمتد إلى الكوارث الاجتماعية والبشرية.

كذلك إن نظرت بتجرد لأغلب مشاكل الزمان الذي أنت فيه، ستجد جليّاً أنه كلما تقدّم الزمن، صارت البشرية أحوج لتعاليم القرآن والإسلام لحلّ مشاكلها، ولعل من أهم ما يمكن

لمعاصرينا فهمه الآن بشكل أوسع وأشمل هي تلك الآيات التي تخبرك عن التاريخ ببعديه في الماضي والحاضر والمستقبل:

منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: 9]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20]، وهذه الآيات الكريمة ومثيلاتها إشارة إلى البعد في الماضي؛ ولعل أوضح مثال عليها كيف ذكر لنا سبحانه قصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه في سورة هود حين قال جلا وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: 25- 26].

ثم يتابع سبحانه تلك القصة بتفاصيلها مذكراً في آخرها نبينا عليه الصلاة والسلام أنه إخبار من الماضي الذي لم يكن على علم به:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49].

كذلك هناك آيات عن التاريخ المستقبلي ولكنه حدث في وقته لأناس قبلك؛ كما أخبر سبحانه رسوله عن انتصار الروم على الفرس قبل أن يحدث ذلك ببضع سنيين، وتجد ذلك في سورة الروم التي استهلها سبحانه بقوله:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: 2 – 4].

وهناك أيضاً أخبار للمستقبل البعيد في آخر الزمان قبيل قيام الساعة؛ حيث أخبر سبحانه عن دابة الأرض والتي ظهورها من علامات الساعة الكبرى؛ وذلك في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: 82].

كذلك أخباره سبحانه في كتابه الكريم للمستقبل عن قوم يأجوج ومأجوج وظهورهم في آخر الزمان كما في سورة الأنبياء:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ...﴾ [الأنبياء: 96 – 97].

حتى إن نظرت في سنة نبينا عليه الصلاة والسلام تجد كنوزاً من المعرفة عن قابل الزمان؛ منها قوله صلى الله عليه وسلم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ» [صحيح مسلم]. وهذا ما بدأنا نلمسه في حياتنا المعاصرة.

وكم هو سبق للزمن أن تجد معلومات قيمة أخبر بها نبينا صلى الله عليه وسلم حتى لما بعد الزمن في جنة الخلد التي قال عنها : «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، وَلَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» [مسند أحمد]، وهو إخبار منه صلى الله عليه وسلم عندما لا يبقى للزمان معنى؛ كذلك هناك إخبار جاء في الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ: مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» [صحيح البخاري]، وكم في هذه الكلمات التي أخبرنا بها جل جلاله على لسان نبينا من سبق لكلِّ زمان ومكان.

نبينا محمد هو خاتم النبيين ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40] ولم يعد هناك أنبياء بعده، لأن نهاية البشرية ستكون بقيام الساعة التي قال عنها ربنا سبحانه:

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النحل: 77].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الدين الأوحد المعَدُّ ليتناسب مع تسارع الزمن هو دين الإسلام

وكلما تقدّم بك الزمن كان لآيات القرآن وتعاليم نبينا عليه الصلاة والسلام، أهمية أكثر، ذلك لأنها آخر رسالة من العليم الحكيم جل جلاله إلى البشرية قاطبة وإلى آخر الزمان



الرسالة الإلهية الأصيلة التي جاءت مع نبينا لا تجد فيها تركيزاً أو اهتماماً، ولا التفاتاً إلى المعجزات الكثيرة، حتى التي جرت على يديه عليه الصلاة والسلام، ولم يقُم ديننا عليها أبداً، بل أيد الله جل جلاله نبينا بالبينات التي تثبتُ للناس كافة أن رسالته حق، وأنها وحيٌ من رب العالمين، وهذه البينات اجتمعت في القرآن الكريم، والذي بيَّن فيه سبحانه وتعالى أن المعجزة ليست في خرق العادة؛ بل بما أوجد وخلق من العدم كل شيء، وجعله يسير بنظام محكم لا يخرج عما أراده له سبحانه، وهذا بحد ذاته هو المعجزة الإلهية الكبرى، وهي متواصلة ومحيطة بنا ولكن حجبتها عنا غفلة العادة، فالعادة غشاوة تحجب البصيرة وتلبِّد النباهة، انظر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: 33].

أليست الدقة المتناهية في دخول الليل والنهار، وشروق الشمس، وظهور القمر من أكبر المعجزات التي نبَّه إليها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: 3].

على مدى صفحات القرآن الكريم تبياناً منه سبحانه أن «معجزات» أنبياء الأمم السابقة لم تنفع إلا أفراداً نادرين في إيمانهم، وأنها كانت حجة على مَنْ لم يؤمن بها، ولا أدل على ذلك من «المعجزات» التي أتى بها سيدنا موسى عليه السلام؛ إذ لم تنفع تلك «المعجزات» فرعون ولم تنفع حتى بني إسرائيل الذين شهدوها، وشهدوا أكبر منها عندما انشق أمامهم البحر فعبروه ونجوا، لم تنفعهم في إيمانهم، بل ما إن تركهم سيدنا موسى عليه السلام أياماً حتى عبدوا العجل؛ وهذا دليل بأن مفعول «المعجزة» آنيٌّ وقصير المدى.

الإسلام لا يقوم على الأسلوب العتيق للعجائب أو الخوارق، وهو أبعد ما يكون عن الأساليب الاستعراضية التي تستأثر بالمشاعر، وتبهر النفوس، على حساب تخدير العقول، الإسلام ليس مجرد دين بين الأديان، بل هو المرحلة النهائية والشاملة للرسالة الإلهية الموجهة لبشريةٍ بلغت سن النضج والعقل.

بشرية آن لها أن تنظر إلى الأمور من خلال منظار الحقيقة؛ وهو منظار إلهي شامل مطلق، يتجاوز محدودية المكان والزمان؛ لما فيه من معلومات تتجاوز سقف الإمكانيات البشرية، ومن خلال هذا المنظار تجد أن خالق البشرية سبحانه، والذي هو أعلم بها، يعتبرها قد

بلغت حد النضج، وآن لها أن تتخلص من التصرّف من خلال منظار الظاهر والذي يبدو سهل ومقنع؛ لأن الرؤية فيه من خلال إمكانيات بشرية، لكنه في الواقع شخصي ونسبيّ وهو منظار سطحي دنيوي محدود ضمن حدود المكان والزمان، وضمن أهواء وأخطاء وسطحية الرؤية الشخصية الدنيوية التي تحكم كل البشر وخاصة تلك الأساليب الاستعراضية التي لا تتطلب مَلَكات عقلية متطورة، والتي تقوم على الحواس من خلال سطحية المؤثرات الصوتية والبصرية، وتهدف إلى الإبهار بالخروج عن المألوف، وإلى فرض الهيبة من خلال العجائب والخوارق؛ إذ ما أكثر مَنْ لم يكن نبياً ولا رسولاً، لكنه خرق العادة بممارسات سحرية تقوم على القوى الخفية السفلى، وما أكثر الكُهَّان المصريين أو الكلدانيين أو الهنود أو اليونان أو الرومان أو غيرهم، و ما أكثر مَنْ لحقهم من أحبار أو قساوسة ورهبان وأئمة ملل باطنية ممن خرقوا العادة، إما بالاستعانة بالقوى السفلى، أو بحيلٍ فيزيائية انطلت على من شهدها، ولعل أعظم العجائب والخوارق في تاريخ البشرية تكون على يديّ المسيح الدجال في آخر الزمان.

القرآن برمته دعوة متواصلة لتحكيم عقل نقي وجليّ ناضج في كل الأمور، وهو موجه لبشرية بلغت سن النضج والعقل، وآن لها أن تُحَكِّم العقل ليكون قائماً على الحقيقة، وذلك كخطوة تهيئ النفس لاكتشاف آفاق لانهائية، وللتسامي في معرفة خالق الكون جل جلاله الذي قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13] العجائب والخوارق لا سبيل لها إلى القلب والعقل القائم على الدين الأصيل، وليس كلّ من يخرق العادة برسولٍ لرب العالمين.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

لا تجد تركيزاً أو اهتماماً إلى المعجزات ولم يقُم ديننا عليها أبداً لأن المعجزة الحقيقية هي: القرآن الكريم، فهو المعجزة السابقة لحدود الزمان والمكان، وهذه المعجزة موجهة لبشريةٍ بلغت سن النضج والعقل



هناك قانونٌ إلهي صريح في النص القرآني الشريف، يقوم الإسلام الحق عليه، تجده في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7 – 10].

لا يمكن تجاهلُ أو إهمالُ ذلك القانون الإلهي، لأنه الأساس في سموِّ النفس وتزكيتها، إذ ما فائدة شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله بعلومها وعظَمَتها، والصلاة وما فيها من علوم لدنّيّة، والصيام والزكاة، والحج وما فيه من رموز عظيمة، مع كِبْرِ النفس، مثلاً؟

فقد قطع وبتَّ عليه الصلاة والسلام إذ قال: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» [صحيح مسلم].

لذا؛ فإن العمل على السمو بالنفس هو من أساسيّات الإسلام، فقد قال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]. وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ لأُتَمِّم حُسْنَ الأَخْلَاقِ» [مسند أحمد].

أي إن السمو بالنفس يكون بتمثل الأخلاقيات الإسلامية للارتقاء بها، ولا يكون ذلك إلا من خلال التعاليم القرآنية التي تقوم وبشكل فعّال بتخليص الإنسان من نوازعه النفسية البدائية برفق ومن غير كبت، وذلك للوصول به إلى النضج والرقي، وهذه التعاليم تجدها أيضاً في سنة نبينا عليه الصلاة والسلام وبكل وضوح والأمثلة على ذلك كثيرة منها المنهج المتعلق بالأنانية، فقد لخَّص الرسول الأكرم ذلك قائلاً:

«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» [صحيح مسلم].وهذا المنهج هو قانون إلهي وليس وعظاً وشعارات جميلة.

كذلك تجده أيضاً في قوله عليه الصلاة والسلام:

«مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ» [صحيح البخاري].

«مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي» [صحيح مسلم].

«لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ» [صحيح مسلم].

«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا» [صحيح البخاري].

«لا تَقَاطَعُوا وَلا تَدَابَرُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَحَاسَدُوا وَكُونُوا إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ اللهُ» [صحيح مسلم].

كذلك فإن كلّ شيء يمكن القيام به لتخليص المرء من مركزية نفسه ومن تعظيمه إياها، موجود في تعاليم الإسلام، وهذا ما تجده في الزكاة والصدقات وإطعام المسكين وجميع أنواع البرّ المتلازمة مع كلّ لحظات حياة المسلم، وعلى رأسها برّ الوالدين وصلة الرحم، وهي بمجموعها منهج تربوي عملي وواقعي بما فيه من إلزام لتخليص الإنسان من الأنانية، والتي هي استعداد نفسي شائع ومعيب.

كذلك تجد هذا المنهج من خلال الحثِّ على التواضع واحترام الآخرين؛ أي: المجتمع والانفتاح عليه بالمساهمة فيه بشكل إيجابي؛ كما تشير إلى ذلك آيات نذكر منها:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: 63].

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: 18-19].

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34].

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: 8-9].

كذلك فإن التعاليم القرآنية تقوم وبشكل فعّال بحفظ ورعاية المجتمع برمته، إذ كيف لمسلم أن يمنّ على أيٍّ كان أو يتعدّى عليه بأيّة إساءة، و قد جبلت نفسه بقانون إلهي يُظهِر حقيقة الأعمال: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: 7].

فأيّ صفاء في نفوس الذين يطبّقونه وأيُّ وقار.

فهم، إن أحسنوا، لا يتفاخرون ولا ينتظرون ثناءً ولا مقابلاً، لعلمهم أنَّما يحسنون لأنفسهم. فلا يُحرِجون أحداً ولا يثقلون عليه. وكذلك فإن نفوسهم تبقى صافية مهما صدر عن الذي أحسنوا إليه. وهم، بالطبع، لا يجرؤون على أيّة إساءة، لعلمهم أنما يسيئون، بالحقيقة، لأنفسهم.

فأيُّ سلام في مجتمع يتم فيه تطبيق هذه التعاليم الإلهية.

مجتمع لا مبرر فيه للنزاعات ولا مكان فيه للأحقاد. لأن كل فرد فيه يقوم بعمله ويؤدّي واجباته على أحسن وجه، ولا يسيء لنفسه أو للآخرين بشيء.

ولا يقف الأمر عند ذلك، بل إن قانون ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7] يحرر النفوس التي جُبِلت به، بمجرد تطبيقه وبطبيعة الحال، من علة نفسية خطيرة في حقيقتها وفي عواقبها، وهي الحاجة إلى كسب إعجاب وتأييد الآخرين.

خطورة هذه العلة، في الحقيقة، تكمن في صرف عقل ووجدان صاحبها عن الذي بيده ملكوت السماوات والأرض والذي إليه المصير هبوطاً سحيقاً إلى الناس. ناسٌ يصفِّقون مع المصفقين، ويُدْبِرون هاجرين مع المدْبِرين عند أول مشكلة.

هذه العلة وغيرها مما يعتري أنفس البشر لا حل لها إلا بتعاليم الإسلام والتي برمتها تشترك بهدف أساسي هو صون الكرامة، بل وإن العامل المشترك للمحرّمات عموماً، هو كلّ ما يسيء بالحقيقة وعلى المدى القريب أو البعيد إلى الكرامة.

هذه التعاليم في حقيقتها، منهج يتّصف بالانسجام والتكامل، لأنه يعمل أوّلاً، على تحرير الملتزم به من هيمنة الدوافع الغريزيَّة، لا بخنقها، بل برفعها بما يليق بكرامة الإنسان الذي جعله سبحانه خليفته على هذه الأرض.

وإن تمثل كل أفراد المجتمع هذه التعاليم عندها يصبح المجتمع برمته خالياً من النزاعات ولا مكان فيه للأحقاد، مجتمع كل فرد فيه يقوم بعمله ويؤدّي واجباته على أحسن وجه، ولا يسيء لنفسه أو للآخرين بشيء، ولا سلام وأمان إلا في مجتمع يتم فيه تطبيق تعاليم الإسلام.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

لا يمكن أن تسمو بنفسك إن لم تتمثل تعاليم الإسلام، لأن هذه التعاليم وبشكل فعّال تقوم بتخليصك من نوازعك البدائية، وتوصل نفسك إلى النضج والرقي.



عليك تحقيق مستوى عالٍ من ضبطٍ للنفس، لأن ضبط النفس يجعلك تعيش سلاماً وسكينةً وتوازناً بين نفسك وبين ما يحيط بك، ويحقق في أعماقك مستوى عالٍ، بحيث تكون أوضاعك النفسية ثابتة لا صعود ولا هبوط فيها أبداً.

ضبط النفس فيه كل الخيرٌ لك، ولمن حولك فهو يجعلك منفتحاً على العالم الذي تعيشه، وأفكارك بناءةً، وكلامك على الإطلاق دقيقاً، وبشكل عفوي دون تَصَنّعٍ وابتذال، وأبعد ما تكون عن الكذب وآفاته وعقلك دائماً يحلق بأمور هامة.

إن أحببت أن تحقق أعلى مستوىً لضبط النفس تجده في تعاليم الإسلام لأنها وحدها تقودك بيسر وسهولة إلى تحقيق ذلك، يتجلى ذلك من خلال ضبط الأفكار و المشاعر أي كلّ ما يختلج في نفسك، بحيث إن تمثلت تعاليم الإسلام فلا وجود عندك لأفكارٍ أو مشاعرَ رديئة أو سلبية لأنها بجملتها اختصرها لك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200].

ولعل من أهم أساسيات ضبط النفس المفروغ منها في الإسلام: أن تملك نفسك عند الغضب، لأن الغضب هو التصرُّف تحت سلطان ثورة النفس وغياب العقل والحكمة.

لذا، و بقياسٍ جليٍّ، فإن تمام الامتثال لتعاليم المصطفى تجعلك تحت سلطان عقل مَوصول بنور المرجعيّة الإلهية، وهذه المرجعية أوصى بها صراحة ومراراً، عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة ومعبِّرة؛ منها مثلاً: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّما الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» [صحيح البخاري].

إياك والغضب؛ لأنك إن غضبت ستقع تحت سلطان العدو الحاذق الذي يستغل انفعالاتِك وردودِ فعلِك الخاطئة، فتقع ضحية حبائل مكائد ألد أعداء الإنسان الذي قال عنه سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6].

ومن أعظم التعاليم القرآنية التي تقودك إلى تحقيق مستوى عالٍ من ضبطٍ للنفس وينعكس عليك سكينةً و سلاماً على المستويين الفردي و الجماعي؛ هو قوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ...﴾ [النساء: 32].

الله سبحانه نهى عن التَّمني؛ وهذا النهي الإلهي بمثابة درة بهية وترياق وبلسم شافي لمن يمْتثِل له؛ لأنك إن بحثت في القرآن الكريم تجد أن جميع الكلمات من عائلة «تَمَنّى» واردة

فيه ضمن إطارٍ سلبي وهي في حقيقتها، من أهمّ أدوات الشيطان وأبوابه، فهو يترصّد أياً كان يتمنّى ليتدخّل في أمنيته، ولو كان رسولاً أو نبياً!:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحج: 52].

التَّمنِّي له أثر على النفوس سلبي للغاية ومخرب، ولكن الله جل وعلا قدِّم لك البديل عن التمني ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ...﴾ ! [النساء: 32]

فأي صون لكرامتك وأي شرف أن تكون مدعواً من خالق الكون الذي بيده الخير كله للتوجُّه إليه في سؤال الفضل ﴿... وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ...﴾.

وأي نفسيَّة سمحة متوازنة ومتماسكة عندك، إن استغنيت بفضل الله عن الحاجة إلى الآخرين، فلم تعد كالمتسوِّل الذي ينظر بعجزٍ وتمنٍّ وحسرة إلى ما عند غيره.

امتثالك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [النساء: 32]، تحقيق لمستوى عالٍ من ضبطٍ لنفسك وسموٍ بها؛ يخلِّصك من مشاكل كثيرة وكبيرة منفتحة على عمل الشيطان، ويكفي لك أن تعلم أنه لم يرد في القرآن الكريم قط أن أهل الجنة يتمنَّون؟

ومن أهم أساسيات ضبط النفس المفروغ منها في الإسلام والتي تقودك كذلك إلى ضبطٍ أقصى لأيِّ شكل من أشكال التعبير، إن كان إيمائياً أو كلامياً؛ إذ هناك ارتباط وثيق وتفاعل بين التعبير وبين أعماق وخفايا نفسك، وأيَّ تعبير سلبي وإن لم تتخلص منه فإنه يؤثِّر فيك سلباً، ويبقَ بأعماقك كالقطران، وخاصة ما نبه له سبحانه صراحة في قوله:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 3]. فاللغو هو كل تعبير لا يتَّصف بالصحة أو الدقة، وكذلك ما لا حاجة له، وحتى ما لا داعي له مما هو مفروغ منه أو مما لا يقدم ولا يؤخِّر. وقد امتدح سبحانه الذين يعرضون عن اللغو بقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 1 – 3].

لذا؛ إياك واللغو، لأنه مذموماً في الإسلام، كذلك كل أشكال التعبير السلبية، من السوقي إلى الجارح، ويصل إلى النهي المحرم: كالافتراء والنميمة، أو الكذب والتضليل!

أي مسلم مسؤول عن أيّ كلمة يقولها، وعليه أن يعي ما يقول، حتى لو في المزاحة، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لاَ يُؤْمِنُ الْعَبْدُ الإِيمَانَ كُلَّهُ حَتَّى يَتْرُكَ الْكَذِبَ فِي الْمُزَاحَةِ، وَيَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا» [مسند أحمد].

إن يَسَّرَ الله لك وكنت قد سعيت في العمل على تزكّية نفسك وضبط أفعالها، عندئذٍ تأخذُ أركانُ الإسلام كلَّ معانيها، وعندها تجد أن الزكاة، هي تحويلُ نفسكِ من الهبوط تحت سلطان المادة إلى نبل التحرر منها، وتجدها مجرد أمانة أودعها سبحانه بين يديك لتحسن التصرُّف فيها، ولتعطي ذوي الحق حقه منها، وانت على يقين أنك لا تملك بالحقيقة منها شيئاً، إذ الملك لله.

كما تجد الصيام منهجاً كاملاً يضبط نفسك من غرائزها ورغباتها وخواطرها وتصرفاتها وما يصدر عنها من كلام أو تعبير، فتحلّق متسامية في تواصلها الروحي مع خالقها، وخاصةً في أوقات فلكية، ذات رموز عالية ضمن توافق مع حركة الكون، التي شاءها خالق الكون سبحانه.

كما تجد في الحج فرصة عظيمة لتطبيق تعاليم، ضبطِ النفس وإنكارِ الذات، وانفتاح وتعرُّف على إخوة لك من سائر بقاع الدنيا؛ إذ الحجيج كما تعلم سواسية، لا لباس لهم سوى قماش أشبه ما يكون بالكفن يذكرهم جميعاً بفناء مادتهم، فتُغسَل بذلك نفوسُهم من قبح تضاد الطبقيّة والفوقيّة العرقية أو القوميّة.

أما الصلاة، فهي محطات يومية مكثفة لتطوير ولرفع أرقى شكل من أشكال ضبطك لنفسك و فكرك، و هي تواصل مباشر مع خالق الكون! و ذلك من خلال كلام الذي ﴿...يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّ ...﴾ [الأنعام: 73] في كتابه المنزَّل، أو مِن الذي علَّمه لخاتم أنبيائه. كذلك تجد أن الشهادة ليست مجرد أساس للعقيدة بل اجتماعٌ لعلوم قوانين الحقيقة والخليقة!

وعلى العموم فإن تعاليم الإسلام تقودك إلى ضبط كل الحركات والأفعال والتصرفات إلى أقصى ما يكون بما يليق بكائنٍ راقٍ يباهي الله به ملائكته، فاتحة لك أبواب التواصل والانسجام مع الحقيقة المطلقة.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

تعاليم الإسلام تقودك بيسر وسهولة إلى أعلى مستوىً لضبط النفس وبهذه التعاليم

لا وجود عندك لأفكارٍ أو مشاعرَ رديئة أو سلبية بل تواصل وانسجام مع الحقيقة المطلقة

قد تسأل نفسك يوماً سؤال إلى أين يُوصِلُ كلٌ من القرآن والإسلام؟

والجواب الجوهري على هذا السؤال موجودٌ في القرآن ذاته بصراحة وجلاء:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

أي إن القرآن والإسلام هو منهج يقوم على السمو بعقلك ونفسك إلى النور الحق.

أي إيصالك عقلك إلى أقصى مستوى ممكن من الوعي في الرؤية والموقف والعمل، وأقصى ما يمكن من صفاء نفسك و رقيّها.

الهدف النهائي لذلك السمو هو أن تصل إلى المستوى اللائق بلقاءِ الله العزيز الحميد البر الرحيم في سلام ورضا السعادة الأبدية. ﴿...رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: 119]، ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: 58].

فلا إسلام حقاً إن لم تعمل بشكل متواصل للسمو بعقلك لأنه من أساسيات الإسلام، ومكانة الذين يفقهون و الذين يعقلون و الذين يتفكرون و الذين أوتوا العلم عالية في القرآن الكريم، وقد قال سبحانه لنبيّه الأكرم: ﴿...وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: 114].

لتسمو بعقلك عليك، أولاً، إنقاذه من الانزلاق في التيار الجارف للاهتمامات والمشاغل اليومية الدنيوية، مهما كانت ضرورية ومشروعة.

إذ إن تلك الاهتمامات والمشاغل تستأثر على عقلك وعلى مدى السنين، تحدُّه في دائرة تضيق بشكل متواصل.

فالعقل يتطور طالما أنه يكتشف ويهتم، وهو حال الطفولة والشباب. ويتراجع عندما يكتفي بما لديه من تكرار المشاغل اليومية الدنيوية والأخطر، في التكرار الآلي للعبادات، وهو حال الكهولة.

تراجع تألّق عقول الكهول حرمانٌ للأجيال الناشئة من الاستفادة بالشكل الأمثل من خبراتهم في الحياة. وبالتالي تراجعٌ عام في المستوى الفكري للمجتمع.

فلا بد لك إذاً من إنقاذ عقلك من خبل التكرار الآلي، وذلك بدعم دافع الاكتشاف والاهتمام عندك باتجاه رقي المستوى والتوازن بين الدنيوي والروحي؛ وهذا ما يحققه حسن تطبيقكَ

لتعاليم وشعائر الإسلام، وخاصة حسن تدبّر القرآن الكريم، الذي هو سلسلة من جُمَل شديدة التركيز، تفتح لك كل واحدة منها آفاقاً شاسعة في الاتساع والعمق. مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ... ﴾ [يونس: 101].

وكما أن حسن تدبّر القرآن الكريم ينتشل عقلك من استئثار الاهتمامات والمشاغل اليومية الدنيوية عليه، فإنه كذلك ينقذك من خبل انزواء التفرُّغ المزعوم للأمور الروحية، وذلك بإعادته إلى الواقع وإلى التوازن، فالواقع الذي تعيشه هو مدعاة تأمُّل وتفكُّر لك، والاحتكاك بالناس فرصة للاعتبار من أخطائهم بتواضعك أمامهم، وهذا يفتح لك باباً للارتقاء والاستفادة من خبرات ومحاسن أفاضلهم وأكابرهم.

من جهة أخرى، لكي تسمو بعقلك عليك أن تتخلص من أسر وإعاقة المعطيات البشرية المغلوطة والناقصة والمحدودة، واستبدالها بمعطيات إلهية من الحقيقة صحيحة وكاملة؛ لأن السمو بالعقل لا يكون بمجرد الأخذ بالعلم بتلك المعطيات الصحيحة، بل يتطلب منك توظيفها بالشكل الأمثل.

ولا يكون ذلك إلا بتحقيق مستوى عالٍ من الوعي، عندها تفتح أمامك آفاقاً لا نهائية من حُسن تدبّر القرآن الكريم، وعندها تجد أن العلم من أهم ما يريده سبحانه لك ولكل عاقل من خلقه، وأن مفهوم العلم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحد الأقصى من الوعي، ودليل ذلك هي قصة الذي أراه الله من عجائب صنعه حين أماته مئة عام ثم بعثه حيث قال: ﴿...أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: 259]. قوله ﴿...أَعۡلَمُ ...﴾ كما هو جليّ من سياق القصة، ليس مجرد أخذ بالعلم، بل تعبير عن وعي استثنائي.

العقل الإسلامي الحق لا يقوم على تكديس المعلومات، بل على وعيٍ وتدبّرٍ معانيها والارتقاء فيها بلا توقف إلى أقصى ما يمكن أن يكون؛ إذ ما فائدة أي علم تتعلمه إن اضمحلَّ أو غاب عن وعيك لسبب ما؟

وهنا نعود ثانية لما بدأنا به هذه الرسالة: إلى أين يوصل كلٌّ من القرآن والإسلام؟

والجواب: القرآن والإسلام دعوة متواصلة للازدياد من العلم، ولبلوغ وضوح تام في الرؤية ووعيٍ عالٍ للحقيقة.

وعي الحقيقة ووضوح الرؤية يفسر وجودك في هذا العالم ويعلمك أنك نفس بشرية، وأن

أي نفس بشرية انتماءها هو انتماء إلى عالم لا مادي، وأنَّ وجود هذه النفس على الأرض ما هو إلا عبور في عالم مادي لاختبار القناعات ولتجسيد الاستعدادات.

هذا العبور هو للتحول: من جهل إلى علم، ومن محدودية المحسوس إلى الآفاق اللانهائية التي تفتحها المجردات وكم في هذه المفاهيم من سمو بالعقل لكل الأنفس البشرية.

الإسلام والقرآن أبعد ما يكونان عن المادية؛ لأنهما يرفعان بشكل عام الإنسان بالاتجاه المعاكس، أي اتجاه التّسامي في المجردات، والتي هي بلا خلاف أعلى نمط من فكر يمكن الخوض فيه، وذروة ذلك السمو بالنفس البشرية، يكمن في تمحور حياتها حول المجردات المطلقة للمفهوم القرآني عن الذات الإلهية، وهو بذات الوقت يمثل ذروة ما يمكن للعقل بلوغه في المجردات، لأنه مهما خاض العقل في ذاك المفهوم وتقدّم، فإن التسبيحَ يذكره بأنّ ما بلغه منه كنسبة القطرة إلى البحر! وكأن عبارة «سبحان الله» تقول لسامعها أو ذاكرها: شتّان بين ما خطر على بالك ووصل إليه فكرك، وبين علوِّ وعظمة الله جل وعلا، ثم إن تابع الإنسان بنور التسبيح فإنه يتسامى للتعرُّف على خالقه وللتقرب منه بشكل متواصل في مجردات موضوعها العليّ الأعلى سبحانه خالق الكون و نواميسه! وكم في ذلك من سمو للعقل.

ولا يقف الأمر عند ذلك السمو فحسب، بل يستمر في سائر خصائص القرآن وشعائر الإسلام، الحقّ التي أوحاها سبحانه لخاتم النبيين لما فيها من سمو للنفس والعقل؛ وذلك لابتعادها في تجردها المطلق عن العاميّة الدنيوية و السطحية.

وأخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

القرآن والإسلام يوصلك إلى أقصى ما يمكن من سموّ لعقلك وصفاء لنفسك ورقيّها

الهدف النهائي لذلك السمو هو أن تصل إلى المستوى اللائق بلقاءِ الله العزيز الحميد البر الرحيم في سلام و رضا السعادة الأبدية. ﴿...رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

[المائدة: 119].



لعلك تسأل: لماذا لم يُجمَع القرآن الكريم بين دفتين في حياة نبينا عليه الصلاة والسلام؟ والجواب لسبب وجيه وبسيط إذ كيف يُجمع بين دفتين والوحي لا يزال مستمراً ولم ينتهِ بعد؟ علماً أن آخر آية نزلت قبل وفاة نبينا ببضعة أيام.

ولكن عندما تُوُفي عليه الصلاة والسلام توقف الوحي عند نبي آخر الزمان الذي قال: «إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي» [صحيح البخاري] وزال ما يمنع جمع القرآن.

عندها قام أقرب الناس إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام، صدّيقه وخليله وخليفته أبو بكر الصديق بجمع القرآن الكريم.

فوكَّل بذلك أحد كتبة الوحي وأحد أكثر الصحابة ملازمةً لنبينا عليه الصلاة والسلام في سنواته الأخيرة كاتبه: سيدنا زيد بن ثابت، المشهور بذكائه الاستثنائي والذي حضر العرضة الأخيرة مع سيدنا جبريل عليه السلام، والذي كان حفظ القرآن كاملاً في حياة خاتم المرسلين.

أتمّ سيدنا زيد المهمة على أكمل وجه في خلافة سيدنا أبي بكر؛ إذ لم يكن يدوِّن آية ـ وهو أعلم بها ـ إلا بحضور من سمعها من النبي صلى الله عليه وسلم، وحتى يشهَدَ عليها شاهدان بأنهما سمعاها من النبي شخصياً.

توفي الصدّيق رضي الله عنه بعد أقل من سنتين ونصف السنة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وبقي المصحف الكامل عشر سنين بالحرز والأمان التام عند خير من يبقى عنده: أقربِ المقربين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من بعد سيدنا أبي بكر: سيدنا عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء؛ وهو الذي أشار على أبي بكر الصدّيق جمع القرآن بين دفتين. ثم بعد وفاة سيدنا عمر انتقل إلى السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب زوجة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم في عهد سيدنا عثمان بن عفان طلب المصحف الكامل الأول من أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها لإحداث خمس نسخ تطابق تماماً النسخة الأولى، حيث وكل بهذه المهمة من جديد زيد بن ثابت الذي قام بنسخها بيده! وبإشراف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

سيدنا زيد بن ثابت هو الذي قام بكتابة النسخة الأولى التي كانت عند حفصة رضي الله عنها، ثم تابع بكتابة النسخ الأربع بيده، علماً أنه هو وسيدنا أبو بكر وسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنهم كلهم من حفظة الكتاب الكريم.

بذلك تمّ تدوين القرآن بكامله، بين دفَّتين، بالشكل الأمثل وبالسرعة القصوى مباشرة بعد وفاة نبينا عليه الصلاة والسلام، وبحضور جمهور من صحابته، وبإشراف أقرب المقرَّبين إليه.

كذلك لم يجمع القرآن الكريم في حياة نبينا عليه الصلاة والسلام؛ لأن من السمات الأساسية

له هو التوازن بين كلماته وحروفه في كل لحظة من لحظات تنزيله، ولأن القرآن الكريم هو ذاته جزءاً من التوازن الكوني، كان لا بدّ إذاً، من توازن كلماته وحروفه حتى تثبت على شكلها النهائي؛ لذا فقد كانت آيات منه تتغير أماكنها أو تُنسخ للحفاظ على توازنه، إلى أن اكتمل.

وهذا الشكل النهائي بدأ عندما كان ملك الوحي جبريل عليه السلام يراجع كامل ما نزل سنوياً في شهر رمضان مع الرسول الأكرم. وفي العام الأخير من التنزيل راجع سيدنا جبريل عليه السلام القرآن مع خاتم النبيين مرتين.

وبذلك؛ فإن النص القرآني مضبوطٌ أتمّ الضبط بحياة محمد رسول الله، وبشهود الألوف التي حضرت وسمعت ورأت، كذلك كان القرآن كله مكتوباً في حياته عليه الصلاة والسلام دون أن يجمع فقد كان يملي على كتبة الوَحي كل ما كان يُنزّلُ عليه من آيات كريمة في الحال.

ثم عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم، يراجع القرآن بحضور الروح الأمين كان وبتوجيه منه عليه السلام، يملي على نبينا موضع السورة من بين السور، وموضع الآية من السورة وحتى اسم السورة ورسم كلمات القرآن.

ولا تعرف البشرية حالة مماثلة فيما يتعلق بتدوين وحفظ كتاب منزَّل، مثل القرآن الكريم الذي بقي مكتوباً بالرسم العثماني بل وحافظ على ذاك الرسم العتيق، تماماً كما كانت عليه في المصاحف التي أمر سيدنا عثمان بن عفان بنسخها؛ لذا درج تسمية ذلك الرسم بالرسم العثماني، نسبة إليه.

وأهم ما تميز به القرآن الكريم عن كل ما سبقه من كتب سماوية هو أن الله تكفل بحفظه جملة وتفصيلاً، حيث أخبر سبحانه مطمئناً البشرية كلها بحفظ هذا الكتاب الكريم قائلاً:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: 17]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وأخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

القرآن الكريم لم يُجمَع بين دفتين في حياة نبينا عليه الصلاة والسلام؟

والجواب لسبب وجيه و بسيط إذ كيف يُجمع بين دفتين والوحي لا يزال مستمراً و لم ينتهِ بعد؟ علماً أن آخر آية نزلت قبل وفاة نبينا ببضعة أيام.

هناك تصورات غير صحيحة ولا تتسم بالدقة، إن لم تقف عندها تفهماً ووعياً، فإنها تعرقل سعيك لتدبر القرآن الكريم، لذا عليك التخلص منها وقد أوجزتها لك بثلاث نقاط هي:

1 - الالتباس بين العرب والأعراب.

2 - التصورات الباطلة والمشوهة عن العرب.

3 - تصحيح صورة الصحابة رضوان الله عليهم.

1 - ينبغي عليك التخلص من الالتباس بين العرب والأعراب؛ لأن العرب ليسوا الأعراب، وشتّان بينهما.

الأعراب ذُكِروا في القرآن الكريم، ولكنهم ليسوا عرباً! وإياك أن تخلط بينهما، وتظنّ أنّ الأعرابي هو العربي النموذجي الأصيل!

لا أصول مشتركة تجمع العرب مع الأعراب، إذ إنّ أصل قريش وأمثالهم من العرب، يعود إلى إسماعيل الابن البِكْر لإبراهيم عليه السلام؛ أي: إن أصلهم يعود إلى أعظم حضارتين في العالم: حضارة بلاد الرافدين موطن إبراهيم عليه السلام، وحضارة مصر موطن زوجه هاجر، هذا أصل قريش وأمثالهم من العرب.

أما الأعراب فهم أهل صحراء رُحَّل وهم ـ كما يستدل من القرآن والحديث ـ عرقٌ آخر لا أصول مشتركة تجمعهم بالعرب.

فقد ميَّز عليه الصلاة والسلام بوضوح وبصريح العبارة، ما بين عرب الحضر والبادية من جهة وبين الأعراب من جهة أخرى. فقد قال عليه الصلاة والسلام للسيدة عائشة موضحاً: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِالأَعْرَابِ هُمْ أَهْلُ بَادِيَتِنَا وَنَحْنُ أَهْلُ حَاضِرَتِهِمْ وَإِذَا دُعُوا أَجَابُوا فَلَيْسُوا الأَعْرَابِ» [مسند أحمد]، وهذا الحديث الشريف يجعلنا نفهم بجلاء المقصود من عبارة «الأعراب» في القرآن الكريم، فهي ليست مرادفاً لعبارة «البدو»؛ بل تعني مجموعةً بشرية تجمعها أصول مشتركة، كما هو الحال بالنسبة لعبارة «الروم» مثلاً. إضافةً إلى ذلك فإن الأعراب موضع ذم شديد في القرآن الكريم، وخاصةً في سورة التوبة التي هي من آخر ما نزل منه؛ حيث قال سبحانه وتعالى فيها: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧].

لذا فإن قريشاً وأمثالها من العرب من نسل إسماعيل بن إبراهيم معظمهم عرب عصر الصحابة وهم الذين تركوا شبه الجزيرة العربية فيما بعد واستقروا في البلاد التي فتحوها ليؤسسوا إحدى أعظم الحضارات التي عرفتها البشرية، أما الأعراب فقد بقي معظمهم في شبه الجزيرة العربية وعلى أطراف الدول المتاخمة لها، والعرب لا علاقة لهم بالأعراب أبداً.

2 – كذلك ينبغي عليك التخلص من التصورات الباطلة والمشوهة عن العرب بحد ذاتهم، والتي لا تتسم بالدقة؛ لأنها تعرقل سعيك لتدبر القرآن الكريم؛ خاصة أن منهم نبينا عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام.

هذه التصورات بمثابة الآفة التي تنتشر باطناً وبصَمْت فتفسد وتبَخِّس وتشلُّ عقلك، وتبعدك عن مقاصد كثيرة في القرآن الكريم ولا يمكن لك التخلص منها إلا بالعودة بشكل دقيق وموضوعي إلى حقيقة العرب.

عليك أن تمسح من ذاكرتك كل ما تعرفه عن العربي النموذجي على أنه بدوي بدائي لا يعرف من الدنيا إلا البادية. وكذلك تلك الصورة التي رسخها الفقهاء والأئمة والوعّاظ، عندما استرسلوا في المبالغة في تقشف وزهد الصحابة والتابعين، وذلك لمحاربة الإسراف والترف والبطر المستشري بين الحكام والناس خاصة في العصر العباسي الطويل وأنفاسه التي تسلل الكثير منها وبشكل خفيّ إلى أمهات الكتب المعتمدة حالياً والمتداولة عن الإسلام، هذا كله أثَّر، ولا يزال يؤثِّر سلبياً في التعرف الحقيقي عن الصحابة الكرام والعرب الفاتحين وأصل الحضارة الإسلامية.

3 – كذلك ينبغي عليك تصحيح صورة الصحابة رضوان الله عليهم، والأهم إعادة النظر عن التصورات الشائعة لعصر النبي صلى الله عليه وسلم، والتي تصور نبينا وصحابته على أنهم بداوى تحت خيام مع جمال وأغنام، وهذا من أكثر الأخطاء الشائعة التي عليك التخلص منها؛ لأنها لا تَمُتُّ إلى الحقيقة بأي صلة أبداً، فالعرب عموماً ليسوا بدواً، بل أهل حَضَر؛ أي: أهل مدن مثل مكة أو يثرب أو الطائف أو سبأ ومدائن صالح في الماضي.

ويتضح الأمر إليك أكثر إن قارنت بين مكة ويثرب والطائف ودورها في التجارة الدولية، وبين مدن ألمانيا وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا الهزيلة، والمتخلفة آنذاك في نهاية القرن السادس الميلادي.

إضافة إلى ذلك فقد وُلد نبينا عليه الصلاة والسلام في مدينة مكة المكرمة، المكان الذي استقرَّ فيه ليؤسس الدولة الإسلامية، ومكة هي مدينة عامرة ولم تكن مضرب خيام حيث كانت مركز تجارة وتقصد للحج حتى قبل الإسلام.

كذلك يثرب مدينة أخوال والدة نبينا، عندما هاجر إليها عليه الصلاة والسلام لم يسكن في خيمة؛ بل في بناء مؤلف من طابقين عند الصحابي أبي أيوب الأنصاري، حتى عندما استقر بها تبدل اسمها من يثرب ليصير: المدينة.

ثم وبمجرد وصوله إلى المدينة خطط النبي صلى الله عليه وسلم لبناء مسجده، وشرع ببنائه تماماً كما خطط له، وهذا المخطط الذي وضعه نبينا هو الأساس لكثير من روائع العمارة لمساجد العالم الإسلامي المهمة ومثالها الأموي، ثم كان من بعده صحابته الكرام الذين خططوا مدناً مثل الكوفة والقيروان والفسطاط وغيرها.

لم يكن عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام، بدواً لم يروا شيئاً من الدنيا إلا وقت الفتوحات؛ بل كانوا على احتكاك بأرقى بقاع المعمورة آنذاك في الشام، وهو أمرٌ عاديٌّ في تجارتهم الدولية في رحلة الشتاء والصيف وكانوا عنصراً أساسياً في نقل بضائع الصين والهند، وخاصة حصى البان من مسقط وعمان إلى الإمبراطورية البيزنطية في الشام ومصر. وفي رحلتهم تلك كانوا يرون روائع العمارة المدنية في فيلادلفيا وجرش وبصرى الشام ودمشق وبعلبك وأفاميا والرصافة وأنطاكية وغيرها، من مدن عامرة وبكامل بهائها، قبل الزلزال الأكبر وقبل أن تعمل فيها القرون، وكان عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام على دراية واهتمام بالأحداث الدولية حال حدوثها، كما يستدل على ذلك من سورة الروم.

ولتعرف المستوى الثقافي للعرب الذين كان منهم نبينا وأصحابه، يكفي بأن تقوم بوضع فهرس لمواضيع القرآن الكريم والحديث، لتجد أن ثقافة أيَّ صحابي كانت تفوق بشموليتها ثقافة أي إنسان معاصر له.

كذلك أي مستوى معيشي ومدني لهؤلاء القوم الذين كان الزجاج مألوفاً لديهم وكانوا يستعملون أواني الذهب والفضة، ويلبسون الحرير والأقمشة المصبوغة بالزعفران، و يتطيّبون بالمسك، والدليل على كل ذلك أنه عليه الصلاة والسلام حرّم الحرير على الرجال وأباحه للنساء، كما أنه حرم على صحابته الكرام استخدام أواني الذهب والفضة، وكذلك

حرم ارتداء القماش المصبوغ بالزعفران أثناء تأدية شعائر الحج، ولو لم تكن تلك السلع منتشرة ومألوفة لديهم لَما حرمها عليه الصلاة والسلام.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

من أكثر وأهم الأخطاء الشائعة الواجب عليك التخلص منها والتي تعرقل سعيك لتدبر القرآن الكريم. ذاك التصور عن نبينا وصحابته على أنهم بداوى يعيشون تحت خيام مع جمال وأغنام، وأن العربي النموذجي ليس إلا بدوي بدائي لا يعرف من الدنيا إلا البادية، عليك أن تمسح من ذاكرتك ذاك الالتباس.



لا بد لي من البحث معك في نقطة هامة من حياة نبينا وهي حقيقة أميته عليه الصلاة والسلام؛ لأنها أشكلت على الكثير من العلماء الذين حصروا مفهوم كلمة «الأمية» ضمن مجال الفهم الشائع للكلمة أي: انعدام الأهلية للقراءة والكتابة.

إن تتبعت حياة نبينا عليه الصلاة والسلام منذ اللحظة الأولى لتنزيل القرآن الكريم، تلاحظ أن سيدنا جبريل عليه السلام عندما ظهر آمراً النبي الأكرم بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ ...﴾ [العلق: 1] ثلاثاً، لم يقدم له لوحاً أو صحيفة ليقرأ منها، خاصة أنه ضمّه ضماً شديداً! إذاً ليست المسألة مسألة قراءة بالمفهوم الشائع، ثم إن نظرت إلى كلمة الأميين من قوله تعالى من سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾ [الجمعة: 2] عليك أن تلاحظ أن قريش والعرب عموماً تقرأ و تكتب، وكانت نسبة القادرين على القراءة والكتابة إلى نسبة العاجزين عن ذلك، كنسبة أي شعب متحضر في ذاك الزمان. لو لم تكن منهم نسبة لا يُستهان بها يعلمون القراءة والكتابة، لَما كَرَّموا شعراءهم بتعليق قصائدهم على الكعبة المشرفة، ولَما علَّقوا قرار مقاطعة المسلمين ثانية فيها، ولَما كتبوا اتفاقيتهم مع المسلمين في صلح الحديبية.

لقد كان الصحابة الكرام يكتبون ما ينزل من الوحي قبل الهجرة، ولا أدل على ذلك من حادثة إسلام سيدنا عمر الشهيرة، عندما علم أن أخته أسلمت هي وزوجها، وكيف ذهب غاضباً لبيتها ليجدها وزوجها وخباب بن الأرتّ يتذاكران سورة طه من صحائف عندهما، فأخذها سيدنا عمر وقرأ منها مقطعاً طويلاً فأسلم.

فالقراءة والكتابة إذاً، بالنسبة للأربعة الحاضرين في تلك الحادثة أمر معتاد. كذا الأمر بالنسبة لمشاهير الصحابة.

عندما أَسَرَ المسلمون كفاراً من مكة فور انتصار بدر، رَهَن رسول الرحمة سراح كل واحد منهم بتعليم القراءة والكتابة لعشرة صبية من مسلمي المدينة، لقد كان الصحابة الكرام قادرين على ذلك، ولم يكن الأمر إلا رحمة فائقة منه عليه الصلاة والسلام، لفتح مجالِ تعارفِ وتواصلِ الكفار مع المسلمين.

هذه الأمثلة وغيرها تدلّك على أن القراءة والكتابة كانتا شائعتين في قوم نبينا عليه الصلاة والسلام.

بناءً على ذلك، فإن المقصد من قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾ [الجمعة: 2]، لا يتعلق بمسألة جهل الرسول عليه الصلاة والسلام وقومه القراءة والكتابة بالمفهوم الشائع للكلمتين؛ بل إن المفهوم القرآني لتلك الكلمة موَضَّحاً بجلاء في النص القرآني ذاته، وذلك في قوله تعالى من آل عمران:

﴿...وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ...﴾ [آل عمران: 20]، وهو تمييزٌ لهذه الكلمة بين فئتين مختلفتين جذرياً:

﴿...لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ من جهةٍ، ﴿وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ...﴾ من جهةٍ أخرى،

﴿...لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ كاليهود والنصارى وهم أهل كتاب،

ومن جهةٍ أخرى بضرورة استواء المعنى الذين لم يؤتوا الكتاب أي:

﴿...وَٱلْأُمِّيِّۦنَ...﴾ أي: سائر الأمم التي تجهل كتب الله المنزلة كالوثنين الذين يعبدون الأصنام.

بذلك يكون قوله تعالى من الآية الكريمة: ﴿...وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ..﴾ [آل عمران: 20]، أمراً إلهياً إلى خاتم النبيين يتعلق بإسلام الذين أوتوا الكتاب والذين لم يؤتوه، أي عملياً إلى البشرية جمعاء.

وإن تتبعت كلمة ﴿وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ من سورة الأعراف تجد أننا لم نخرج عن الموضوع أبداً:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ...﴾ [الأعراف: 158] .

كذلك إن تتبعت كلمة ﴿ٱلْأُمِّيِّۦنَ...﴾، من سورة الجمعة:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الجمعة : 2 - 3] .يصبح لديك الأمر جلياً واضحاً أنه سبحانه بعث في الذين لم يؤتوا كتباً مُنَزَّلة، أمثال قريش أو غيرهم من باقي البشرية وإلى آخر الزمان، رسولاً منهم؛ أي إنه مثلهم لم يكن يعلم حقيقة الكتب المنزلة وما فيها، وطالما أنَّ رسالة القرآن والإسلام آخر رسالة إلهية، فهي بذلك وبضرورة العدالة الإلهية للبشرية جمعاء:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف: 158].

وكما تعلم فإن سواد البشرية لا يعلم حقيقة الكتب المنزلة و ما فيها، بذلك فإن الرسول الأكرم ومن أسلم من معاصريه ومن لحقوا بهم، بمثابة الذين يسروا الأمر على البشرية.؛ إذ كانوا مثالاً واقعياً و عملياً يُحتذى، عندما بينوا إمكانية تحقيق نقلة نوعية ونهائية من الضلال أو الوثنية أو الشرك أو الإلحاد إلى دين خالق السموات و الأرض، وكانوا مثالاً لسمو وكمال رسالة القرآن والإسلام، التي تتجاوز جميع الرسالات السابقة وتحويها، وتقبّلوا الرسالة الإلهية من غير جدل عقيم؛ لأنهم كانوا صفحة بيضاء، وأبعد ما يكونون عن الذين أوتوا الكتاب بمواقفهم المسبقة وآرائهم الجاهزة المبنية على ما تداولونه من التوراة و الإنجيل، والتي كانت تعرقل عليهم فهْمَ تلك الرسالة خاصة أن بعض من الذين أوتوا الكتاب وصل بهم الأمر إلى بذل جهدهم الأقصى لتخريب رسالة سيدنا عيسى عليه السلام؛ كما قال سبحانه:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ [الشورى: 14].

أما الذين أسلموا ممن لم يؤتوا الكتاب فقد كانوا أبرياء من تلك الآراء والمواقف، وكانوا بمثابة الصفحة البيضاء النقية، يتلقون القرآن والإسلام بثقة وصفاء لينقلوه إلى غيرهم بأمانة وحياد.

كذلك جعلِ الله سبحانه ختمَ رسالته في رسول من الأميين؛ لأنه لو كان عليه الصلاة والسلام قبل بعثته على علم بالكتب المنزلة، لَما أبِه به الذين لم يؤتَوا الكتاب ولَما اهتموا بما ينزل عليه، ولاعتبروا دينه وكتابه إضافةً أو تقليداً لِما لم يهتموا به أصلاً من دين أهل الكتاب! ومن جهة أخرى، لو كان عليه الصلاة والسلام قبل بعثته على علم بالكتب المنزلة إلى درجة تلاوة مختارات منها، والقدرة على نسخ نصوصها بدقة، لَشَقَّ الأمرُ كثيراً على الصادقين من أهل الكتاب تقَبُّلَ القرآنِ كوَحْيٍ من الله واعتباره بدعة من مفترٍ.

عدم علمه عليه الصلاة والسلام بالكتب المنزلة قبل بعثته، رحمة من الله يسَّرت عليهم الأمر كثيراً باستبعاد إمكانية الشبهة، وما يتأتّى عنها من إعراض فإدبار فحرمان، ووفَّرت عليهم حرج ومشقة مواجهة بلبلة ارتياب المبطلين منهم ومن غيرهم:

﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: 48].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

معرفتك لحقيقة المفهوم القرآني لأميّة نبينا عليه الصلاة والسلام وللأميّين بشكل عام، يحرر فهمَك للكلمة من ضيقِ حصرِها ضمن نطاق قراءته وكتابته عليه الصلاة والسلام قبل بعثته أو بعدها ويوصلك إلى معرفة عظمة المغزى والعبرة من قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ...﴾ [الجمعة : 2]



اللغة العربية لم تُنسَب إلى العرب، بل العرب نُسِبوا إليها وهي حالة خاصة، لا تنطبق عليها اعتبارات اللغات الأخرى، لأنها بالنسبة لعلماء اللسانيات، حالة فريدة بين لغات البشرية؛ إذ إنها منذ البداية تتميز بثبات و كمال نحوها وصرفها و قواعدها. هذا الكمال يغنيها عن التطور خلافاً لباقي لغات العالم، التي لها أشكال قديمة تتغيّر حسب احتكاك الشعوب بعضها مع بعض.

وكما تعلم يستطيع أي عربي قراءة وفهم معظم آيات القرآن، والتي تعود إلى القرن السابع الميلادي، من غير صعوبة تذكر، اللغة المستخدمة آنذاك في نحوها وصرفها وقواعدها ومفرداتها نفسها المستخدمة أيامنا هذه.

كذلك إن بحثت فلن تجد مثالاً للغة حية رسمية يستطيع طفل من أبنائها أن يفهم نصاً فيها يرجع إلى أربعة عشر قرناً.

اللاتينية مثلاً أم لغات أوروبية كثيرة، كذلك اللغة العربية هي أم لغات الكلدانيين والبابليين والآكاديين والآراميين والكنعانيين، وهم أقوام هاجروا موجات نحو الشمال نتيجة لتصحر الجزيرة العربية موطنهم الأصلي، وهذا ما أجمع عليه الباحثون الأكاديميون المعاصرون.

يمكن اعتبار اللغة العربية أصل لغات تلك الشعوب القديمة؛ إذ إنها تجمع وبالشكل الأكمل والأمثل الخصائص المميزة لتلك اللغات، على رأس تلك الخصائص: أن تلك اللغات صاحبة السبق بالأبجدية على سائر لغات العالم.

والآن إن تجردت عن المواقف المسبقة والآراء الجاهزة، ونظرت إلى الأمور كما هي، فسوف تجد أن اللغة العربية قائمة على الأبجدية؛ إذ إن جذور كلماتها مضبوطة بها، كذا الحال بالنسبة لاشتقاقاتها وللخصائص النطقيّة لحروفها.

هذا لوحده يوصلك إلى نتيجة منطقية حتمية:

هي أن اللغة العربية، وطالما أنها قائمة ومبْنِيَّة على الأبجدية، فإنها لاحقة لها؛ ومنها تستنتج أنها ليست لغة أوجدتها وطورتها مجموعة بشرية.

وإن أنت أخذت بعين الاعتبار كامل الخصائص الهندسية والرقمية المجردة لتلك الأبجدية وتلك اللغة فسوف تجد أنك عندئذٍ مضطر للإقرار أنها لغة إلهية، وأن كلماتها ليست كلمات

اصطلح عليها البشر، لأنها مضبوطة بالفكرة المجردة التي يحملها كل حرف من أبجديتها، وبمكان ذلك الحرف من الجذر؛ فالحرف عندما يكون أول الجذر أو المصدر فإنه يكون بقوة فكرته القصوى، ثم يأتي بعد ذلك وبالدرجة الثانية من حيث القوة، مكانُه آخر الجذر أو المصدر، وعندما يكون في الوسط فإنه يكون خاضعاً لتأثير فكرة كِلا حرفي البداية والنهاية.

وكذلك ستجد أنها مضبوطة بقوانين رقمية هندسية تظهر بجلاء، عند مقارنة حروف كلمة بحروف كلمة أخرى ذات معنى معاكس، مثل طول وعرض، أو صدق وكذب، أو شرق وغرب، وذلك من خلال توزيع حروف الأبجدية على دائرة يُضبط ترتيبها هندسياً.

هذا بغضِّ النظر عن الآفاق الشاسعة التي تفتحها لك القيم العددية لحروف كلمات القرآن، والتي تضمن صحتَها وعلو مقامها حروفُ فواتح السور، ولا سبيل لانفتاح تلك الآفاق إلا بمعرفة أن القيم العددية لحروف كلمة واحدة لا تقف عند أربع قيم، بل تتجاوزها إلى ألوف من القيم المختلفة جذرياً للكلمة الواحدة.

وعند معرفتك لمعاني رموز تلك القيم، وامتثلت لأمره سبحانه: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: 19]، تَفتح لك إن أذن لك الرحمن جل جلاله علومَ «لا إله إلا الله» وما أودعه سبحانه من علوم في كتابه الكريم، ويتبين عندئذٍ ـ إن أُذِن لك ـ أن كل حرف من القرآن الكريم مضبوط ضبطاً لا يقدر عليه مخلوق، وأن النص القرآني الشريف لا تحكم لغته قواعد النحو التي تضبط كلام البشر، لأنه يسمو في آياته فوقها.

ويتضح جلياً أمامك أن رسم النص القرآني الشريف لا تحكمه كتابة قريش ولا غيرها؛ بل يسمو فوقها ليوافق ما أودعه سبحانه من علم في كتابه، وإلا فما مبرر أو تفسير رسم قوله تعالى «آتانيَ» ﴿...ءَاتَىٰنِيَ ...٣٠﴾ في سورة مريم، ورسم الكلمة ذاتها ﴿...ءَاتَىٰنِۦَ ...٣٦﴾ في النمل؟

وما مبرر أو تفسير الرسم العجيب لقوله تعالى من سورة النمل أيضاً: ﴿...لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ ..٢١﴾؟

ويتبين لك بوضوح تام، أنه لا توجد لغة من لغات البشر تجمع الخصائص المناسبة لنقْلِ ولو جانب من تلك العلوم. وأن اللسان الذي نزل به القرآن هو الوحيد القادر على ذلك لأنه مُعَدٌّ أصلاً ليُبَيِّن من غير التباس أنه: ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 103].

عدم معرفتك لحقيقة اللغة العربية، والتي ذكرت لك جانباً منها يوصلك إلى ذلك الوهم الخاطئ والشائع:

أن اللغة العربية، كباقي اللغات، مصطلحاتٌ متفقٌ عليها بين مجموعة بشرية أوجدتها وطورتها، فيصير الأمر في اعتقادك كما هو اعتقاد الجميع ـ وإن لم يعترفوا به ـ، وكأنه سبحانه كان لا بد له أن ينزِّل القرآن بلغة يفهمها نبيُّه المصطفى وقومُه، فاستخدم لغتهم أي اللغة العربية!

إن اعتمدت هذا الوهم الخاطئ، فإنك وبالضرورة ستصل إلى استنباطات غير صحيحة هي في الواقع مغالطات صارخة، منها:

– أنه سبحانه ـ وحاشى له ـ تكيَّف مع الواقع، واستخدم ما أوجده الآخرون فكانت النتيجة غاية في التوفيق (!)؛ بل والأكثر من ذلك: تحدِّياً لهم في لغتهم الرائعة.

– وأنه وهو سبحانه الذي ﴿...يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ...﴾ [الأنعام: 73]. أخضعَ، وحاشى له، كلامَه لقواعد و نحو لغة العرب.

– وأنه ـ وحاشى له ـ حدَّ صياغة كتابه الأخير للعالمين بحدود ما يفهمه أولئك القوم!

وهذا من أكبر الأخطاء؟.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

اللغة العربية لم تُنسَب إلى العرب، بل العرب نُسِبوا لها وهي ليست مصطلحاتٌ متفقٌ عليها بين مجموعة بشرية أوجدتها و طورتها، وإنما هي لغة إلهية مُعَدة أصلاً لتحمل اللسان الذي نزل به القرآن والذي هو: ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 103]



الأرقام والأعداد جليَّة في الإسلام الحق، لحضورها في أساسيات تجليات الإرادة الإلهية، وعلم الأعداد في الحقيقة هو من أعظم العلوم وأعلاها.

وهو ليس مجرد علم اختصاصي من بين العلوم بل هو علم على غاية الأهمية ذلك لأن رب العالمين وبعظمته سبحانه، قال وبصريح العبارة: ﴿... وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: 28]؟

كيف ما نظرت في عالم الخليقة تجد العدد هو الضابط للخليقة برمتها والأمثلة لا تحصى في هذا المجال أذكر لك منها مثلاً:

ذرتا الهدروجين والهليوم مختلفتان اختلافاً كبيراً في خصائصهما الفيزيائية والكيميائية، الفارق بينهما ليس سوى أعداد شاءها سبحانه.

كذلك الفارق بين مورثات بشر ومورثات أي كائن آخر، ليست سوى أعداد فالحموض الأمينية الداخلة في تلك المورثات نفسها في عالم الكائنات الحية، وهي أربعة بلا زيادة ولا نقصان، تجتمع ضمن صيغ متنوعة، وبالتالي ما هي إلا أعداد شاءها الخالق جل وعلا.

الله جل جلاله هو القادر المقتدر الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، لِمَ أدخل العدد في خلق السموات والأرض وهو القادر على أن يخلق السموات والأرض بأسرع من لمح البصر، فَلِمَ جعل الأمر على ستة أيام إلا لحكمةٍ بالغة ولمدلول عظيم وقال:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ...﴾ [يونس: 3]. وقال مفصلاً ومؤكداً على العدد:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 9-12].

لا يمكن لك أبداً تجاهل الأهمية العظيمة للأعداد في الحقيقة وفي الخليقة وفي القرآن وفي الإسلام لشدة جلائها ووضوحها.

القرآن الكريم فيه من الضوابط الرقمية المعبِّرة ما لا يمكن إحصاءه، والأمثلة على ذلك كثيرة من أهمها:

* دين الإسلام مبنيٌّ على خمسة أركان، أي زوايا، أي مضلع خماسي الأركان، أي خير ما يمثل النسبة الذهبية.

* شهادة (لا إله إلا الله) بنيان رقمي شامخ أول ما فيه التوحيد.

* الصلاة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعدد وهو الذي يضبطها ويظهر ما أودع سبحانه فيها من أسرار مما يفوق التصور، ولا يمكن لك بأي حال أن تزيد أو تنقص في عدد الركعات المفروضة، حتى إن سهوت في صلاتك ونسيت بأي ركعة أنت، هل تستطيع اعتبار الأمر من غير أهمية وتتابع صلاتك كيفما اتفق؟ أم ينبغي عليك الاجتهاد غاية الاجتهاد لتتم عدد الركعات المفروضة؟ وإن زيدت أو أنقصت في ركعات الصلاة المكتوبة وفعلت ذلك عامداً غير ساهي فصلاتك غير صحيحة بالإجماع.

وإن تابعت أمر العدد في الصلاة تجد مثلاً أن: ما يميِّز الصلوات المفروضة بعضها عن بعض أنها مجموعتان:

سرية وجهريَّة؛ اثنتان سريتان، الظهر والعصر، تُصَلّى والشمس فوق الأفق؛ وثلاثة جهرية تُصَلّى والشمس تحت الأفق $2+3=5$.

8 ركعات للظهر والعصر و 9 ركعات للمغرب و العشاء و الفجر.

$8 + 9 = 17 = 2^3 + 3^2$.

أي: إن عدد ركع الصلوات السرية المفروضة هو عدد الفروض السرية 2 مرفوعاً إلى عدد الفروض الجهرية 3.

وعدد ركع الصلوات الجهرية المفروضة هو عدد الفروض الجهرية 3 مرفوعاً إلى عدد الفروض السرية 2.

$8 + 9 = 2^3 + 3^2$

لو أن أمر العدد وقف عند تلك المتوافقات، لما استحق منك تلك الأهمية البالغة.

ولكنه لا يقف عند هذا الحد، بل ينفتح على علم حقيقي جليل، تدرك إن تقدمت في فهمه مدى عظمة الصلاة ومعاني ضوابطها العددية والهندسية. وتفهم أيضاً معنى فرض الظهر،

وتفهم إلى حدٍّ بعيد. لِمَ كان أول فرض صلّاه كان سيدنا جبريل عليه السلام إماماً بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو الظهر.

كذلك يصبح جلياً لك صحة كلام النذير عليه الصلاة والسلام من هول إثم عدم صلاة فرض العصر بالذات في وقته إن كنت قادراً عليه[1]. وترى من خلال الأعداد بوضوح ما أودعه سبحانه في القرآن الكريم خاصةً وفي شهادة لا إله الله محمد رسول الله، وفي الصلاة و في باقي أركان الإسلام من الزكاة والصوم والحج، من متوافقات رقمية وعددية بحيث لا يستطيع خيال البشر مجتمعين تصوره أو الإحاطة به.

الإسلام دين الله رب العالمين ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19] وهو الذي شاء سبحانه أن تكون الأعداد في الحقيقة وفي دينه وفي كتابه المنزل، وهذا دليل وضمان صحة وعلو قدر الأرقام والأعداد.

كل ما هو حقيقي، فهو مما شاءه الله؛ وخاصةً في مجال العدد، ولا يمكن لك أبداً إنكار أو تجاهل أو حتى إهمال ما هو حقيقي مما شاءه الله؟.

العدد من صميم القرآن والإسلام لما فيه من ضبطٍ للأمور وهو دليل أن علم الأعداد في الحقيقة ليس مجرد علم اختصاصي من بين العلوم، بل هو من أعظم العلوم وأعلاها.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

علم الأعداد في الحقيقة هو من أعظم العلوم وأعلاها

وهو ليس مجرد علم اختصاصي من بين العلوم بل هو علم على غاية من الأهمية لأنه الضابط للخليقة برمته، ودليله أن الله وبعظمته سبحانه قال:

﴿...وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: 28]؟



(1) عَنْ عبد اللهِ بْنِ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهما؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاَةُ العَصْرِ، كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ». [صحيح البخاري].

عليَّ أن أُسدي لك نصحاً ينفعك الله به:

في سَيْرك باتجاه القرآن الكريم: ستجد بالضرورة أنك أمام كمٍّ هائل من المصادر والمراجع المتعلقة بكلامه سبحانه، والتي لا يمكن لك أبداً تجاهلها أو الاستغناء عنها.

هذه المصادر عليك توظيف محاسنها بالشكل الأمثل، مع الانتباه أنها في بعض الأحيان عرضة للخطأ، كما أن هناك تباين تام بين نقاء وقدسية وسمو آفاق القرآن الكريم وبين هذه المصادر أو المراجع والتي هي نتاج بشري؛ لذا فهي تحتاج منك إلى كثيرٍ من الاجتهاد والتوفيق، للتمييز بين الزلل والسهو المحتمل فيها، ونور كلام الله جل وعلا، وسأبين لك في رسالتي هذه أهم المصادر التي لا غنى لك عنها في سَيْرك باتجاه كلام الله سبحانه:

1- الأحاديث الشريفة المرتبطة بالآيات أو السور:

وهي أشرف تلك المصادر وأعلاها، شرط أن تكون صحيحة وموثّقة، ولا مجال لتجاهلك إيّاها أبداً عند تدبر القرآن الكريم.

هذه الأحاديث الشريفة هي على نوعين:

- أحاديث مرتبطة بالآيات أو السور بصريح نص الحديث، وعلى لسان النبي صلى الله عليه وسلم.

- أحاديث صحيحة وعلى لسان النبي صلى الله عليه وسلم لا تنص صراحة على الآية أو السورة، ولكنها وبجلاء متطابقة بكلماتها ومعانيها مع آية أو أكثر من كتاب الله.

جهلك أو تجاهلك تلك الأحاديث يحرمك من حجتها الساطعة في فهم ما قد يشكل عليك من الآية التي تطابق فكرتها، ويبعدك عن الآفاق الشاسعة التي يفتحها لك نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام، أما إن ارتقيت إلى شفافية وكرم إشاراته النبوية، عندها تسمو بأمان إلى نورها وإلى فهم وتدبر معانيها.

2- أسباب النزول:

وهو سبب نزول الآية الكريمة: وهي الواقعة، أو السؤال الذي نزلت الآية، أو السورة عقبه بيانًا له، ولقد أوردها معظم المفسرين في تفاسيرهم.

لا بد لي من تذكيرك أنه لا يمكن تجاهل أسباب نزول الآيات والسور عند الشروع في تدبر

القرآن الكريم، علماً أن أسباب النزول لا تغطي سوى نسبة يسيرة من القرآن الكريم، ولكن المهم هو عدم نظرك إلى الآية الكريمة ضمن نطاق سبب نزولها، واعتبارك ذلك هو حدث جرى أيام التنزيل وانتهى هو والمعنيون به، لأن هذه النظرة على تناقضٍ تامٍّ مع حقيقة النص القرآني الكريم، الذي هو رسالة للعالمين ولآخر الزمان.

عليك النظر إلى أيّةَ حادثة أو قصة ترد في أسباب النزول على أنها، حالةٌ نموذجيةٌ للتفكر بها، ودعوةٌ إلهية للاعتبار منها وللتعمق إلى ما شاء الله في فهمها والاعتبار منها.

3 – معرفة الناسخ والمنسوخ:

قد يستغل البعض مسألة الناسخ والمنسوخ ـ وهي حالات نادرة في القرآن الكريم ـ للطعن في القرآن الكريم وللتشكيك في ألوهية مصدره؛ إذ كيف يتراجع على زعمهم سبحانه عن كلام أنزله ليعدِّله أو يصححه؟ لذا عليك الانتباه إلى ذلك أولاً، ثم معرفة أن النسخ هو رفع حكم شرعيٍ بدليل شرعي متأخر عنه؛ أي: أنه لا يقع إلا في الأحكام الشرعية حصراً، ودليله في القرآن ذاته في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]، ولم تنسخ مثلاً آياتٌ تتعلق بأحداث تاريخية، أو حقائق عن الخليقة في السموات والأرض من مادة أو أحياء، ولم تنسخ كذلك آياتٌ تتعلق بالعقيدة وبه سبحانه.

وفي هذا المقام هناك حقيقة أساسية عن النص القرآني الشريف لا بد لك من معرفتها؛ وهي أن: القرآن جزء من التوازن الكوني.

فالنصوص البشرية متدرجة بالتتالي من بدايتها إلى نهايتها. أما النص القرآني الشريف فكان ظهوره ـ ولِنَقُلْ دخوله ـ في عالمنا تدريجياً، بحيث أنه كان في كل لحظة من لحظات تنزيله متوازناً فيما بين كلماته وأحرفه وأعدادها وخصائصها، وهو ما يفسر لك لِمَ كانت الآيات الأولى في التنزيل رتبت بتمام القرآن في سوره الأخيرة. وآيات من أول التنزيل تلتها آياتٌ بعد عدة سنين.

النتيجة: توازن متواصل وبديع يحمل معجزة الخالق سبحانه.

4 – النحو وعلومه:

لا غنى لك عن النحو وعلومه لتناول القرآن الكريم.

إذ إنّ النحو بيِّنة وحجة حاسمة لكثير مما قد يشكل عليك في فهم كلامه سبحانه.

واستخدامه مفيد وصحيح لك في الحالات العادية.

ولكن عليك الانتباه جيداً أن نجاح النحو في الحالات العادية، أوهم كثيراً ممن اشتغلوا بالتفسير واعتبروه قادرٌ على توضيح أيِّ شيء في القرآن الكريم، على الدوام وبنفس المستوى من الفاعلية، وهذا وهم سببه اعتبار اللغة العربية كباقي اللغات، مصطلحاتٌ متفقٌ عليها بين مجموعة بشرية، هي التي أوجدتها وطورتها.! وهذا من أكبر الأخطاء لأن اللغة العربية لغة إلهية وليست لغة من صنع البشر.

النحو أداة قيّمة إن أحسنت استخدامها، أما إن أسأت استخدامها فقد تحجبك عن نور القرآن، وتوصلك إلى غياب الخشوع في حضرة كلامه جل جلاله، ويغيب وعيك بأن القرآن الكريم مجالٌ مقدس كليّ ينغلق أمام أيَّةِ هفوة، ليصبح بالنسبة لك مجرد مرجع فقهي يقيني، لا أكثر.

5- الكتب التي جمعت معاني الكلمات كما شاع فهمها بين العرب:

لا مجال إن أردت تدبر القرآن الكريم تجاهل كل ما ورد في كتب التراث عن معاني كلمات العربية؟ مثل القاموس المحيط ولسان العرب، ولا حتى الاستغناء عنها لأنها مراجع قيمة، لا يمكنك تجاهل ما ورد فيها؛ لما فيها من معلومات قيمة.

ولكنها بذات الوقت تبقى نِتاجاً بشرياً؛ يحتمل الخطأ والصواب، ولا مجال أمامك لتسرب أي خطأ في فهم كلمات القرآن.

عليك الأخذ بخير ما ورد فيها مما هو لائق بشرف تدبر كلام خالق السموات والأرض والارتقاء بمفاهيمها باتجاه عظمة المقصد الإلهي.

وإياك اعتبارها مرجع يهيمن على كلامه سبحانه؛ بل اعتبارها أداة لمن يحسن استخدامها، ويعرف كيف يميز بين نسبيَّة ومحدودية المفهوم البشري للكلمات في تلك المراجع، وبين المفهوم الإلهي لكلمات القرآن.

6- تفاسير القرآن الكريم:

التفاسير الشهيرة والمعتمدة في العالم الإسلامي إنجازاتٌ عظيمة تطلبت جهوداً جبارةً لجمع و تقديم معلومات قَيِّمة موزعة في مصادر متعددة وضخمة لا غنى عنها، وهي تُوفِّر عليك الوقت والجهد عند بحثك عن معلومات تتعرف بها على القرآن الكريم، ويستحيل الاستغناء عنها عند تعرفك عليه.

تفاسير القرآن تحوي على كل ما ذكرناه سابقاً مما تحتاجه من أحاديث شريفة مرتبطة بالسور أو بالآيات، وأسباب النزول ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وكذلك فهي تحوي على شروحٍ وتفصيل للأحكام الشرعية التي تنص عليها الآيات، إضافةً إلى جوانب لغوية هامة مثل النحو والصرف ومعاني الكلمات، كما شاع فهمها بين العرب.

ولكن عليك الانتباه أن التعامل مع ما وصل إليه فهم المفسرين يتطلب منك الكثير من الدراية والعمق، للتمييز بين ما يفيدك للمتابعة وللتقدم في فهم الآفاق الشاسعة لكلام الله، أو ما يعرقل عليك الفهم، عندما تحدُّ التفاسير تلك الآفاق، أو تصرفك عنها.

كذلك فإن جميع التفاسير الشهيرة تشترك بمنهج متشابه، ألَا وهو سيرٌ نقطيٌّ في القرآن الكريم، آيةً آيةً.

ميزة هذا المنهج هي سهولة الرجوع إلى أيّة آية، كما يكون الأمر في معجم، وهو ناجح وفعّال ولكن يفتقر إلى عدم توافقه مع العرض الإلهي الكلي والكوني لمواضيع ولجوانب من الحقيقة في القرآن الكريم.

عموماً فإن التفاسير لا تكشف إلا جانباً يسيراً من القرآن، لا لضعفها أو قصورها، وإنما بسبب عظمة القرآن ومكنونه اللانهائي.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

المصادر والمراجع المتعلقة بالقرآن الكريم عليك الأخذ بخير ما ورد فيها، والتعامل معها واستخدامها، لا كمرجع يهيمن على كلامه سبحانه، بل كأداة تحتاج منك حْسنَ التصرف بها لتكون لائقةً بشرف تدبر كلام خالق السموات والأرض.



لنفرض أنك قارئٌ حياديٌّ وعلى درجةٍ عاليةٍ من الثقافة والاطِّلاع تناوَلت القرآنَ، ولم يسبق لك أن سمعت به فإن أولَ ما سوف تلاحظه:

أن القرآن مختلفٌ جذرياً في بنيته وكيفية طرح مواضيعه عن كل ما سبقه ولحقه من كتب.

إضافة إلى ذلك، ستجده مختلفاً، تماماً عن أيِّ فكرٍ أو عقلية سابقة أو معاصرة، وحتى لاحقة لظهوره، وعلى كامل رقعة الكرة الأرضية.

وكلما عدت متفحصاً القرآن الكريم كلما تأكد لك ذلك الاختلاف الكلي.

أما إن كنت قد تعرفت على القرآن الكريم منذ وعيك الأول، فلا بد لك من قاعدة ذهبية عليك ألا تنساها هي:

أن كلّ ما قد يُشكِلُ عليك عند وصولك إلى جواب غير مقنع، لسؤال كنت قد طرحته عند تناولك للقرآن الكريم، ما هو في الحقيقة إلا مرآة تظهر ثقافتك وعقليتك ومفاهيمك حيث يكمن الإشكال، والحل لذلك، بشكل عام، هو التريث وعدم الاستعجال في تناول كتابه الكريم لأنه سبحانه نبَّه لذلك بقوله:

﴿...وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11]، وكذلك ذمَّ العجلة والاستعجال:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: 20-21].

الذي نزَّل القرآن سبحانه هو أدرى بنفوس وعقول خلقه، لذا فقد حثَّهم على التريث بشكل يكاد يكون متواصلاً عبر صفحات كتابه.

استعجالك في فهمك للقرآن الكريم ووقوفك عند جواب غير مقنع بالنسبة لك، هو من أكبر الأخطاء، لأنك، إنْ لم تقتنع بجواب على تَساؤلٍ طرحته، فهذا لا يعني أنّ الجواب الموجود في الكتاب الكريم غير صحيح لأن: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

القناعة بصحة الجواب، هي مرتبطة بك وبظروفك ومؤهلاتك وأحوالك المتبدلة، وهي متبدّلة معك، بذلك، فالقناعة التي قد تصل إليها هي مسألةٌ نسبية وشخصية، لا يُعوَّلُ عليها عند تقييمك للأجوبة المطروحة في القرآن الكريم، والتي هي صحيحة ودائمة بشكل مطلق بدوام قائلها ومنزلها جل جلاله.

تدبّر وفهم القرآن الموجّه للعالمين يحتاج منك إلى عدم الاستعجال لتفهمه وتدبره، ومن

الحكمة التريّث عندما تبحث عن أي سؤال فيه، ريثما تصبح أهلاً لفهم وتلقي جواب ذاك السؤال الذي كنت تبحث عنه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82].

وقد نبهك نبينا عليه الصلاة والسلام إلى هذه الفكرة في حديثه عن قصة سيدنا موسى واجتماعه بالخضر، موضحاً أن سبب نهايتها هو عدم تريُّث سيدنا موسى واستعجاله قائلاً:

«رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْلا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ...» [صحيح مسلم].

وعلى العموم عليك عدم التسرع في الحكم سلباً أو خطأً عندما يعرض عليك أي أمر، والتريث في الحكم عليه، خاصة إن كنت تبحث في كتاب الله جل جلاله، لأنه نص إلهي في حرفية كلماته ورموزه وإشاراته ومواضيعه، وخاصةً مع آفاقه وحقيقته، وهذا النص الإلهي يحتاج منك، إضافة إلى عدم الاستعجال في فهمه وتدبره، الانتقال إلى آلية تفكير مناسبة لكلامه سبحانه والأهم من ذلك التحرر من عيوب آليات التفكير البشرية التي اعتدت عليها، والانتقال إلى آلية مناسبة للنص القرآني بحيث تتناسب مع عظمة فعل وإرادة الخالق الذي أنزله، ولا يتم ذلك إلا بالتدريج.

ثم إن وفقت بهذا الأمر كان بالنسبة لك بمثابة الفرصة الاستثنائية لتتفتح طاقاتك و يتداول عقلك فكراً صادراً عن الذي خلقه وخلق آلياته.

التعرف على القرآن الكريم يحتاج منك إلى دوام الوعي، وهذا الوعيُ يجعلك تتريَّث، فلا تتسرع في الحكم على ما تقرأ منه، قبل أن تكتمل الصورة بتحصيل كل ما يلزم لاكتمالها؛ لأنه من السهل أن تعترض على أمر منكراً إياه، فالاعتراض لا يتطلب منك الكثير من الذكاء؛ إذ يكفي ألا تتوافق قناعاتك ـ مهما كان مستواها ـ مع ما هو مطروح عليك لتعترض.

بالمقابل: كلما تحررتَ من مواقفك المسبقة وآرائك الجاهزة ممحِّصاً القرآن الكريم، تدرَّجت في التأكد من حقيقة ألوهيته؛ وهذا مما يدفعك ـ إن كنت حكيماً ـ أن تتريَّث قبل الحكم على أيِّ شيء منه، لتعطي نفسك الفرصة اللازمة للتدرج في فهمه.

لا يمكن أن تتعامل مع النص القرآني الشريف كما اعتدت التعامل مع نصوص صادرة عن

نفوس وعقول بشرية، ولا بدَّ لك من نقلة نوعية في كيفية التعامل معه، لتتناسب مع حرفية كلماته ورموزه وإشاراته ومواضيعه، وخاصةً مع آفاقه وحقيقته، لأنك في بداية تعرفك على القرآن الكريم قد لا تدرك مدى بعد عظمة حقيقته، فتبدو تلك الحقيقة، ولشدة بعدها عنك، كبقعة صغيرة مبهمة.

ولكن كلما اقتربت منها، اتَّسعت وتوضّحت معالمها البديعة، وحين تصل إلى مشارفها ستجد أنها مجرّة عملاقة وخلَّابة، تسبح في فلكها وتتلألأ في عظمتها مليارات الشموس والعوالم.

ولو أنك بحثت فيها مستكشفاً، لما كفاك الدهر أمداً.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

تدبّر وفهم القرآن الموجّه للعالمين يحتاج منك إلى عدم الاستعجال لتفهمه وتدبره، ومن الحكمة التريّث عندما تبحث عن أي سؤال فيه، ريثما تصبح أهلاً لفهم وتلقي جواب ذاك السؤال الذي كنت تبحث عنه:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82]



المرجع الأعلى اليقيني والوحيد الذي يرتبط به مصيرك الأبدي هو القرآن الكريم؛ لذا فإنه لا مجال لتجاهلك حقيقة خاصيّة عجيبة! نبَّه لها صراحةً سبحانه في مواضع عديدة، وهي كيف ينغلق ويمتنع هذا النص الإلهي عن غير المؤهَّل للخوض فيه:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: 146].

ولتفادي وقوعك تحت فعل هذه الخاصية بين لك جل جلاله – رحمةً منه –، أين يكمن السبب الأساسي لها وذلك في شواهد كثيرة نذكر منها:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: 24].

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام: 25].

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: 53].

حقيقة هذه الخاصيّة تجدها في العامل المشترك الأساسي للآيات السابقة هو: «القلوب».

القلب وما يعتريه، من أهمّ مواضيع القرآن الكريم؛ حيث تجد وبجلاء أنه ليس كياناً مادياً يضخ الدم، بل كيان معنوي أي لا مادي. وحيث تفهم أنه عكس «القالب» أي الظاهر المادي مما يظهر منك، بل هو خفايا نفسك وأعماقها التي قد تجهل أنت ذاتك الكثير عنها، فهو يشير، إلى كل ما يتعلق بسرائرك ووجدانك؛ وهو خاصةً صلتك بالسبوح القدوس رب الملائكة والروح؛ لذلك فما أثمنه وما أقدسه!.

لذا من الضرورة بمكان، أن تعرف السبب الذي يكمن إلى ما نبَّه إليه سبحانه في قوله: ﴿...أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ ﴿...وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ...﴾ ﴿...فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ...﴾ فقد تكرَّم سبحانه بإعطائك السبب بجلاء تام في ثلاث كلمات من سورة النحل:

﴿ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ حيث قال جل جلاله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

[النحل: 107 – 108].

إياك أن تفوتك البَيِّنة التي في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ...﴾ لأن معظمَ الذين يقرؤونها، يتناولونها من منظار الظاهر، أي باعتماد مفاهيمهم ومكتسباتهم مرجعاً. فلا يرون فيها ـ و بأحسن الأحوال ـ إلا وعظاً عادياً ألفوه، في الزهد في الدنيا.

النظر إلى ﴿...ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ...﴾ من منظار الحقيقة، يقتضي منك تجرُّدك عن المرجعية البشرية، واعتمادك الحقيقة مرجعاً في المفاهيم التي تشير إليها هذه الكلمات الثلاث، إذ يكفي أن تلك الحياة التي استُحِبَت وصفها سبحانه بـ «ٱلدُّنْيَا »، مثل «دون» و«دنيّ»، لتفهم أنها، وعلى مدى صفحات القرآن، ليست إطلاقاً موضع مدح:﴿...وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران: 185]، ليس ذلك فحسب بل انظر كيف شبه سبحانه الحياة الدنيا على أنها: ﴿...مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ ﴿...لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...﴾[الأنعام: 32]، ﴿... حَصِيدًا ...﴾[يونس: 24]، ﴿...هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ...﴾![الكهف: 45]، هذه هي الحياة الدنيا من منظار الحقيقة.

الحياة الدنيا لحظة عابرة في نسبيّة الزمن وما أقبح أن تصرفِ قلبك عن الصلة بالله، إلى دنيا فانية و عابرة: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: 52].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾[الروم: 55].

أول وأهمّ ما ينبغي أن أنبهك إليه عن الذين يستحبون الحياة الدنيا، هو تجاهلهم لأساسيات مصيريَّة:

فإنهم حصروا فرصة حياتهم في ضيق زمن الحياة الدنيا، وقطعوا عن أنفسهم فرصة الحياة الأبدية، فهم يتجاهلون حقيقة هويّتهم وماهيتهم، عندما ترتبط في نظرهم ارتباطاً وثيقاً بظاهر مادية أجسامهم وعالمهم، فيعتقدون خطأً أنهم ينتمون إلى عالم المادة.

في الحقيقة، ليسوا سوى أنفس، أي كيان لا ماديّ ينتمي إلى عالم لا ماديّ.

أي إن هويّتهم هي النفس، وماهيتهم لاماديّة.

فهم، قطعاً، ليسوا أجسامهم؛ بل إنها بريئةٌ منهم، مستقلة عنهم.

تواجدهم في أجسادهم وفي عالم المادة ليس سوى تواجد عابر، بترتيب إلهيّ مقدّر، وبناءً على حكمة بالغة.

هذا الالتباس في الهوية والماهيّة ناتج عن الانسلاخ عن الفطرة، والفطرة هي الاستعدادات

النفسية الأساسية التي جعلها الخالق الحكيم جل جلاله في خلقه، وإحدى تلك الاستعدادات الأساسية فيها هي شعورٌ عميق بوجود قوة عليا منظِّمة ومسيطرة على الكون، والنفس بحاجة وشوق إلى التواصل مع هذه القوة. وكذلك، شعور عميق بانتماء إلى عالم آخر كوني وأبدي.

تلك الفطرة التي جعلها الخالق الحكيم جل جلاله في خلقه، هي بالواقع جملة من المواهب الأساسية والضرورية.

فالذين ينسلخون عن تلك الفطرة باستحبابهم الحياة الدنيا، يحرِمون أنفسهم من تلك المواهب، فتتقلَّص مداركهم و تتراجع هبوطاً، و بشكل خطير، لأنهم عندما ﴿...ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ...﴾ [النحل: 107]. أساؤوا توظيف العطاء الإلهي، إذ أتلفوا قلوبهم و سمعهم وأبصارهم بدفعها بالاتجاه المعاكس لِما خُلقت له من علمٍ و انفتاح و سمو إلى لانهائيّةِ و قدسيّة الحضرة الإلهية.

لذلك فقد امتلأت قلوب المتهافتين عليها المتنافسين للاغتنام منها حسداً وغلًّا وجشعاً ﴿...فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ...﴾ [الحج: 53]، لتدفع أصحابها إلى جفاء وقسوة أنانية الاستئثار بما حصلوا منها ﴿... وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ...﴾ [الحج: 53]، وإلى ظلم التعدي للنهل منها، وإلى قبح تكبر التفاخر عند استحواذ شيء منها ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ [الأعراف: 146]. تهالكهم لتحصيل ذلك كله في البرهة الضيقة التي حصروا فيها «حياتهم»، استأثر على قلوبهم وعقولهم واهتماماتهم استئثاراً تاماً ومنعهم من الالتفات أو وعي أو إدراك أي شيء أو أمر آخر.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

مسألة القلوب خطيرة للغاية بل ومصيرية، لذا إياك أن تكون من الذين:

﴿...ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ...﴾ [النحل: 107]، لأنك وبشكل خاص ستصبح غير مؤهَّل للخوض في النص الإلهي وسينغلق ويمتنع نوره وحقيقته عنك، ذلك لأن القرآن الكريم مجالٌ مقدس كليّ يمتنع أمام أيَّةِ هفوة

النص القرآني الشريف ليس نصاً بشرياً في محتواه ولا حتى في صياغته أو في لغته، وإياك أن تتعامل معه كتعاملك مع أي نص آخر، لأنه نص إلهي مقدس، وهو مجال روحي فيه كلمات تختلف جذرياً عن سائر كلمات الخلق؛ كلماته قائلها هو الله سبحانه وهو منزه عن الزمن! وهذه الكلمات متَّصلة به، باقية بقاء الباقي جل وعلا، فعّالة بكل قوتها من قوة قائلها الذي يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117].

لذا كان لا بدَّ لك قبل دخولك في هذا المجال الروحي المقدس العظيم الذي هو: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: 2] من تعليمة واضحة وصريحة أمرك بها من أنزل هذه الكلمات تجدها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98].

ورغم صراحة ووضوح أمره تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، لكن عليك الانتباه إلى أنها ليست تحصيلاً حاصلاً، وكأن مجرد نطقك بها، وكيفما كان، كافٍ لتحقيقها بشكل آليّ؛ بل تحصيلها يستوجب حضورَ قلبٍ وافتقارٍ شديدٍ لله، ويحتاج منك إلى الوقوف تفَهُّماً للاستعاذة بحد ذاتها والعلم: أن سريان مفعولها يكاد يكون فضلاً إلهياً استثنائياً يتفضّل به سبحانه على خاصَّةِ عباده؛ وذلك بدليل الحديث القدسي الشهير:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ قَالَ:

مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ،

فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» [صحيح البخاري].

المستوى المعْنيّ في هذا الحديث القدسي استثنائي، كما هو واضح صريح في قوله سبحانه: « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ...»! إذاً فهو مقام أولياء الله؛ حيث يتوّج سبحانه ذلك العطاء الاستثنائي لهم بـ: «... وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»!

ولكي تنال هذا العطاء الإلهي لا بدَّ لك من الوقوف على كنز من كنوزِ المعرفة وهو خبر استثنائي لا وجود له إلا في القرآن الكريم، عليك تدبره والاعتبار منه هو قوله تعالى:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: 75 - 76].

الحوار الذي يدور في هذه الآيات الكريمة لم يردنا عن خبرٍ أخبرنا به الرسول الأكرم نقلاً عن أحد الملائكة الذين شهدوه؛ بل عن الذي شاء الحوار سبحانه، والذي أصلاً وفي سابق علمه، شاء أن يكون في محكم تنزيله! لتتدبره وتعتبر منه فقد نبهك سبحانه في ذاك الحوار لأهم نقطة أنت بحاجة إليها لتحظى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم وذلك عند سؤاله سبحانه: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ...﴾ [ص: 75]، فما كان الجواب إلا «أَنَا۠»! وهذا هو الخطأ المُهلك الذي وقع فيه إبليس، ولم يكتفي به؛ بل توعد به ذرية آدم وبين ذلك بوضوح: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي ...﴾ [الأعراف: 16].

«أَنَا۠»، هذه الكلمة تكاد تكون، لوحدها، كافية لفهم ما أُغْوِيَ به إبليس، وهي جانب من الأدوات التي يتهالك بها لإغواء غيره.

«أَنَا۠»، تُلخِّص الخطأ المهلك الذي يقع فيه أي مخلوقٍ عندما يتجاهل نور وإطلاق حقَّانية المرجعية الإلهية، ليعتمد في مواقفه ومحاكمته وتقييمه للأمور مرجعيته الذاتية، أي: ما تميل وتصبو إليه نفسه، وما يقبَّله من آراءٍ وقناعات يصل إليها فكره.

وهنا تظهر مكانة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، لتصبح إشراقة وعي يهرع بها الذاكر إلى الله تقرُّباً، لتتلاشى أمام عظمته سبحانه «أنا» الذاكر، فتتلاشى بذلك ظلمات مرجعيته الذاتية أمام نور المرجعية الإلهية.

وإنْ مَنَّ الله عليك ونلتَ شرف: «... وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» فعليك الوقوف عند تطبيقك لهذه التعليمة الإلهية والعلم أن هناك فهم لها شائع وسليم:

﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ...﴾ أي: إذا هممت بقراءة القرآن، ﴿...فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98]. ثم بعدها اقرأ القرآن وبهذا المفهوم تصير أهمية تلك التعليمة: أنها تجعل مواقفك ومحاكمتك وتقيمك للقرآن الكريم يتجاوز مرجعيتك الذاتية وما تتَّسم به من محدودية ونسبية، وتوجهك للانفتاح على نور كلامه وما فيه من خير لك، وبذات الوقت تبعدك عن نهج الشيطان المتشبُّث بمرجعيته الذاتية، وقناعاته التي أغلقت أمامه آفاق القرآن انغلاقا تاماً.

كذلك وإن مَنَّ الله عليكَ ونلتَ شرف: «... وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» فلا بد من الوقوف معك على فهم للتعليمة الإلهية غير شائع لكنه صحيح لتطابقه مع حرفية النص الشريف: ﴿فَإِذَا

قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ...﴾؛ أي: وقد ﴿قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ في الحال ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، بهذا المفهوم تصير تلك التعليمة دعوة ملحَّة، جاءت أمراً إلهياً لضرورتها القصوى، كي لا يغيب عنك أن حملة الشيطان متواصلة لإغوائك بطغيان مرجعيتك الذاتية وهذا ما توعّد به ﴿...فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16].

حملة الشيطان عليك بعد انتهائك من قراءة القرآن الكريم هي أشدّ شراسة وكيداً ونقمة وغيظاً بكثير من قبل أن تقرأه، وذلك، ليستجرك من الهداية التي تلقيتها عند قراءتك، إلى الضلال، ومن النور الذي تحصل لك من كلامه سبحانه إلى الظلمات ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17].

والخطير في هذا الفهم لمن فاتته الاستعاذة (وأرجو الله أن لا تكون منهم) أنه يُسيئ فهم رسالة القرآن و يسيئ تطبيق أوامر الله، وهو لا يعي أن الشيطان دخل عليه من خلال عيوب نفسه و نقاط ضعفه؛ لأن الشيطان هو إبليس و﴿إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: 50]؛ أي: إنه شأنه والجن، وشأن الإنس، كلاهما من فئة العاقل المكلّف، أي: الثقلين؛ وبذلك الانتماء يشترك مع الإنس بكثير من الخصائص، خاصةً ما يتعلق منها بالأنفس وأحوالها وردود فعلها.

ومن هنا مدخله على الذي يستجيب له من حيث لا يدري ويقع في حبائل كيد الذي قال عنه سبحانه: ﴿...إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76]؟

بحضورَ قلبٍ وافتقارٍ شديدٍ لله سَلْهُ سبحانه أن يَمُنَّ عليكَ بالاستعاذة؛ لأنك بها تواصل تقدّمك وانفتاحك على نور وهداية المرجعية الإلهية، وإن غابت عنك فإنك ستبتعد عن هذه المرجعية لتصبح مرجعيتك نفسك على علاتها. وعندها سيكون إبليس بانتظارك مع «أَنَاْ»، الشيطان وهي جانب لأحد أدواته ليؤجّج بها الـ: «أَنَاْ» عندك، وإن حصل ذلك عندها سوف تتشبث بقناعاتك وما تصبو إليه نفسك، وسيغيب معظم القرآن عن وَعْيِك، ليبقى ما بقي منه مفككاً مقطوعاً عن المقصد الإلهي، ويغيب عنك فضل وعطاء ما في القرآن من خير؟.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

عليك الانتباه أن الاستعاذة من الشيطان الرجيم ليست تحصيلاً حاصلاً، وكأن مجرد نطقك بها وكيفما كان، كافٍ لتحقيقها بشكل آليّ

بل تحصيلها يكاد يكون فضلاً إلهياً استثنائياً يتفضّل به سبحانه على خاصَّةِ عباده

إحدى الخطوات المتقدمة والأساسية الهامة التي لا بدَّ لك منها، والتي بها تتفتح آفاق كتاب وكلمات الله سبحانه، هي دراسة بُنيَة القرآن الكريم والتعرّف عليها.

هذه الدراسة أنتَ بأَمَسِّ الحاجة لها؛ لأنها تفسر لك تلك النقلات المفاجئة في النص الشريف من موضوع إلى آخر من غير مبرر أو تعليلٍ صريح أو جليٍّ لها، وهذا الأمر قد يستوقف انتباهك، أو حتى قد يُشْكِل عليك، ولكن إن تعرفت على بنية القرآن ستجد أن الأمر على العكس من ذلك، وأن آيات الله متماسكة وتقوم على مجموعة من الشبكات المتناغمة والمتكاملة.

وهناك مثال يساعدك في تشكيل تصور مبدئي عن شدة غنى وعظمة بنية القرآن الكريم هو ما تراه في الجسم البشري من اجتماع وتضافر وتكامل شبكات متعددة وراءها منظومة المورثات، إضافة إلى ما في هذا الجسم من تعدد واجتماع وتكامل الأنظمة فيما بينها بشكل بديع، وبالفاعلية القصوى، ولا عجب في هذا المثال؛ إذ إن الذي خلق الجسم البشري وكل الأحياء، وكذلك المجرات وما فيها من أنظمة بديعة، هو نفسه منزِّل القرآن.

هذه الشبكات المتناغمة والمتكاملة يمكن لسهولة الفهم تقسيمها ضمن مجموعات لانهائية تقوم فيما بينها على السُّوَر والآيات في ترتيبها النهائي، وكذلك خاصةً على المواضيع والكلمات، وحتى على الأحرف وعلى الأعداد.

أي أن هناك:

1 - شبكة المواضيع، 2 - شبكة الكلمات، 3 - الارتباط بين شبكات المواضيع وشبكات الكلمات، 4 - الارتباط بين شبكات الأحرف وشبكات الأعداد.

وهذا الترتيب في هذه المجموعة ليس كل ما يُعْلَم عن بنية القرآن الكريم، بل هو جولة استكشافية ونقاط انطلاق لا بد منها للتعرف عليها.

1 - شبكة المواضيع:

هي جميع الأماكن التي طُرِح فيها ذات الموضوع في القرآن الكريم، وارتباط ذلك الموضوع بشبكات مواضيع ينتمي إليها أو تنتمي إليه، وكمثال على ذلك:

موضوع سجود الملائكة لآدم، ضمن شبكة المواضيع يمكن فهمه على أنه سبع مرات: خمساً واثنتين:

نجدُ في القرآن الكريم 5 مرات نفس الجملة وبنفس العبارات تماماً:

﴿...قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ...﴾ .

البقرة (34)، الإسراء (61)، الكهف (50)، طه (116)، الأعراف (11).

4 مرات ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، 1 مرة ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، 1+4= 5. وهي إشارة بديعة.

ذات الأمر الإلهي بالسجود لآدم ورد 2 مرة أخريين ولكن بصيغة مختلفة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿...فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ في كلٍّ من سورتي الحجر (29)، وص (72) نجد تماماً العبارة ذاتها: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

لم يقلِ الله تعالى في الآيتين السابقتين: لآدم؛ بل له، والهاء: ضمير عائد ليس على آدم بل على بشر (المقصود، طبعاً آدم). هذا يعني:

7 مرات = 5 مرات سجود لآدم اسماً و 2 مرة سجود له (بشر). 2+5= 7

وبإدخال شبكة الكلمات، تصير الخمسة:

1 + 4، ولتصير السبعة: 5 + 2 = 1+ 4 + 2.

وليأخذ هذا المثال الشريف أبعاداً شاهقةً في علوها عند إدخال شبكة الأحرف وشبكة الأعداد.

إنَّ ما يهمنا الآن هو أنَّ الأمرَ الإلهي بالسجود لآدم ذُكِرَ في سورة البقرة مباشرة بعد آيات علم الأسماء، أي بعد تعليم الله تعالى آدمَ الأسماء كلها، ونجدُ الأمرَ بالسجود لآدم في السور الأخرى بعد نفخ الله تعالى الروح في آدم، كما ورد في سورة الحجر (آية 29) وسورة ص (آية 72)، والمتطابقتان لفظاً ومعنىً. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾

و بالتالي؛ أمرُ السجود لآدم بشراً، أتى بعدَ نفخ الروح الإلهية فيه وتعليمه العلم الإلهي المتمثِّل بعلم الأسماء، ونفهم من موضوع سجود الملائكة لآدم، ضمن شبكة المواضيع على نقطة أساسية هي الروح والعلم؛ الممنوحين لآدم بشراً.

فما أبعد ذلك في عظيم مدلولاته عما يبدو تكراراً لنفس المعلومة عبر صفحات القرآن الكريم.

2 - شبكة الكلمات:

هي جميع الأماكن التي وردت فيها كلمة ما في القرآن الكريم، وارتباط تلك الكلمة بشبكات كلمات أخرى تحوم حولها أو تلازمها. ومثالها كلمة الأرض في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾ [البقرة: 30].

كذلك كلمة آدم هناك معلومة جوهرية، وكذلك استثنائية لعدم وجودها في «الكتاب المقدس» بعهديه القديم والجديد، كما هو معروف منذ قرون. تجدها في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

هذه المعلومة الجوهرية تعبّر عن الهيمنة الإلهية المطلقة، وتظهر بجلاء أنّ ما جرى لآدم عليه السلام من إغواء وخروج من الجنة، وهبوط على الأرض، لم يكن حادثاً خارجاً عن الترتيب الإلهي طرأ فغيَّر مجرى الأمور، كما نجد في «سفر التكوين»؛ بل قراراً إلهياً سابقاً لكلِّ تلك الأحداث.

تتبعك لكلمة آدم في شبكة الكلمات يدعوك إلى إعادة النظر في كل التصوّرات عما جرى لسيدنا آدم عليه السلام المشوبة بالمؤثّرات التوراتية؛ مما يتطلب علماً عالياً لفهم وتوظيف المعطيات القرآنية الاستثنائية المرتبطة فيه. كذلك إن تتبعت كلمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾.

3 - الارتباط بين شبكات المواضيع وشبكات الكلمات:

هناك ارتباط وثيق بينهما يطالعنا في سورة البقرة:

- مقطع عن المؤمنين ضمن موضوع الهداية:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة].

- ثم مقطع قصير عن الذين كفروا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة].

- ثم مقطع عن الذين هم غير مؤمنين، أطول بكثير من السابقين:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

إنَّ ذِكْر ثلاث فئات، أولى إيجابية واثنتين سلبيَّتين ضمن الموضوع الشاسع للهداية ﴿...هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ...﴾ ﴿......لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ ﴿...وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾.

يدعو من يتمتع بحدٍّ أدنى من الانتباه والذاكرة الحاضرة إلى ربط ذلك كله بالسورة السابقة، أي الفاتحة. حيث الهداية هي ذروة الدعاء المتأجج الذي تتمحور عليه السورة، وحيث نجد فئات ثلاثاً أولى إيجابية و اثنتين سلبيَّتين:

﴿...ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ...ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ...ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة] يُفهم من ذلك أن ما ورد مختزلاً غاية الاختزال في الفاتحة، مفَصَّلٌ فيما سائر ما يليها من القرآن الكريم.

4 – كذا الأمر بالنسبة للارتباط الوثيق بين شبكات الأحرف وشبكات الأعداد، وكذلك ارتباط كلتا الشبكتين بشبكات المواضيع و شبكات الكلمات.

إن تشرفنا بتناول سورة البقرة، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ...﴾ [البقرة: 30]، تتميز تلك البداية بجميع كلماتها بشكلها هذا «وَإِذْ »، « قَالَ »، «رَبُّكَ »، « لِلْمَلَٰٓئِكَةِ »، أنها ترد لأول مرة في ترتيب النص الشريف.

– أولى تلك الكلمات « وَإِذْ »، بواو عطفها التي تسبق «إذ»، تركيبة قرآنية صرفة لا وجود لها في كلام العرب. إذ، ما أعجب ابتداء موضوع جديد لا علاقة ظاهرية تربطه بسابقه، بصيغة:

« وَإِذْ »

هذه الـ «وَإِذْ » ترد للمرة الثانية من ترتيب النص القرآني في المقطع الذي نحن بصدده:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 34].

وهي ترد كذلك، تماماً قبل ذكر سيدنا موسى في سورة الكهف:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: 50].

ويمكن أن نستنتج بوضوح من الربط بين الشاهدين أن إبليس ليس ملكاً وإنما:

﴿... إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ...﴾ [الكهف: 50].

– كذلك الأمر، بالنسبة لعبارة «جَاعِلٌ »، فقد وردت مرتين:

المرة الأولى بشكلها هذا في ترتيب النص القرآني الشريف من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴿٣٠﴾﴾ [البقرة].

والمرة الثانية والاخيرة في أول سورة فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ...﴾ [فاطر: 1].

ويمكن أن نستنتج بالربط بين كلمة «جَاعِلٌ»، التي وردت مرتين عن ماهية الملائكة عليهم السلام.

كذلك كلمة «خَلِيفَةً» فقد وردت مرتين: الأولى في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]،

والثانية والأخيرة في سورة ص، وبصيغة ما أشبهها بنظيرتها في سورة البقرة:

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ...﴿٢٦﴾﴾ [ص].

ما يلي ذلك البلاغ الإلهي، فصلٌ في المقصود من كلمة «خَلِيفَةً» في كلا الشاهدين الشريفين:

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ...﴿٢٦﴾﴾ فإن كلمة «فَٱحْكُم»، بفائها، تقطع أن المقصد من كلمة «خَلِيفَةً» ليس الخلائف، وإنما الوظيفة.

هذه الوقفة عند الكلمات الأولى من المقطع الذي نحن بصدده عن سيدنا آدم، لفتٌ للنظر إلى الأهمية البالغة لكل واحدة منها.

فهي أبعد ما تكون عن مجرد كلمات ضرورية لسرد قصة، بل إنها كلمات أساسية في شبكة الكلمات وحتى في شبكة الأحرف والأعداد؛ فهي تفتح بإذنٍ من الله ونورٍ منه لمن تدبِّرها آفاقاً عظيمةً مكنونةٌ في القرآن الكريم.

من جهة أخرى، وخلافاً لما يتوقعه قارئ القرآن، وخلافاً لتسلسل ما ورد في «سفر التكوين»، فإن ما يميِّز أول ذكر لسيدنا آدم في القرآن الكريم هو عدم التعرض من قريب ولا من بعيد إلى خلقه من تراب أو طين، أي إن تلك النقطة ثانوية بالنسبة لأخرى أساسية وهي:

مسألة الخلافة كوظيفة، وطرحها ضمن إطارٍ يؤكد تأكيداً شديداً على العلم.

لا بد إذاً من التدرج في تبيان بنية القرآن الكريم والتعرّف عليها، إن نظرنا إليها باعتبارها

تقوم على مجموعة من الشبكات المتناغمة والمتكاملة منتشرة على مدى صفحاته والتي لا يعلم عددها إلا الله، مع العلم أن هذه الأمثلة ينبغي ألا تُنسي الآفاق الشاسعة لكلامه سبحانه، وهي ليست نهاية مطاف ما يُعْلَم عنه، بل هي نقاط انطلاق لا بد منها للاستمرار في التعرف على كتاب الله الكريم.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

قد يستوقف انتباهك تلك النقلات المفاجئة في النص الشريف من موضوع إلى آخر وهذا قد يشْكِل عليك، ولكن تَعَرُفُكَ على بنية القرآن الكريم، وأنه يقوم على مجموعة من الشبكات المتناغمة و المتكاملة، يجعلك ترى بوضوح أن الأمر على العكس من ذلك، بل ويفتح لك آفاق في كتابه سبحانه، تجعل آياته وكلماته متماسكة في قلبك وعقلك.



إن كنت قارئاً للقرآن فعليك أن تكون حكيماً، وذلك بأن تعطي لنفسك الفرصة اللازمة لتتدرج في فهمه و تحسن تدبره.

وبداية هذا الأمر يبدأ بوعيك وإيمانك التام أنك خلق من خلقه سبحانه وأن الله هو المهيمن على كل أحدٍ و شيء، وعلمه سابقٌ لكل شيء ومحيط به فهو، يقيناً، أدرى بك عندما تقرأ كتابه، وهو وحده سبحانه يفتح لك أبواب فهم كتابه وكلماته أو يغلقها وذلك من خلال النور الإلهي الذي يسمح برؤية حقيقة الأمور. ألم يقل جل جلاله: ﴿...وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

عليك أن تعي تماماً أن من رحمته سبحانه جعل تعرفك على القرآن الكريم متدرج وليس دفعة واحدة، وذلك لأن بحور علوم القرآن لا نهاية لها، أنظر في قوله تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[الكهف: 109].

علماً أن حسن تدبر القرآن الكريم، هو أمر إلهي تجده في قوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82].

لا يمكنك أبداً فهم كلامه سبحانه دفعة واحدة، ولا بد لك بنورٍ من الله أن تتدريج في التعرف على كلامه جلّ وعلا، ذلك لأن القرآن هو حرفيَّة كلام الخالق ولا بد للقارئ البشري من نقلة نوعية في كيفية التعامل معه لفهم كلماته ورموزه وإشاراته ومواضيعه، وخاصةً آفاقه وحقيقته.

لتتعرف على كلامه سبحانه أكثر، فأكثر، لا بد لك من السير بخطوات موضوعية ومسلكيّة مضمونة يمكنك من خلالها فهم جانب من التدرّج في حسن تدبر القرآن الكريم وأول هذه الخطوات هو الاهتمام بالقرآن الكريم، ثم: طرح السؤال الصحيح، وبعد ذلك: أهلية تلقي الجواب، وأخيراً: القناعة بالجواب القرآني.

أولاً: الاهتمام بالقرآن الكريم:

القرآن الكريم كنوز من أجوبةٍ، لن تعي معناها أو تدرك قيمتها إن لم تهتم بها وتقف عندها؛

إذ في كل آية من آياته و كلمة من كلماته كنوز من أجوبةٍ لا تدرك قيمتها إن أدبرت عنها بعدم السؤال.

عدم اهتمامك يقف حاجزاً بينك وبين أي جواب تسمعه، خاصة إن لم تطرح السؤال المناسب له، لأن جواباً على سؤال لم تطرحه لا قيمة ولا معنى له بالنسبة إليك، إن لم تطرح السؤال الصحيح وتكون أهلاً لتلقّي وتمثّل الجواب الذي كنت تبحثُ عنه.

أما إن كنت مهتماً بتدبر كلامه سبحانه فلا بد أن تطرح سؤالاً، وهذا السؤال بحد ذاته تحوُّل عندك من سلبيةِ الانغلاق واللامبالاة أو الاكتفاء، إلى الانفتاح على الجواب والتفاعل معه بذلك، فإن الاهتمام يوصلك إلى:

طرح السؤال الصحيح:

طرحك لسؤال صحيح شيء هام في تدرّجك وتعرّفك على كلامه سبحانه، ولكن ذلك لوحده لا يكفي. لأن الجواب القرآني ينتظر منك، أن تطرحَ السؤال المناسب والصحيح.

إذ إنّ كثيراً من الأسئلة غير مناسبة، لأنها طرحت في غير مكانها أو وقتها.

وهذا يحصل عندما لا تعي ما الموضوع المطروح، فتثير سؤالاً لا علاقة به بذلك الموضوع، أي في غير مكانه، أو تثير أسئلة غير صحيحة، في طياتها مغالطاتٍ صارخة.

وهذه المغالطات تكمن في تعميمك لمنطق بشريّ أنت تعيشه على مفاهيم إلهية، أي تعميم النِّسبيّ على المطلق.

عموماً لا تنظر إلى الأمور من خلال منظار الظاهر، وضمن نطاق مكانيّ وزمنيّ ضيِّق أنت تعيشه، لأنك ستقع في إحدى أكبر المغالطات في حياتك عندما تُسْقِط الأدنى على الأعلى! وكمثال على مثل هذه الأسئلة (والتي إياك أن تطرحها):

«كيف يحاسب الله الناس على ذنوبهم وهو يعلم أنهم سيذنبون؟».

«كيف يحاسب الله غير المسلمين وخاصةً الكثيرين الطيبين والمسالمين الناشئين بعيداً عن الإسلام الذين لا يعلمون عنه شيئاً؟» طالما أن ذاك السؤال لم تستطع الإجابة عليه بعقلك الراجح وذكائك الخارق، فكيف يستطيع سبحانه ذلك؟! إذاً هذه أسئلة غير صحيحة، فيها مغالطاتٍ صارخة.

والآن عليك طرح سؤال صحيح، وأنصحك أن يكون أول سؤال ينبغي ألا يغادر ذهنك عندما تقرأ القرآن الكريم هو:

ماذا يريد منزِّل القرآن الذي خلقنا وخلق الأكوان أن نعلم؟

وماذا يريدنا أن نفهم؟. وماذا يريدنا أن نعمل؟.

وستجد أنه سبحانه يريد منّا جميعاً رفع لياقاتنا النفسية والعقلية والفكرية والروحية، إلى الحد الأقصى لطاقة كل منا، وذلك من خلال تناول كتابه واستقرائه والعمل به، ذلك لأن النص القرآني يحوي كنوزاً من أسس لا غنى عنها للسمو بالنفس وهذا يتطلب منا حسّاً مرهفاً وانتباهاً متواصلاً ونباهةً عاليةً وذاكرةً جبارة.

النص القرآني يرفع اللياقات الفكرية، لما يتطلبه من سعي في تدقيق المفاهيم وتطويرها، وجمعٍ لمعلوماتٍ موزعةٍ عبر صفحاته ومقارنتها والربط بينها لاستخلاص رسالتها الكليّة.

النص القرآني يتطلب منا لياقات متطورة للمتابعة في مواضيعه العليا، ويسمو باللياقات الروحية لانفتاحه على نور الحقيقة الأزلية.

وإن وفقت بطرح السؤال الصحيح يجب أن تتوفر عندك:

أهلية تلقي الجواب:

الجواب القرآني يفوتك إن لم تكن مؤهلاً لتلقّيه.

إذ لا بد أن يتوفر عند قراءتك للقرآن، ولو الحد الأدنى من اللياقات اللازمة للإلتقاء بحقيقة معانيه ورسالته، وإلا فإنها تبقى ممنوعةً عنك.

إنعدام أهلية تلقي الجواب عندك، مرتبطةٌ ومتناسبةٌ مع نقاء نفسك وذهنك من عراقيل الآراء المسبقة والأفكار الجاهزة والمفاهيم المغلوطة أو المرتجلة التي في ذاكرتك، وكذلك مع سعة أفق وعمق فكرك وتطور ملكاتك الفكرية، خاصة في قدرتك على التفكير بتجردٍ عن عامل الزمن.

ولكن عندما لا تتوفر أهلية التلقّي عندك عليك الانتباه أنها ليست حالك الدائم، بل على

الغالب هي حال مؤقت.

والباب لاستعادة الأهلية ولتطويرها مفتوح، ويكون ذلك بالتدريج.

أولى خطوات التدرّج في تطوير أهلية تلقّي الجواب وتمثّله عندك، تكونُ بالبحث الصادق في كل ما يتعلق بذلك الجواب.

الصدق في البحث، هو ضمانة لك يجعلك تجند طاقاتك النفسية والوجدانية والعقلية بالكلية، باتجاه واحد نحو الحق.

فأبوابُ القرآنِ تَنْفَتِحُ لِمَنْ يَسْتَفْتِحَها، ولكن بِقَدرِ صِدْقِهِ.

بذلك، عليك عند طلبك للحقيقة أن تقرأ النص القرآني الشريف وقلبك متوهِّج توّاق لفهم كلام خالق الكون، وكلك شوق وحب مطلق للمعرفة، وبذات الوقت، لا يعتريك ادّعاء، ولا غرور، ولا طموح التعالي، ولا فضول الذي لا يعرف حدوده، وإن حققت ذلك كنت مستعداً و مؤهَّلاً للتلقِّي، وعندها تفهم تلقائياً بنور من الله ما ينبغي أن تفهمه، وتستمر في ذلك وصولاً إلى ما شاء الله مما يتجاوز ما هو معلوم.

وفي الأصل إن كنت صادقاً مع الله، ذاكراً له أي لا يغيب عقلك ووجدانك عنه، وهو الحق جل جلاله، فلن تغيب عنك الحقيقة.

وإن كنت صادقاً مع نفسك، أي إن قلبك لم يتلفه الادّعاء والكبر والغرور والذنوب والكذب خاصة، فسوف تميّز بجلاءٍ بين سعادةِ نورانية الصدق، وبين تعاسةِ شقاوة ظلمة الغش والكذب، وبين أنس نور الحقيقة، ووحشة ظلام البُعد والضلال والوهم.

كلما كنت صادقاً مع الله ومع نفسك، كلما كانت قدرتك على التمييز أقوى، وعندها تصل إلى جواب؛ وهذا الجواب يحتاج إلى:

القناعة بالجواب القرآني:

من بعد ما رأيت من ضرورة التريث في الحكم عند التدرج في التعرف على القرآن الكريم، ومن بعد معرفة الموانع التي تحُولُ بينك وبين الالتقاء بحقيقة نور القرآن، ومن بعد مراعاتك لطرح السؤال المناسب والصحيح، ومن بعد الشروع بالبحث الصادق لمعالجة إشكالات المؤهلات عندك، فإنك سوف تقف مراراً أمام عدم اقتناعك بالجواب القرآني.

عموماً، إنْ لم تقتنع بجواب ما، فهذا لا يعني أنّ ذلك الجواب بالضرورة غير صحيح!

فالجوابُ المقنع ليس بالضرورة صحيحاً، وكذلك فإنّ الجواب الصحيح ليس بالضرورة مقنعاً.

أما إنْ كان الجواب صحيحاً فإنّ صحته دائمة ومطلقة.

أما القناعة بصحة الجواب، فهي مرتبطة بك وبالظروف والأحوال والمؤهلات التي عندك.

بذلك، فالقناعة مسألةٌ نسبية وشخصية، لا يُعوَّلُ عليها في تقييم صحة جواب.

طالما أنّ قناعتك مرتبطة بظروفك وأحوالك ومؤهلاتك المتبدلة، فهي متبدّلة معها وكذلك متدرّجة، وإنْ كانت تلك الأحوال والمؤهلات متدرّجة نحو الأفضل، فمن الحكمة التريّث ريثما تصير أهلاً لفهم الجواب.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

لا بد لك من السير بخطوات موضوعية ومسلكيّة مضمونة يمكنك من خلالها فهم جانب من التدرّج في حسن تدبر كلامه سبحانه، هذا التدرج يبدأ بالاهتمام بالقرآن بحد ذاته وبعد ذلك طرح السؤال الصحيح، ثم: أهلية تلقي الجواب والقناعة بالجواب القرآني، وهذه هي أحوال من أراد التدرج في تدبّر وفهم كلامه سبحانه، وهي ذاتها تجعلك تتريَّث قبل الحكم على أيِّ شيء في هذا الكتاب الذي قال عنه منزله جل جلاله:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: 29].



لا يدرك، في البداية، من يتعرف على القرآن الكريم مدى بعده عن عظمة حقيقته.

فتبدو له تلك الحقيقة، ولشدة بعدها عنه، كبقعة صغيرة مبهمة.

ولكنه كلما اقترب منها، اتَّسعت وتوضّحت معالمها البديعة، وحين يصل إلى مشارفها يجد أنها مجرّة عملاقة وخلابة، تسبح في فلكها وتتلألأ في عظمتها مليارات الشموس والعوالم، ويجد؛ لو أنه جال فيها مستكشفاً لما كفاه الدهر أمداً.

رسالة القرآن الكريم أبعد ما تكون عن مجال مدارك واهتمامات إنسان عادي! وهي قطعاً ليست محدودة بحدود ملكاته العقلية ومؤهلاته الفكرية!

ولكن رحمة من الله سبحانه، يستطيع ذاك الإنسان العادي أن يقرأه ويأخذ منه ما يُسعِده مما يتناسب وحدود إمكانياته، ومن غير تحميله فوق طاقته، وسبب ذلك هو الخصائص الاستثنائية لصياغة وبنية النص الشريف.

الله جل جلاله أدرى وأعلم بمن سيقرأ كتابه من خلقه، لذا فقد صاغه بطريقة هو الوحيد القادر عليها، ليُفْهَم على مستويات متعددة سمواً وعمقاً، وبحيث لا تناقُضَ أبداً أو تضارب بينها: ذلك لأن رسالة القرآن ليست مسألة تكميلية، بل ضرورة مصيرية لكل عاقل مكلف من زمن تنزيله إلى نهاية البشرية، وقد تفضل سبحانه على كل عاقل مِن خلقِهِ بإمكانية التدرج عمقاً و رقيّاً والازدياد من كتابه الكريم. وجعله سبحانه لا حدود نهائية لمستويات فهمه وجعل سوره وآياته وحتى كلماته تتجاوز إمكانيات العقل البشري.

ولهذا كان لا بد من تبيان جانباً من عظمة القرآن الكريم من خلال دراسة مستويات لفهمه تتدرج من:

فهم القرآن الكريم من المستوى الأول، ثم فهم القرآن الكريم من المستوى الأوسط، وأخيراً فهم القرآن الكريم من المستوى الأعلى.

فهم القرآن الكريم من المستوى الأول:

هذا المستوى الأولي هو الذي تجده مثلاً في ترجمات القرآن. وهذه الترجمات في أحسن أحوالها، تبقى ضمن إمكانيات لغة الترجمة، حتى وإن كانت بحدها الأقصى من الدقة. وغالباً ما تبقى مفتقرة إلى مفردات تقابل مفردات القرآن. وما أصعب، مثلاً، ترجمة كلمة «سبحان»،

أو كلمة «يفسدون»، إضافة إلى كلمات لا مقابل لها في أغلب لغات العالم، مثل كلمة «نور» التي تترجم وكأنها كلمة «ضوء»، مع الفارق الشاسع بين الكلمتين.

عموماً، يتماشى مستوى الفهم الأولي الذي تفسحه الترجمة بحدها الأقصى من الجودة، مع ما نجده في التفاسير المختصرة. إذ غالباً ما يعتمد المترجمون تلك التفاسير ولهذا، نفهم سبب اختلاف ترجمة بعض الكلمات أو الأفكار، لاختلاف أو تعدد ما ورد منها في تلك التفاسير.

فهم القرآن الكريم من المستوى الأوسط:

لارتقائك إلى هذا المستوى لا بد من توفر شروط عندك تبدأ بعملية تطهير تام لنفسك وعقلك من سائر المواقف المسبقة والآراء الجاهزة. والتجرد التام عن الأنا، وعدم البحث عن الفضول وطموح التفوق، وأن تكون الحساسية والنباهة والذاكرة في حدها الأقصى لتتمكن من ربط المعلومات، ونفسك مثل صفحة بيضاء نقية جاهزة للتلقي، ولا يمكن تحقيق كل ذلك إلا بالتبرؤ التام من حولك وقوتك، والافتقار إلى الله و الشوق إلى نور علمه.

وإن راعيت تلك الشروط فإنك تتحرر من الأثقال التي كانت تمنعك من الارتقاء إلى النص القرآني، و تتلاشى حجب الكثافات التي كانت تحول بينك و بين كتاب الله وترى بجلاء و من غير مجهود ما كان خافياً عليك بنور من الله سبحانه، وتعي تمام الوعي مدى الرحمة الإلهية كيف جعل كتابه سبحانه ميسراً للفهم والتدبر : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 32].

فهم القرآن الكريم من المستوى الأعلى:

للتشرُّف والارتقاء إلى هذا المستوى، لا بد من ضرورة تمثلك شروط المستوى الأوسط، وبالحد الأقصى من الإخلاص والصدق وإنكار الذات والافتقار إلى الله، لأن الخوض في هذا المستوى يتطلب لياقات نفسية وعقلية عالية، هي أصلاً عطاءٌ من الله. وإن أكرمك سبحانه بها فإنها تصرفك بهدوئها المستمدّ من سكينة الذكر الحق وباتزانها المستمد من اتزان أسماء الله وكتابه، وتصرِفُكَ إلى وجه ذي الجلال والإكرام، لِيَصْغُرَ عندك كل ما سواه سبحانه أمام عظمة جلاله، و ليصير بالنسبة و التناسب في صغره فانياً.

وإن آتاك الله من فضله هذه اللياقات، فأحسنت توظيفها مع الامتنان والخشوع وحباً لمن خلقك وأوجدك، عندئذٍ تدرك تمام الإدراك أن القرآن الكريم بمثابة نوافذ وأبواب نحو اللانهاية.

نوافذ تتفتح على آفاق تسمو بنورها نفسك، وأبواب تتفتح على تلك الآفاق، لتسمح لك إن دخلتها رؤية ومعرفة ما لم يكن بإمكانك معرفته، وتستطيع، بالقياس، فهم أي تجل للحقيقة فهماً عميقاً ودقيقاً لوعيك التام عندها أن الذي خلق الكون، هو الذي أنزل القرآن وشاء الإسلام، وستجد أن في القرآن والإسلام أسس القوانين التي تحكم الكون.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

لا بد من تبيان جانباً من عظمة القرآن الكريم من خلال دراسة مستويات لفهمه تتدرج من المستوى الأول: وهو ما تجده في ترجمات القرآن، ثم فهم القرآن الكريم من المستوى الأوسط: والذي تعي فيه تمام الوعي مدى الرحمة الإلهية كيف جعل كتابه سبحانه ميسراً للفهم والتدبر

ثم فهم القرآن الكريم من المستوى الأعلى: وفيه تدرك تمام الإدراك أن القرآن الكريم بمثابة نوافذ وأبواب نحو اللانهاية تسمح لك إن دخلتها رؤية ومعرفة ما لم يكن بإمكانك معرفته، وأن في القرآن والإسلام أسس القوانين التي تحكم الكون.



النص القرآني الشريف مجال روحي مقدس كليّ، فيه كلمات صادرة عمَّن هو سبحانه منزه عن الزمن، وهذه الكلمات تجلٍّ محكم لسبق وإحاطة علمه، وتختلف في حقيقتها جذرياً عن سائر كلمات الخلق؛ لذا لا بد أن تتعامل معها تماماً كما أراد ذلك قائلها جل جلاله.

مفهومك عن أيّة كلمة هو حصيلة تجاربك معها، و ما يتأتى عن ذلك من مشاعر و تصورات وانطباعات و تداعيات وشحنات ومؤثرات، أو بشكل عام وقع الكلمة على نفسك لأن كلّ كلمة تقع على النفوس بدرجات مختلفة وبحسب الأشخاص، ولا يمكن لك إسقاط المفهوم العام و الدنيوي على أي كلمة من كلماته جل وعلا، بل يجب عليك رفع مفهومك و تصوّرك عن كلماته إلى أقصى ما يمكن وكمثال على ذلك:

هل كلمة ﴿قَالَ ...﴾ من قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا ...﴾ [المائدة: 115] يمكن لك مقارنتها مع كلمة (قال..) إن صدرت من إنسان مثلنا؟ خاصة أنه جل وعلا عرَّفَنا عن نفسه قائلاً: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:40].

لذا في هذه الرسالة هناك محطات موجزة، عليك الانتباه أنها ليست كل شيء، ولكن من خلالها تتمكن بعون الله سبحانه أن تحسن التعامل مع الكلمة والمواضيع القرآنية وهي:

1 – الشحنات والانطباع:

عندما تقرأ القرآن الكريم فإن أي كلمة من كلماته لابد أن تكون عندك مصحوبة إما بشحنة سلبية أو إيجابية، والواجب عليك أن تتخلّص من كل الشحنات السلبية، والانتباه إلى أي انطباع سيئ مرتبط بتلك الكلمة وتنقيتها بشكل موضوعي من كل ما لا أساس له من الصحة.

2 – التداعيات:

لكل كلمة تداعياتها الخاصة بها، ومن المعلومِ أن كل كلمة تثير سلسلة من التداعيات، ولكن أمام عظمة كلام الخالق في قرآنه الكريم، وما يتطلبه تدبره من انضباط فكريّ عال، لا مجال عندك للخضوع لفوضى عفويةِ التداعيات.

أي إن تضبط تداعياتك، وذلك بتفريغها من كل ما لا أساس له و ما لا طائل منه، و بشحنها بما يليق بها من معلومات قرآنية، ثم بمعلومات يقينية من السنة المشرفة.

3 – المؤثرات:

معظم المفردات التي تتداولها في حياتك خاضعة لمؤثرات عديدة منها: البيئة التي تعيش

فيها، و الإعلام و الاتصالات، وعلى العموم متأثرة بالتيار الثقافي الغربي بشكل خاص، أي إنها بالنهاية مؤثرات بشرية، وكمثالٍ على ذلك كلمة «الأرض» فهي متأثرة بالمفهوم الغربي على أنها كوكب متناهي في الصغر بالمقارنة مع الكون الشاسع الذي يحيط بها، في حين أن كلمة «الأرض» في القرآن الكريم، ذات معانٍ متعددة، ويكفي أنه سبحانه قارن بينها وبين السماء بقوله:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: 12].

وهو مثال معبرٍ، يمكن القياس عليه لباقي الكلمات.

4 – مفاهيم الكلمات:

وهي على الغالب مكتسبة، إما بشكل عفوي من البيئة الأسرية والاجتماعية والإعلام، أو من المراجع التي تعود إليها عند الحاجة.

أي إن تلك المفاهيم قد تكون عندك متنوعة متدرجة في الدقة وبحسب مستوى مصدرها. ويكفي أن تقوم بمراجعة مفهوم كلمات مثل: ﴿ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ أو ﴿ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾

لتدرك مدى التفاوت والاضطراب في مفهوم هاتين الكلمتين.

لذا يجب عليك إعادة النظر بشكل جذري، للتأكد من توافق مفهوم الكلمة عندك مع مفهوم الكلمة القرآنية.

5 – الآراء المصاحبة للكلمة:

هي محاكمة عقلية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمفهومك عن كلمةٍ ما، وبشكلٍ خاص، الكلمات القرآنية التي تعبر عن موضوع يستدعي الوقوف عنده.

مثل ﴿تَنزِيلٌ﴾ أو ﴿نَـزَّلَ﴾ أو ﴿لَوْحٍ﴾ أو ﴿كِتَابٌ﴾ أو ﴿قَدَرٍ﴾

حيث ستجد عندك تباين بالمفاهيم المتعلقة بتلك الكلمات في صحتها و دقتها، و كذلك الآراء المرتبطة بها.

النتيجة، إن لم تتخلص من الآراء الخاطئة المصاحبة للكلمة فإن المواضيع المرتبطة بهذه الكلمة تترسَّخ في ذهنك، وتُشَكِّل كتلةً تحجب عنك نور القرآن وهدايته وتصرفك بلا عودة عن المقصد الإلهي الذي أراده لك.

6 – موقف القارئ من الكلمة:

أي: تفاعلك مع الكلمة القرآنية، هذا التفاعل قائم على سلم الأهميات المعتمد عندك و

ذاك السلم، بدوره، قائمٌ على قناعاتك الشخصية.

كمثال على ذلك: عدم اهتمامك لكلمات قرآنية مثل:

﴿سِحۡرٌ﴾ أو ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ أو ﴿شَيۡطَٰنٍ﴾ وذلك بذريعة العقلانية ومواكبة الفكر «العلمي» الحديث، وهذا يوصلك إلى قلة النباهة وتبلُّد مشاعرك وضعف تفاعلك مع المواضيع المرتبطة بهذه الكلمات، ثم الغَرَق في فيضٍ مستمر ومتزايد من الكلمات الضحلة التي لا تليق بها والتي لا تحتاج إلى أية وقفة تأمل أو تفكير.

7 - التصور أو الموضوع المصاحب للكلمة:

التصور المرتبط في ذهنك عن أي كلمة: هو ما تستطيع أن تقوله عن تلك الكلمة كموضوع طُلِب منك تقديمه، وهو محصور ضمن نطاقك الشخصيّ، ومرتبطٌ، أيضاً بملكاتك العقلية و بمستواك الفكري و الروحي. وله دور حاسم في فهمك لمواضيع قرآنية مثل:

﴿خَلِيفَةً﴾ أو ﴿حُكۡمُ﴾ أو ﴿جِهَادًا﴾.

عندما تقف عند مثل هذه الكلمات ستجد مدى تعدد و تباين تصوراتك عنها والتي تتراوح بين الضحالة والركاكة لتصل إلى الانحراف في فهم المواضيع التي تشير إليها لذا لا بد لك أن تراجع تلك التصورات عن هذه الكلمات بشكل شامل وجذري على الأخص علاقتها بقصصِ الأقوام المذكورين في القرآن الكريم، مثل قوم نوح أو عاد أو ثمود أو فرعون مثلاً، والانتباه أن هذه المواضيع ليست لكاتبٍ يستشهد بقصصٍ أو أحداثٍ واقعيةٍ، ليبين لقارئه صحة الفكرة التي يطرحها، بل هي ما ذكره الله جل جلاله لأحداثٍ في كتابه الكريم قال عنها:

﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]. وشتان ما بينها وبين استشهاد مخلوق بحدث على أرض الواقع.

8 - كيفية التعامل مع الكلمة القرآنية:

تعاملك مع الكلمة القرآنية يبدأ من تنقية أي كلمة من كلامه سبحانه عن الطابع الذي اكتسبته منذ طفولتك وأنت على مقاعد الدراسة، والتخلّص من ذلك الطابع عند قراءتك كلمات الخالق سبحانه، وإياك أن تسقِط ما نشأت عليه من التعامل مع كلمةٍ صادرةٍ عن بشر على الكلمة القرآنية، خاصة أنك تعيش الآن في عصرٍ لا سابق ولا شبيه له بالنسبة للكلمات،

فالكلمات صارت طوفاناً يغطي الشوارع و الجدران، ولم يعد للكلمة قيمة في وقعها على مسامعك وأصبح من الضرورة بمكان تنقيتها عن أي عيب أو شائبة وخاصة الخفيّ والذي لا تعي مدى فعله في عقلك وقلبك.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

لا يمكن لك إسقاط المفهوم العام والدنيوي على أي كلمة من كلماته جل وعلا

بل يجب عليك تنقية أي كلمة أو موضوع في كتابه سبحانه عن كل تجاربك، ليصبح وقعها على نفسك تماماً كما أراد ذلك قائلها جل جلاله.



الأسلوب المتعارف عليه لتحديد مفهوم الكلمة القرآنية قائم على الأخذ بالمفهوم الشائع للكلمة، ثم تدقيقها وإغناؤها بمعانيها المختلفة الواردة في المصادر القديمة كالقاموس المحيط ولسان العرب والأشعار مثلاً، ومن ثم تطبيق ذلك كله على النص القرآني الشريف.

هذا الأسلوب يعطيك نتائج سريعة ومقنعة، ولكن إن توخّيت الدقة للتعمق في مفهوم الكلمة القرآنية وسعيت جاهداً للوصول إلى المقصد الإلهي لتلك الكلمة عندئذٍ، عليك أن تتبع منهجية عمل خاصة أبين لك في رسالتي هذه جانبا منها من خلال النقاط التالية:

1 – توَخّي الدقة ومراجعة أية مسألة من جذورها.

2 – كيفية التعرف على مفهوم الكلمة القرآنية.

3 – مسألة اختيار الكلمات في القرآن الكريم.

4 – معرفة ولو الحد الأدنى عن آفاق الكلمة القرآنية.

1 – توَخّي الدقة ومراجعة أية مسألة من جذورها:

أي ضبط الأمور إلى أقصى حد، بحيث تكون بعيدة كل البعد عن التقريب.

فالكلمات المدروسة في هذا المقام ليست مصطلحات شائعة لا داعي للأخذ والرد فيها، وإنما كلمات تعبِّر عن مفاهيم مرتبطة بالألوهية وأساسية في العقيدة.

فلا بد لك من الانتباه إلى عدم الخلط بين المفهوم البشري للكلمة، والمفهوم الإلهي الوارد في القرآن الكريم، وهذا يقتضي مراجعة أية مسألة من جذورها.

أي: مراجعة وتدقيق كل شيء، حتى ما يعتبر مُسلّمة أو بديهة أو أمر لا يناقش، كما هو الحال، مثلاً، بالنسبة لبعض ما ورد في النحو أو في معاني الكلمات العربية، كالأخذ بمعنى أوحد لكلمة عربية، أو اعتبار جميع اشتقاقات كلمة عربية تدور في فلك معنى أوحد.

2 – كيفية التعرف على مفهوم الكلمة القرآنية:

تعرفك على مفهوم الكلمة القرآنية يبدأ أولاً من النص الشريف، وعليك اعتماده كأول مصدر في عملك. وبذلك تكون قد تجنبت الأفكار الجاهزة والمواقف المسبقة.

ومن خلال القرآن الكريم تقوم بدراسة الكلمة، لترى كيف أوردها سبحانه فيه؛ فهو أدرى

بمعناها وكيفية استخدامها، هذا يعطيك الوجهة الصحيحة لمعناها الإلهي الحقيقي، وليس نسبية المفهوم البشري لها.

انطلاقاً من تلك الوجهة الصحيحة يمكنك التعرف على مفهوم الكلمة القرآنية من خلال:

- التعمق في فهم الجذر الثلاثي للكلمة، كذلك دراسة الكلمة من خلال وزنها؛ وإكمال الدراسة، إن اقتضى الحال من خلال معرفة خصائص الأحرف ومعانيها، وذلك كله من خلال دراسة كيفية ورود سائر الكلمات المدروسة واشتقاقاتها في القرآن الكريم.

مثال ذلك: خلط الكثير من المسلمين بين كلمتين مثل: «عبيد» و«عباد»، واعتبارهما مترادفتين.

فقد وردت كلمة «عبيد» خمساً حصراً في القرآن الكريم، وبهذه الكيفية:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 181-182].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: 50-51].

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: 9-10].

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: 26-30].

وإن قارنت الآيات السابقة مع قوله تعالى:

﴿...وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: 19].

تجد أنه إذا أراد الله تعالى أن يثني على عباده سماهم (عباداً).. وإن أراد أن يذكرهم بسوء أفعالهم.. سماهم (عبيداً)!!..

كذلك، فإن تحرير الكلمة القرآنية من سائر ما هو ملصقٌ بها، ثم النظر في كيفية ورودها في النص القرآني الشريف، كافٍ لوحده لتحقيق قفزة نوعية في دقة و صحة النتائج.

نتائج لا تضع حداً للبحث، بل تفتح آفاق الكلمة الإلهية.

3 - مسألة اختيار الكلمات في القرآن الكريم

وقوفك عند أية كلمة في القرآن الكريم، والتساؤل عن سبب اختيارها هي بالذات، من أساسيات حسن تدبرك للقرآن.

فهي، ولدقة وإحكام معانيها الظاهرة، كلمات يستحيل أن تحلَّ الواحدة محل الأخرى وذلك، للفوارق الشاسعة في الحقيقة بينها، بغض النظر عما أشرنا إليه من آفاقها.

وإن وصلت إلى جواب ما، فليس هذا الجواب المبني على الدليل والبينة الذي حظيت به هو الجواب النهائي على تساؤلك، بل أول الطريق الصحيح، أو جواب على طبقة من طبقات القرآن الكريم.

مثال على ذلك سبب ورود اسم بالذات من بين أسماء الله جل جلاله في آية ما.

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260]. فهو العزيز جل جلاله الذي يفعل كل شيء بترفع وسمو واستغناء وتعالٍ عمَّن سواه، ليس لديه أي نقطة ضعف، ويحكم بعزته حكماً مستقلاً استقلالاً تاماً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]، ومهما فعل أي امرئ حتى يؤثر في العزيز جل جلاله فإنه لا يتأثر حاشاه سبحانه.

إجابته سبحانه سيدنا إبراهيم على طلبه ليست إلا لحكمة، فقد شاء في سابق علمه ذكر هذه الحادثة في محكم تنزيله لكتابه الأخير على خاتم النبيين.

وهذا الاستنتاج ليس سوى الحد الأدنى مما يُقال عن سبب ورود اسمه تعالى العزيز جل جلاله في هذه الآية الشريفة وليس كل شيء بل هو أول الطريق.

ثم تتابع في التفكر في سبب ورودِ كل كلمة من كلماته بنور الله وهدْيِه، آخذاً بشبكة الكلمات و بما أشرنا إليه من آفاق، عندها ترتقي فيها إلى ما شاء الله.

4 – معرفة الحد الأدنى عن آفاق الكلمة القرآنية:

قاعدة هذه الآفاق، والتي لا يكون الانطلاق إلا منها، هي المفهوم الصحيح والصريح للكلمة القرآنية، نقيةً من سائر الإسقاطات، مفهومٌ مفتوح باتجاه العمق والارتقاء.

تبدأ هذه الآفاق بانتماء أيَّةِ كلمة إلى مثيلاتها في شبكة الكلمات، والتي لها بداية عند أول ورودٍ للكلمة في الترتيب النهائي للنص الشريف، ونهاية عند آخر ورودٍ لها، وتعداد يقيني للمرات التي وردت فيها.

كل شيء في هذه الشبكة مقصود، وطالما أنه مقصود، فإنه، بالضرورة ذو مغزى و مدلول عظيم.

مثال ذلك، أنّ أول ورودٍ لأيّة كلمة مبنيةٍ على جذر «هَدَيَ» نجده في الفاتحة، أي أول سورة في الترتيب النهائي للنص القرآني الشريف.

ورُتِّب الأمر بشكل معبِّر، بحيث أن الكلمات المبنية على جذر «هَدَيَ» غائبةٌ تماماً في السور الثمانية عشرة الأخيرة من القرآن الكريم، وذلك ليكون آخر ورودٍ لأيّة كلمة مبنيةٍ على ذلك الجذر في سورة العلق بالذات، أي أول سورة في ترتيب تنزيل النص القرآني الشريف.

هذا ينطبق على سائر كلمات القرآن الكريم، ويتجاوز ما أشرنا إليه، لنجد تلازماً بين كلمةٍ في اشتقاقاتها مع كلمة أو كلمات أخرى في اشتقاقاتها.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

إذا أردت التعمق في مفهوم الكلمة القرآنية، عليك إتباع منهجية عمل خاصة، تبدأ من:

مراجعة أية كلمة قرآنية من جذورها، وذلك توَخّياً للدقة،

ثم التعرف على مفهوم الكلمة القرآنية وكيفية اختيار تلك الكلمات في القرآن الكريم

و لا بد أن تتم دراستك بمعرفة الحد الأدنى عن آفاق الكلمة القرآنية،

وأن تعمل كل ذلك وأنت على يقين بأن كلمات الله تختلف في حقيقتها بشكل جذري عن سائر كلمات الخلق.

لا بد، أثناء تدرجك في التعرف على القرآن وتدبره، من المرور، بطبيعة الحال، في مرحلة أولى عند قراءته وهي مرحلة تمهيدية، حيث يظهر لك من هذا الكتاب العظيم سلسلة من مواضيع مختلفة ومتشابكة، منها ما يرد مرة واحدة، ومنها ما يعود مرات أو مراراً.

هذه المرحلة هي حال سواد قارئي القرآن، ولا إشكال في ذلك ولكن الإشكال هو الوقوف عندها! لأنها أول مرحلة تمهيدية!

الذي أنزل القرآن، سبحانه، أدرى بذلك وأدرى بعقل كل من قرأه و هو سبحانه لا يريد لعباده مجرد الاطلاع على كتابه، بل يريد رفع لياقاتهم بالخروج من مرحلة أولى تمهيدية!، و مما فيها من نسبيّة و محدودية، إلى التحرك و الارتقاء في عالم القرآن الكريم، عالم النور و الحقيقة بآفاقه الشاسعة ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1].

الذي أنزل القرآن، سبحانه، هو الذي خلق عقل قارئه، فهو سبحانه أدرى بطاقاته وبآلياته الصحيحة.

بذلك، وبالحقيقة، فإن التوافقية بين تلك الطاقات والآليات وبين كيفية طرح المواضيع في النص الشريف، توافقية بالحد الأقصى.

فالأمر أشبه ما يكون بالمولود والعالم الذي يحيط به فإنه، من خلال حواسه، يسمع و يرى كل ما يحيط به، إلا أنه لا يعي مما يسمع و يرى إلا ما هو متناسبٌ مع إمكانياته، هكذا رتب له الرؤوف الرحيم الذي خلقه سبحانه.

ولك أن تتصور الأمر بحسب المنطق البشري أن هذا المولود يعي كل ما يسمعه و يراه وما لا شأن له به، كالسماء والنجوم والأشجار والناس والشوارع والأبنية والكتب والمجلات والفرش والأثاث والمعدات وإلى آخر ما ذلك، تُرى كيف سيكون حال هذا المولود؟

الأول والآخر الذي أحاط بكل شيء علماً سبحانه، هو الذي أنزل القرآن الكريم، وهو أعلم بالألوف المؤلفة التي ستقرؤه من وقت التنزيل إلى آخر الزمان، وباختلاف ثقافاتها وقناعاتها وعقلياتها وملكاتها!

وهو سبحانه أعلم بالتباين فيما بين حاجات وتساؤلات وأحوال كل من يقرؤون القرآن، والتباين بين جاهزية ما تتطلبه تلك القراءة؛ لذا صاغ كتابه بتلك الطريقة الفريدة التي تتماشى مع تبايُن أنماط قارئيه، ومع تباين جاهزيتهم حيث زوَّد قُرّاء كتابه الكريم بجملةِ معلوماتٍ

متنوعة، يمكن قراءة كل واحدة منها بثواني أو دقائق، وبذات الوقت راعى سبحانه كرماً منه قُرّاء كتابه، بأن جعل المدة اللازمة لقراءة تلك المعلومات متناسبة مع نمطها، وكمثال على ذلك ما تجده في سورة الحاقة عن قصة فرعون وهلاكه ضمن آيتان:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾

[الحاقة: 9- 10]

وتجد القصة ذاتها بشكل أطول وبتفاصيل كثيرة في سورة الشعراء والتي تبدأ بأمره سبحانه لسيدينا موسى وهارون بأن يذهبا إلى فرعون:

﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦ ...﴾.

وبعد اثنان وخمسون آية كلها تعطي تفاصيل عن تلك القصة، تصل إلى الفكرة ذاتها في سورة الحاقة وهي هلاك فرعون ومن معه:

﴿ ... ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾[الشعراء: 65 – 66]

والتفاصيل عن تلك القصة لم تنتهي أيام سيدنا موسى بل هناك تفاصيل حتى زمننا هذا، إذ بعد إهلاك الله فرعون غرقاً وعده جل جلاله أن يبقي جسده عبرة لمن بعده وذلك في سورة يونس:﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾

[يونس: 92].

وهو الآن عبرة لنا، وهذا ما أثبتته الفحوصات الحديثة التي أجريت على مومياء أحد الفراعنة لتكشف أنه مات غرقاً، وهو تماماً الذي ذكره سبحانه في كتابه الكريم، ولك أن تذهب الآن لتراه في متاحف مصر وتعتبر من تلك القصة.

بهذه الطريقة الفريدة يزود سبحانه قُرّاء كتابه بجرعات خفيفة ليتقدموا، لذا فهو سبحانه لا يعرض على قُرّاء كتابه الكريم المواضيع الكبرى دفعة واحدة؛ بل يجعلهم يتدرجون في سلسلة من مواضيع مختلفة ومتشابكة، هي في الواقع عناصر على أعلى مستوى لمفاهيم أساسية لتلك المواضيع الكبرى، لأنه سبحانه، أدرى بالبَوْن الشاسع بين استعداد تقبُّل أولئك القُرّاء، وبين عظمة رسالته في كتابه الكريم، وأعلم بما سوف يفهمه أولئك القُرّاء في قراءاتهم الأولى.

كما أنه سبحانه أدرى بتباين مستوياتهم وملكاتهم النفسية والعقلية ومسؤولياتهم؛ لذا فقد جعل الضروري لكل المستويات واضحاً في عرضه، صريحاً قريب المنال، وجعل نسبةً

وتناسباً بين مستويات فهم المواضيع الكبرى وبين مستوى القُرّاء ومستوى آليات الربط والمقارنة المعتمدة عندهم.

وبفضل التوافقية القصوى بين النص القرآني الكريم وبين طاقات وآليات عقول الذين سيقرؤونه، فإن ما يغيب عن وعي أولئك القُرّاء، يدخل، رغم ذلك، نوراً في أعماقهم.

ومن جملة ما يدخل في أعماقهم ويساهم في تهيئ عقولهم، هو تلك الرؤية التي يُعْرَض فيها الموضوع ضمن إطار واحد أو أطر متعددة ومن زوايا مختلفة.

بحيث يأخذ كل عنصر معناه من خلال علاقته بالعناصر الأخرى المرتبطة به، ومن خلال علاقته بالكل، وبحيث يساهم كل عنصرٍ في إعطاء الكل معناه.

هذه القراءات الأولى والتي هي مرحلة تمهيدية تفسح المجال لقُرّاء القرآن للتعرف على بعض المفاهيم الأساسية، للتأمل والتفكر فيها، كخطوة أولية للتعمق في فهمها ثم بعد ذلك العودة إليها المرة تلو الأخرى.

عندما يبدأ قُرّاء القرآن بتحصيل المفاهيم الأساسية في المرحلة التمهيدية، يرتقي مستواهم الفكري والروحي، وتتفتح مداركهم طالبةً المزيد من البينة والنور.

مما يدفعهم إلى العودة إليه والتحرك فيه وتوظيف ما عندهم من نباهة وفطنة وذاكرة، بالحد الأقصى، وهذا ما يريده سبحانه لهم، وعندها يربطون بالتأكيد بين ما يجدونه فيه من نقاط متماثلة أو متشابهة.

بذاك التحرك الصحيح والربط، يكون القُرّاء قد أثبتوا جاهزيتهم وجدارتهم للتقدم في فهم النص الشريف.

عندئذٍ، وبهذا الربط الذي لا بد منه، سوف يتحصّل لديهم فهمٌ صحيح لرسالة ما، واردة كجزء لا يتجزأ من رسالة كلية هي رسالة القرآن الكريم.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

في أولى قراءاتك للقرآن الكريم هناك مرحلة تمهيدية تحصّل فيها مفاهيم أساسية لهذا الكتاب العظيم، ثم بتحصيل هذه المفاهيم التمهيدية تربط بالتأكيد بين ما تجده فيها من نقاط وعندها:

يتحصّل لديك فهمٌ صحيح لرسالة كلية هي رسالة القرآن الكريم

مسؤوليتك عند تناول القرآن عظيمة، لا بل مصيريّة، خاصة عند الشروع في تطبيق ما ورد فيه، فما أدق الأمر وما أخطره عندما تبني قناعاتك عن القرآن الكريم، وخاصةً عندما تشرع بتطبيق ما فيه!

إذ لا يقف بك التطبيق عند حدود ما بينك وبين الله سبحانه، كالصيام وقيام الليل وكثير من الأحكام. بل يتجاوزه إلى أمور خطيرة، مثل ما يمس حقوق العباد من أموال أو أعراض أو دماء أو ذمة، بل هناك أمور أخطر بكثير، وهي تلك الآيات التي قد تفهمها بشكل غير صحيح، ثم تبني قناعاتك على ما وصل إليه فهمك منها، ثم تطبق ذلك الفهم على آيات القرآن الكريم ذاتها وكمثال على ذلك لا مجال أبداً لتجاهلك أو إهمالك لقوله تعالى من سورة الزمر:

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: 55]، فقد أشكلت هذه الفكرة على البعض عند بناء قناعاتهم وظنوا أن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ هو المقصد منه أن تختار الأفضل والأحسن مما أنزل سبحانه وتتبعه وتبني قناعاتك عليه.

لا تفاوت أبداً في الجودة، ولا تباين ولا تفضيل ولا حاجة للاصطفائية في كلام الله جل جلاله؛ بل هو اختزال قرآني أنيق تجده كالنور الساطع في كلمة ﴿أَحۡسَنَ﴾: والمقصد منه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ﴾ (ما يمكن أن يصل إليه الفهم والتدبُّر من) ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾؛ وقد تكرّم سبحانه عليك إن أشكلت كلمة ﴿أَحۡسَنَ﴾ في:

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ..﴾، ويسّر لك الضمانة على عدم تفاوت مستويات الجودة في النص القرآني الشريف، في سورة الزمر نفسها وبإيراد الكلمة ذاتها عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا ...﴾ [الزمر: 23] وجليٌّ أن كلمة ﴿أَحۡسَنَ﴾ في هذه الآية الكريمة تشمل سائر النص القرآني الشريف.

لا بد لك من السعي وبذل الحد الأقصى من الذكاء والنباهة كي تفهم القرآن الكريم وتبني قناعاتك من نوره، لهذا شاء سبحانه رفع لياقات عقلك وتوجيهك إلى تفكير صحيح، والتحرُّك في نور النص القرآني تدبُّراً، في نفس سورة الزمر قائلاً:

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: 18]، وأشار إليك جل وعلا إلى: ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ والذين هم: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

لتتعْلَم كيف تبني قناعاتك منهم، و إن تتبعت ما ذكره سبحانه عن ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ستجد أنه يتمَحْوَر حول أمرين اثنين هما:

التذكُّر ثم التقوى.

أما التذكر: فهو أداة أساسية في آليات ربط المعلومات عموماً والقرآنية خاصةً والآية الكريمة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:29]، هي دليل قاطع على ذلك.

إذ لا مجال أمامك للتقدم في فهم رسالة ما، في القرآن الكريم، إلا بربط ما فيه من معطيات و معلومات، ولا تتم عملية الربط تلك مع نسيانك، و لو حتى معلومة واحدة، و عدم إدخالها في الحسبان، والنص القرآني الشريف يدعوك إلى تتبُّع كل المعطيات والمعلومات التي جاء بها للارتقاء بنور من الله في فهم الطبقات العليا من كتابه سبحانه، وإن فعلت ذلك كنت من أولي الألباب.

والأمر الثاني: هو تقوى الله جل جلاله العزيز الجبار المنتقم القهار، الذي إليه المصير سبحانه، وهو عنصر ملازمٌ لأولي الألباب عبر القرآن الكريم.

وإن سعيت في تقوى الله سبحانه وتتبعت خطى ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فعليك عدم القيام بأية خطوة إلا من بعد التحسب لكل تبعاتها على المدى البعيد، وخاصةً الأقصى، أي في الآخرة عند الحساب، أي عدم قيامك بأية خطوة إلا من بعد أن تتوخي فيها رضا الله.

وقد يسّر سبحانه فبيَّن لك السبيل لبلوغ التقوى في آيتين من كتابه الكريم أولاهما في البقرة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

ثانيهما في سورة الزمر:

﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: 33].

العامل المشترك بين آيتي البقرة والزمر، وبجلاء، هو الصدق وقد يسر سبحانه الأمر؛ إذ جعل التقوى في آخر الآيتين.

الصدق مع النفس والصدق مع الآخرين والصدق مع الله خاصةً، إذاً، هو الأساس الذي تقوم عليه أمور كثيرة من أهمها التقوى.

والتقوى بما فيها من إحاطةٍ وعلمٍ عميقٍ بكل الأوامر والنواهي، وبما فيها من تحسب لتبعات كل عملٍ على المدى البعيد والأقصى، وما يتطلبه من تذكُّر لربط المعلومات، كل ذلك لبلوغ المقصد الذي هو سبيل أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ...﴾ [الزمر: 18].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

لا بد لك من السعي وبذل الحد الأقصى من الذكاء والنباهة كي تفهم القرآن الكريم وتبني قناعاتك من نوره، والسبيل إلى ذلك أن تسير على خطى:

﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ والذين هم: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: 18]

وأولو الألباب هم:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ...﴾ [الزمر: 18].



الكتب البشرية التي تقرؤها مهما كانت مواضيعها هامة، فإن مصيرك ليس مرتبط بها، خلافاً للقرآن الكريم، والذي يرتبط به مصيرك الحتمي والنهائي والأبدي لك ولكل من يقرؤه، فلا عجب أن تكون نسبة التذكِرة للمواضيع التي تبدو تكراراً والتي وردت به، ما هي إلا فضلاً ورحمةً منه سبحانه لك ولكل خلقه.

أهمية القرآن الكريم تكمن لما فيه من مواضيع تتكرر متناسبةً مع الأهمية البالغة للمصير النهائي لكل من يقرؤه، خاصة في زمن طغيان مادية الحياة اليومية التي ألهتك وأبعدت اهتماماتك بشكل متواصل عن ذاك المصير.

إذاً: الأمر مُعَدٌّ، رحمةً، ليكون القرآن الكريم مفتوحاً من كل الجهات، بحيث من أينما دخلت في رحابه، فسوف تجد:

ما يُذكِّرك بأنك نفسٌ، أيْ كيانٌ لا ماديٌّ، عابرٌ في الدنيا ولحظاتها، فمهما غَنِمَت منها فلن تأخذ معك إلى قبرك شيئاً، بل ستأخذ معك حسنات أو ذنوب، أي عمل تعمله، وأن الدنيا ليست سوى دار امتحان تجعل المكنون ظاهراً، فتُظْهِرُ حقيقة النفوس التي تعْبُر فيها.

أيُّ أمرٍ تعيشه في حياتك الدنيا، أو ما تشهده من أحداث، كل ذلك آيلٌ إلى الآخرة حيث يأخذ معناه الكامل، وحيث يَظْهر كل شيء على حقيقته.

الأمر مُعَدٌّ، رحمةً كذلك، ليكون القرآن الكريم مفتوحاً من كل الجهات، بحيث من أينما دخلت في رحابه، فسوف تجد نوراً مُسَلَّطاً على أمورٍ أساسيةٍ وفي غاية الأهمية من واقعك والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

العودات الكثيرة في النص القرآني الشريف إلى ما كابده عليه الصلاة والسلام من تقريع وتشكيك واتهامات، وكذلك الأمر بالنسبة للعودات الكثيرة إلى قضية الطعن أو التبخيس أو التشكيك في القرآن الكريم، فإن ذلك لا يزال واقعاً نعيشه في زماننا على المستوى العالمي بكل أبعاده و إلى أقصى حد، واقعٌ يعاني منه كل من يحاور و يناقش في هذا المجال، ذلك الواقع يظهره سبحانه في كتابه على حقيقته، و يقدم لقارئه الحجة و البينة من خلال ما يسبقه و يليه من آيات تحتاج إلى تفهُّم ذكي و تدبُّر مثل قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [السجدة: 1-3].

وأنت إن لم تدرك حكمة تلك العودات الكثيرة للمواضيع المصيرية أو أدركت معنى وحكمة تلك العودات الكثيرة، ولم تجعلها من قناعاتك فتعمل بها، فذلك دليل أنها قليلة بالنسبة لك وأنت بحاجة لتعود إليها أكثر لتفهم!.

وبشيءٍ قليل من الانتباه والتدبر، يتبين لك، ولكل قارئ للقرآن أن كل ما يبدو لك تكراراً هو عودات مرتبة بحيث تكون في المكان المناسب ومحاطة بكل العناصر الهامة لتحصيل رؤية متكاملة، ما هي إلا توعية ضرورية تفهمك الواقع المعاصر والمصير والمآل النهائي لهذا العالم من حولك، بحيث تحسن القرار والتصرف في كل عمل تعمله.

كل ما يتطلبه الأمر منك هو استقراء ذكي للنص القرآني الشريف، وتدبر صادق له، إذ لا وجود في القرآن الكريم لِما يبدو مفروغاً منه حتى ولو كلمة واحدة بحيث يمكن حذفها من غير أن يختلَّ المعنى.

انظر في قوله سبحانه: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ... ﴿١٤٦﴾ ﴾ من سورة الأعراف، قد لا تستوقف انتباهك عبارة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فتخْطِئُ وتعتبرها كأنها مفروغاً منها في سياق الكلام و تتجاهَلُها، إذ من المحال أن يكون ثمة زيادة أو نقصان في كلام الخالق الذي يقول: ﴿...كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة 117].

عبارة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أبعد ما تكون عن أمرٍ مفروغ منه في سياق الآية الكريمة، بل إنها ذات مقاصد عديدة:

– منها التذكرة الإلهية الرهيبة بهول الطرد من الجنة: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾ [الأعراف: 24-25]، وهي تضع قارئها أمام مفهومها القرآني العميق والمتميّز، والذي يتجاوز أشواطاً بعيدةً عن المفهوم الشائع لها.

فالواجب، إذاً، عندما تلاحظ أي أمرٍ يبدو مفروغاً منه بالنسبة لك، مضاعفة جهودك للتدرج في فهم المقصد الإلهي منه.

أيضاً قد يبدو موضوعاً ما بالنسبة لك كمسلم مفروغاً منه وتتجاهَلُه، ولكن القرآن الكريم، كما تعلم قال عنه مُنَزِّله سبحانه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ص: 87].

لذا؛ فإنه ليس محصوراً في رسالته بالمسلمين، بل يتوجه إلى أي عاقل في أي مكان وحضارة وعصر، ليجد فيه جواباً عن تساؤلاته الأساسية.

لعل أقوى مثال على ذلك، سورة الفاتحة، خاصةً أنه من أول ما تحفظه أنت ويحفظه المسلمون في طفولتهم الأولى من القرآن الكريم، والجميع يتلونه في كل صلاة، لذا قد يغيب عنهم عظمة معنى قوله تعالى: ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: 4] فهي حقيقة إلهية تضطر أي إنسان غير مسلم إلى إعادةَ النظر في عقيدته، وخاصةً إن أكرمه سبحانه بحسن تدبرها من خلال مراجعته للقرآن الكريم، فما يجد نفسه، وهو يبحث عن توضيحٍ عن (المُلك) إلا وهو أمام سورة الانفطار يقرأ قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:17-19]، وهذه الآيات تُظْهِرُ بجلاء المفهوم القرآني الأساسي والجوهري لكل الكلمات المبنية على جذر «مَلَكَ»، ألا و هو: الاستطاعة و القدرة على الشيء أو الأمر، بذلك يصير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ...﴾: «يوم لا تستطيع نفس ولا تقدر أن تفعل أي شيء لنفسٍ أخرى» ولا حتى أي أحد من الخلق.

كما يُسْتَدَلُّ من الآية الكريمة عن يوم الدين من سورة غافر، والتي يجد المتتبع لكلمات «ملك» نفسه واقفاً في حضرتها:

﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

هذه الآية الكريمة تنفي الملكية، بالمفهوم الأساسي الذي بيناه، عن سائر الخلق، و تحصره بالله ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، و باسمه تعالى ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾ خاصةً، وهذا مما يعيدنا إلى فاتحة الكتاب ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: 4]، والتي تبدو كل آيةٍ منها مفروغاً منها بالنسبة للمسلمين، في حين إنها بالنسبة لغيرهم أجوبة ساطعة وعلى غاية من الأهمية تضع غير المسلمين أمام الحقيقة التي كانت غائبة أو مُغَيَّبَة عنهم.

سورة الفاتحة هي جواب لكل عاقل في أي مكان وحضارة وعصر، لكل تساؤلاته الأساسية.

وهي مثال على شواهد كثيرة مفروغاً منها بالنسبة لك ولكل المسلمين، في حين أنها أجوبة ساطعة ومصيرية تضع غير المسلمين أمام الحقيقة التي لا مفر منها.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

لا وجود في القرآن الكريم لِما ما يبدو مفروغاً منه حتى ولو كلمة واحدة

وكل ما يبدو لك تكراراً ما هو إلا إعادة لأفكار يرتبط بها مصيرك النهائي

إن نظرت إلى الكثير من الآيات الكريمة التي تذكر حوادث لوقائع جرت أيام الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام وفي دائرته الشخصية، وظننت أنها سرد لقصة أو وقائع «لحظيةً» مضت وانقضت ولم تعرها أي اهتمام، فإنك بذلك ترتكب خطأً فادحاً.

كل الأحداث المذكورة في القرآن الكريم لاحقةٌ ومطابقة لسابق علمه سبحانه و ترتيبه، وكل ما ورد فيه ذو مدلولٍ عميق، و هو هداية لكل مكان وزمان، وكذلك كل الأحداث والقصص التي تظن أنها ولّت وليست لزمانك الذي تعيش فيه، ما هي إلا أحداث ووقائع جعلها سبحانه في آخر كتاب للبشرية جمعاء ، لما فيها من حكمة بالغة.

عندما تقرأ شواهد قرآنية مثل ما ورد عن أُحُد، أو عن حنين، أو عن الثلاثة المُخلَّفين، أو عن حادثة الإفك أو عن المجادِلة، فتهملها لأنها ذكرٌ لوقائع جرت أيام الرسول الأكرم في دائرته وانقضت. والتي قد تبدو لك لأول وهلة أنها «لحظيةً»، ولكن إن تريثت ونظرت إلى هذه الشواهد بنور من الله فإنك ستجد فيها الخير العظيم ليس لك فحسب بل للبشرية جميعها، ولعل من الأمثلة الهامة على ذلك تلك القصة التي جاءت في أول سورة التحريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [التحريم: 1-3].

وهنا قد تتساءل أنت وأي قارئ للقرآن عن سبب تخصيص آيات لهذه الحادثة العابرة، وقد كان بالإمكان أن تصلنا مثلاً، من خلال السيرة النبوية الشريفة.

هذه الآيات الكريمة كان سبب نزولها أنه كان لنبينا عليه الصلاة والسلام أَمَة وكان كرماً منه يبيت عندها، ولكن لم يَرُقْ ذلك لزوجه السيدة حفصة، فلم تتورع أن تعيب ذلك عليه[1].

أين ذلك؟ وأين عقل ونفس ووجدان الرسول الأكرم! الذي هو في عالم آخر من مهام عظيمة وصلة استثنائية بالله، فضاق صدره من ذلك الموقف، وأراد التخلص منه نهائياً درءاً لمزيدٍ من التعليقات، ورغبةً منه ألا يكون ذلك الأمر حديث زوجاته؛ فحرَّم على نفسه تلك

(1) (عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ يَطَؤُهَا فَلَمْ تَزَلْ بِهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ حَتَّى حَرَّمَهَا عَلَى نَفْسِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ) [التحريم: 1] [سنن النسائي].

الأمة؛ وأسرَّ بذلك إلى السيدة حفصة لترضى، فما لبثت أن باحت السيدة حفصة بالسر للسيدة عائشة وعندها نزلت آيات شاهدنا الكريم من سورة التحريم.

كل ما في هذه الحادثة يبدو لحظياً عابراً؛ ولكن هناك حكمة بالغة:

أولاً: في الفارق الجذري بين التشريع وبين الاجتهاد، فلا اجتهاد في نص تشريعي أمر به خالق الكون، وأمور التشريع هي حصراً بيد الله الذي أوجد الخلق كلهم.

لأن المَساسَ بما أحلَّ وحرَّم الله جل جلاله، من حيث المبدأ وعلى الصعيد الروحي، تجرُّؤ على عظمة المشيئة والحكمة الإلهية، وهو باب كبير مفتوح على مصراعيه لخلل التوازن وللفوضى بين الناس في حياتهم وتعاملهم فيما بينهم.

ما أخطر المَساسَ بما أحل أو حرَّم الله، حتى ولو صدر ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وكان خاصاً به وبأهل بيته، ولشدة خطورة ذلك الأمر، فقد سمى سبحانه تلك السورة بكاملها باسم سورة التحريم وجعل أول آياتها عتاب للنبي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: 1] والسؤال الإلهي:

﴿...لِمَ تُحَرِّمُ...﴾ سؤال رهيب! وكأنه سبحانه يسأل نبيه على أي أساس، وبناءً على أيِّ معطياتٍ تحرم ﴿...مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ...﴾ وذلك لمجرد ﴿...مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ...﴾ وأهمية هذه الآيات الكريمة لإبراز ظاهرة شائعة منذ القدم وإلى زمننا هذا، فكم من أناس طغت عليهم نفوسهم، يوهمون الناس بالتدين والتقى ويتكبرون عليهم من خلال التشدد في محرمات ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحديد: 27]. محرمات لا يتطلب الالتزام بها كرماً ولا سمواً في النفس، بل تزيد القلب قسوة لأنها أصلاً قائمة على جهل وعلمٍ ناقصٍ ودوافع نفسية صرفة، أناس ظنوا أن علمهم تجاوز علم الذي ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: 12] فحرموا ما أحل الله جل جلاله.

ثانياً: ما يبرز أهمية تلك الحادثة والتي عُرِفَت في محكم التنزيل وفي أوائل سورة! هو الموقف الدقيق والحساس للنبي الأكرم عليه الصلاة والسلام، وللعبء العظيم الذي كان عليه.

لم يكن عليه الصلاة والسلام مخلوقاً من نور، بل بشراً من تراب كباقي الأنبياء من آدم

إلى عيسى ابن مريم عليه السلام؛ يجوعون ويعطشون ويمرضون ويتعبون ويتألمون كأيٍّ من البشر.

فأي عبءٍ وأي تقييد شديد لحريته، أن تكون أيّة كلمةٍ يتفوه بها وأي فعلٍ يقوم به، وحتى أيّة حركةٍ، سُنَّةً وتشريعاً للبشرية جمعاء ولآخر الزمان!

فكأن الله جل جلاله يضع نبيه في مواقف مرتبة في سابق العلم، ما كانت لتخطر ببال النبيّ عليه الصلاة والسلام، فما يجد نفسه إلا أداة بيد رب العالمين، يوجهها سبحانه كيف يشاء لتبليغ وتبيان ما يشاء من دينه، وهذا هو حال الأنبياء أجمعين، يضعهم سبحانه في مواقف مرتبة، مثالها سيدنا موسى الذي قال له: ﴿...ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 40]. مواقف وأفعال لتكون بالنهاية في محكم تنزيلِ الكتاب الأخير من العزيز الحكيم إلى العالمين، وليتدبرها العباد.

تبليغ الرسالة الإلهية من خلال مواقف وأفعال النبي يشير، فيما يُشير، إلى ما في الإسلام من واقعية في التعامل مع النفس البشرية.

وكمثال على ذلك عندما أمر الرسول الأكرم، أيام صلح الحديبية، صحابته وقد أَحْرَمُوا، بالذبح وبالتحلل بالحلق، فلم يفعلوا! ثم أكد ثانيةً وثالثةً، ولم يفعلوا! فبأي حالٍ كان عليه الصلاة والسلام، يأمرهم ولا يطيعونه! فدخل على زوجته السيدة أم سلمة فأشارت عليه:

«اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضاً» [صحيح البخاري]!

هكذا النفس البشرية، تتأثر بفعل الآخرين أكثر بكثير من تأثرها بقولهم؛ وخاصةً إن كان الفعل صادراً عن قدوةٍ أو مرجعٍ، أو من هو بموقعِ قوة ما.

الله جل جلاله خاطب نبيه قائلاً: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ [آل عمران: 128]، وأمره أن يقول على الملأ: ﴿... وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ...﴾ [الأحقاف: 9].

عليك النظر لسائر أفعال الرسول الأكرم من خلال أمره سبحانه لنبيه أن يقوم بها، لتكون رسالة للبشرية جمعاء ولآخر الزمان؛ بل وينبغي عليك النظر لسائر القرآن الكريم على أنه دعوة متواصلة لك، كي لا تقف فقط عند سطحية الظاهر.

القرآن الكريم هو دعوة إلى الاجتهاد في التفكير والتدبر، ومعرفة حقيقة المقصد الإلهي.

وهذا ما يريده سبحانه لك ولكل قارئ لكتابه، ومن هذا المنظار تفهم أمره سبحانه لسيدنا الخضر، معلماً لنا، في سورة الكهف:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

ينبغي عليك النظر إلى الشواهد القرآنية التي قد تبدو لك لحظيةً على أنها، في الحقيقة، وقائع ذات رمزية عالية وذات مغزى عميق.

كل الأحداث والقصص التي تظن أنها ولت وليست لزمانك الذي تعيش فيه، ما هي إلا أحداث ووقائع جعلها سبحانه في آخر كتاب للبشرية جمعاء، لما فيها من حكمة بالغة.



ينبغي عليك النظر إلى الأمور المادية التي هي من صميم الواقع، والمعروضة ضمن القرآن الكريم، واعتبارها أساس في السمو الروحي بشكل عملي واقعي.

القرآن والإسلام منهج حقيقي وفعَّال للسمو الروحي؛ إضافةً إلى المراتب العليا في السمو الروحي والتي لا يفتحها غيره، فإنه يسدُّ سائر الثغرات التي تدخل من خلالها بذور الانحراف، ويقطع الطريق على كل الأوهام والضلالات التي تعرقل هذا المنهج الروحي، ويهيّئ أرضية سليمة وقوية لا تميد بك ولا تنهار، تستطيع من خلالها أن تسموَ روحياً وترتقي إلى ما شاء الله.

وخير مثال على ذلك هي سورة النور لأنك تجد في عنوانها ما يبشرك بأمور روحية، ولكن عندما تتشرف وتفتح المصحف مستبشراً بهذا العنوان تطالعك مباشرة الآيات التالية:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:1-4].

وتجد نفسك تخوض إلى قرابة منتصف السورة في آيات من هذا النمط مرتبطة بالدوافع الجنسية، إلى أن تفاجئك آية النور بعظمتها وبهائها.

المفارقة في هذا المثال هي التباين الشديد بين الأمر المادي والمجال الروحي الذي يدل عليه عنوان سورة النور، وهذا الأمر حالة قصوى لأمر مقصود.

هذا التباين يستدعي منك طرح سؤالٍ مفاده: لِمَ إثارة تلك المواضيع قبل آية النور؟

والجواب: أول ما تلاحظه هو أن كتلة الآيات، تلك، والمرتبطة بالدوافع الجنسية، محاطة بآيتين أوّلهما وآخرهما متشابهتين متناغمتين:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: 1].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: 34].

ويتبين لك تماماً أنها تدور حول أربعة مواضيع أساسية متتابعة:

ـ الزنا ـ الإفك ورمي المحصنات ـ الحثّ على الحشمة ـ مساعدة الإماء والعبيد على الزواج، كما أنها تتدرَّج بدءاً:

- من هول فحش جريمة الزنى.
- إلى عظيم إثم الإفك ورمي المحصنات، رغبةً في إشاعة الفحشاء.
- إلى تعليمات، العامل المشترك بينها الحثّ على الحشمة.
- وانتهاءً بدعوةٍ إلى مساعدة الإماء والعبيد على الزواج، صوناً لعفّتهم وكرامتهم.

وإن تفهمت إلى هذا العلم الحقيقي، الذي في سورة النور وأمثالها بمفهومه القرآني الصحيح، لعلمت أن هذه هي الروحانية الحقيقية! وأن هذه الآيات الكريمة التي استهلت سورة النور هي رسالة لكل من تصبو نفسه إلى ما هو روحي.

لأن السمو الروحي الحقيقي لا يمكن أن تصل إليه طالما هناك ثغرات تدخل من خلالها بذور الانحراف والأوهام والضلالات، التي نبَّه لها سبحانه في مستهل سورة النور؛ لأنها تعرقل هذا المنهج الروحي، وبذات الوقت تهيّئك لأن تسير بخطىً سليمة وقوية تستطيع من خلالها أن تسموَ روحياً وترتقي إلى ما شاء الله لك.

يستحيل التقدم روحياً إلا بمعرفةِ وعيِ الأساسيات عنه سبحانه وإن كنت تبحث عن مسيرة روحية حقَّة، فإنه لا يمكن تجاهل الواقع بإيجابياته وخاصة بسلبيّاته.

الواقع، وبكل أبعاده، جانبٌ هامٌّ مما يتعرَّض إليه المرء في حياته الدنيا ولا مهرب من ذلك، إذ لا يستطيع أحد من الثقلين الادعاء أنه أعلى مقاماً في سعيه الروحي من الأنبياء، والذين تعرضوا لأمورٍ من صميم الواقع المادي. ذلك الواقع الذي، وكما ينبغي أن لا ننسى، لا يخرج من تحت الهيمنة الإلهية و لا مما قدّر سبحانه.

فقد كان سيدنا داوود، الممدوح في القرآن، في استغراق روحي يتعبَّد ربه في المحراب، عندما جاءه خصمان ليحكم بينهما في أمر ماديّ:

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: 21-23].

لم يتردد سيدنا داوود عليه السلام في الحكم بينهما على نعجة واحدة علماً أنه سبحانه دلنا على مستواه الروحي بقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص: 18].

إياك أن تتعثَّر على بعضٍ المواضيع القرآنية، ويضيق صدرك منها لِما تجد فيها من تعرُّضٍ لأمورٍ من صميم الواقع المادي، كقضايا القتال والدَّيْن والوصية والإرث وأحكام الطلاق، وخاصةً ما يتعلق بالزنى؛ أمورٌ قد تعتبرها غير منسجمة، بل متنافرة مع المجال الروحي الذي تبحث عنه في القرآن الكريم، وتكون متسرعاً، في المرورِ على تلك المواضيع، أو أن تتجاوزها إلى ما يروقك من مواضيع أخرى، ينفتح قلبك عندها وتعيرها كل الاهتمام.

لا مجال لقراءة اصطفائية للقرآن الكريم، لأنه كلام الله جل جلاله الذي هو أصل الروح، وهو مجال روحي مطلق متجانس من أوله إلى آخره ولا تفاوت فيه أبداً.

إن بحثت عما هو روحي حقيقي وأصيل، تكون مسعوداً، إن وجدت نفسك، أمام القرآن الكريم، لأن نفسك تصبو في سر أعماقها وبفطرتها إلى ما هو روحيّ، وإن لم تلحظ ذلك، والقرآن الكريم لشدة جاذب صفائه وقدسيته ونورانيته، هو وحده، يسمو بك إلى أعالي نور الحق؛ ويبعدك عن سفاسف الأمور لرفعة وسمو وعظمة ما فيه.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

ينبغي عليك النظر إلى الأمور المادية التي هي من صميم الواقع، والمعروضة ضمن القرآن الكريم واعتبارها أساس في السمو الروحي بشكل عملي واقعي.

كلام الله جل جلاله هو مجال روحي مطلق متجانس من أوله إلى آخره ولا تفاوت فيه أبداً.



الذي نزَّل القرآن سبحانه، هو الذي خلق نفوس وعقول الذين يقرؤونه؛ فهو أعلم بها وبما يعتريها.

وهو كذلك سبحانه الذي جعل في خلقه التعدّد والتنوّع من أعلى عليّين إلى أسفل سافلين، لحكمةٍ تنزُّهِه عنهم بالتفرَّد بالأحدية والوحدانية.

فهو جل جلاله أعلم بما خلق ولِمَ خلق، وأعلم بالشيطان الذي هو من أحد الثقلين أي المكلفين من الخلق، والذي هو نموذج للذي استأثرت عليه نفسه، إلى درجة الانقطاع عن المرجعية الإلهية في محاكمة الأمور، لاعتماد المرجعية الذاتية؛ أي: الانقطاع عن نور الحق، والإدبار عنه إلى الشطح والضلال.

لذلك، فقد تفضّل الذي ابتدأ كتابه باسميه الرحمن الرحيم بتدارك قارئ القرآن كي لا تنقصه المرجعية الإلهية، فيسترسل فيشطح، فيصير مع الشيطان وعلى نهجه، فيَضُلَّ ويُضِلّ. ونبَّه إلى ذلك في كتابه الكريم بأماكن كثيرة وكمثال على ذلك، آية كريمة قد لا يدرك المسلم الذي اعتاد قراءتها كم هي عظيمة في هذا المعنى، وهو بذلك كالشاب المعافى الذي لا يدرك قيمة الصحة، ولا يُقدِّر ما به من نِعَم حتى يفقدها، وهي قولُه تعالى:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1].

لعل قوله تعالى ﴿... بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ...﴾ لا يلفت النظر كثيراً.

ولنا أن نتصور انعكاس غياب تلك الكلمتين من الآية الكريمة ليصبح نبينا محمد عليه الصلاة والسلام بيده الصلاحية المطلقة في إخراج الناس من الظلمات إلى النور يُخْرِج من يشاء، وعلى من يريد الخروج التوجه إليه بالسؤال والتوسل؛ أي عملياً: نسب وإضفاء قدرات إلهية على بشر.

لا يمكن استبعاد ذلك الأمر والاستهانة به؛ لأنه استعداد قائم ومتأصل ومتواصل، ذلك الاستعداد لتعظيم الأشخاص ولنسب قوى خارقة لهم، تعظيمٌ يصل إلى حد التأليه، والسبب في ذلك أولاً، الانصراف عن المرجعية الإلهية، وما تتطلبه من حد أدنى من تواصلٍ مع الله، إلى سهولة الهبوط إلى المرجعية الذاتية.

بغياب المرجعية الإلهية تغيب النظرة إلى الأمور من منظار الحقيقة. وتبدأ سلسلة من

المغالطات عند النظر إلى الأمور على ظاهرها، وعندئذٍ ينظر الناس إلى واقعهم من خلال ما فيه من صعوبات، ومن خلال إمكانياتهم ومن خلال إمكانيات غيرهم.

فمنهم مَنْ يتفوق بإمكانياته على غيره، ومنهم من يدَّعي إمكانياتٍ تتجاوز بكثير ما عنده، ويوهم بذلك غيره، ومنهم مَنْ قد يصدِّق، ويحلم أن تكون له مثل تلك الإمكانيات وأكثر.

ولكن الأيام والسنين تذهب بتلك الأحلام، لتزيد ما في واقعهم من صعوبات وعقبات، فتتحول أحلامهم إلى الأمل في مساعدة ومدد أصحاب «الإمكانيات»، عندها تصبو نفوسهم إليهم، وتعقِد عليهم الآمال، وتصير تعظِّم في «إمكانياتهم»؛ إذ لا أمل لهم في غيرها.

وهكذا يبدأ ويستفحل الاعتقاد بقدرات فلان من الأحياء، لينتقل الاعتقاد إلى الولي أو القديس أو صاحب القبر الفلاني، ويستمر الأمر ليصل إلى الاعتقاد الرسمي والتكريس ليصل أخيراً إلى التأليه، كما هو الحال في أديان وعقائد عدّة، وبالنسبة لمئات الملايين من أتباعها.

الذي نزَّل القرآن سبحانه، هو الذي خلق نفوس وعقول الذين يقرؤونه؛ فهو أعلم بها وبما يعتريها.

قوله تعالى إلى نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿... لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾ [إبراهيم: 1] يفتح المجال لتعظيم قدرات البشر إلى درجة الشرك، وذلك بجعل مصير الناس وخروجهم من الظلمات إلى النور بيد خاتم النبيين؛ فيصير عليه الصلاة والسلام، كآخر نبي على الأرض، هو «المُخَلِّص» الذي يتوجه إليه الناس بالرجاء والدعاء والتبجيل والتعظيم.

لذا؛ فهو سبحانه يتدارك قارئ كتابه الكريم بنورٍ وبينةٍ، ليقطع الطريق منذ البداية على أي انحرافٍ، وذلك بقوله: ﴿... بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ...﴾ [إبراهيم: 1].

كمثال آخر لتداركه سبحانه قارئ كتابه الكريم، ما أودعه سبحانه مباشرة بعد معلومة استثنائية في علوها وشفافيّتها وبُعْدِها الشاسع عن التفكير السليم الدارج؛ وذلك في قوله تعالى من سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: 8].

المعلومة الاستثنائية في علوها وشفافيّتها وبُعدِها الشاسع عن التفكير السليم الدارج، هي قوله تعالى: ﴿...بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ ... ﴾.

الخوض في تلك المعلومة، من غير علم حق يليق بذاك المقام ومن غير نورٍ من الله، يفتح المجال للشطح والضلال وكثير من الاضطراب.

لذا، فقد تدارك سبحانه قارئ كتابه الكريم رحمةً ليجعله منذ البداية يقول الصواب: ﴿...سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾!

كذلك فقد تفضّل سبحانه على قارئ القرآن كي لا تنقصه المرجعية الإلهية، فيسترسل فيشطح، فيصير مع الشيطان وعلى نهجه، فيَضُلُّ ويُضِلّ، وتداركه لينفي عنه أي انحرافٍ عندما قال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: 16].

تداركه سبحانه في هذه الآيات لكل من قرأها كي لا تنطلي عليه حجة الشيطان فيظن أنه من الناجين، لأنه تبرأ مما فعله مع الإنسان عندما أمره بالكفر ثم ادعى أنه يخاف الله سبحانه، لتأتي الآية التي بعدها مباشرة نافية ذلك الادّعاء ومستدركة قارئ الكتاب الكريم؛ لتؤكد بجلاء ووضوح عاقبته ونهاية أمره: ﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الحشر: 17].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

عليك الانتباه جيداً إلى المعطيات القرآنية المُعدّة لتدارك كل من يقرأ كتابه والتي نبه إليها سبحانه في كتابه الكريم

والأمثلة على ذلك كثيرة تفضّل بها سبحانه لكل قارئ للقرآن كي لا تنقصه المرجعية الإلهية، فيسترسل فيشطح، فيصير مع الشيطان وعلى نهجه، فيَضُلُّ ويُضِلّ.



النص القرآني الشريف هو الكتاب الإلهي الأخير المنزل على المرسل ﴿... كَآفَّةً لِّلنَّاسِ...﴾ [سبأ: 28] والذي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: 87]؛ أي: إن الحد الأدنى من مستوى الطرح فيه، عالميّ يتجاوز العصور، ليصل إلى المستوى الكوني وليتجاوزه إلى الحقيقة المطلقة.

الكلمات المدروسة فيه ليست مصطلحات شائعة لا داعي للأخذ والرد فيها، وإنما كلمات تعبِّر عن مفاهيم مرتبطة بالألوهية وأساسية في العقيدة.

وهو نصٌّ إلهي متميز بمواضيعه وأسلوب صياغتها وحتى في كيفية طرحها، ولا أدل على ذلك كيف جعل فيه سبحانه أداة في غاية الرقيّ والشفافية، وأساسية في منهج وأسلوب التعليم القرآني؛ ألا وهي: الإشارة، أو ما يمكن تسميته التعليم البصري[1].

في سورة مريم، سيدنا زكريا أولاً ومن ثم سيدتنا مريم؛ كلًّا منهما طُلِبَ منه أنْ يلزمَ الصمتَ وهو يواجه آية.

لقد سُمِحَ لهما باستخدام الرمز أو الإشارة فقط للتعبير عن نفسيهما، وهذا ما تجده أولاً في قصة سيدنا زكريا من سورة مريم:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً
قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ
ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ
فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ
أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 10 – 11].

وفي سورة آل عمران تجد كذلك الاستخدام الصريح لكلمة رمز ثانية في قصة سيدنا زكريا:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: 41].

في سورة مريم كذلك يُطلَبُ من سيدتنا مريم الصمت وعدم الكلام إلا بالإشارة..

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: 26].

وعندما سألها قومها عن وليدها اكتفت بالإشارة:

(1) التعلم البصري أو المرئي: يمثل المتعلم المرئي نسبة تصل الي ما يقارب 65 % من العالم وقد أثبتت التجارب فعالية التعلم البصري على أنه أكثر جاذبية وفعالية من السمع.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: 29].

منهج الإشارة كأسلوب تعليم قرآني دليلك على أن النص الشريف يتميز بخصائص استثنائية تفوق التصور، تلك الخصائص إضافةً إلى ما تشير إليه من الحقيقة، تفتح لك آفاقاً شاسعةً لفهم كلام الله، فهو رسالة للعالمين تشمل البشرية كلها ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: 27-28].

وهناك تأكيدٌ آخر على هذا المنهج القرآني للتعليم تجده في سورة الكهف؛ عندما طلب سيدنا الخضر من سيدنا موسى عليه السلام أنّ لا يسأل عن شيء حتى يسمح له.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ [الكهف: 70].

أي: إن الخضر طلب من سيدنا موسى أن يلتزم الصمت حتى يتعلم مما يراه، ثم يأتي الوقت المناسب للكلام، وعندما نسي سيدنا موسى وتكلم قبل الوقت المناسب سائلاً الخضر عن سبب ما يحدث معهما، كان ذلك الكلام سبباً لنهاية تلك القصة التي قال عنها نبينا عليه الصلاة والسلام: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا» [صحيح مسلم].

وفي رواية أخرى من الباب نفسه في صحيح مسلم تقرأ:

«رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى لَوْلا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ...» [صحيح مسلم].

حتى في هذا الحديث النبوي هناك إشارة منه عليه الصلاة والسلام، عليك الانتباه إليها عندما قال: «وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ...» وهي إشارة لما في هذه القصة من معرفة وعبرة، ولك أن تتصور ماذا كان يمكن أن يحدث لو صبر سيدنا موسى عليه السلام ولم يتكلم واكتفى بما رآه؟.

وهناك تأكيداً آخر على هذا المنهج القرآني للتعليم تجده:

في قصة سيدنا يوسف عليه السلام وإخوته كيف عاد بصر سيدنا يعقوب عليه السلام دون أي كلمة؛ بل عندما أُلقي عليه قميص يوسف عليه السلام.

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [يوسف: 93].

كذلك كيف علَّمَ الله سبحانه دون أي كلمة من قتل أخيه ظلماً كيف يواريه الثرى:

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: 31].

ولعل أخطر مثال: كيف استطاع الشيطان أن يغوي آدم وزوجته دون أي كلمة؛ بل عن طريق الوساوس:

﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾[طه: 120][1].

وإن أحببت أن تتابع في أسلوب التعليم الإلهي الذي جعله سبحانه في الإشارة، ينبغي عليك أنْ تتأمل وتتعلم من قصص: سيدنا آدم ـ إبليس، هابيل ـ قابيل، وسيدنا يوسف، وإخوته كما طُرِحَتْ في القرآن الكريم وتعتبرَ منها.

إنّ فهمك وإدراكك واستيعابك للرموز والإشارات الأساسية في هذه القصص، خطوة من الخطوات في الطريق نحو المعرفة المطروحة في القرآن الكريم والتي لا غنى عنها لك أبداً.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

الله سبحانه جعل في كتابه الكريم أداة في غاية الرقيّ والشفافية، وأساسية في منهج وأسلوب التعليم القرآني؛ ألا وهي: الإشارة، أو ما يمكن تسميته التعليم البصري

منهج الإشارة كأسلوب تعليم قرآني دليلك على أن النص الشريف يتميز بخصائص استثنائية تفوق التصور



(1) جاء في تفسير البغوي «معالم التنزيل»: في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ [طه: 120]: الْوَسْوَسَةُ: حَدِيثٌ يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ.

إن أحببت أن تُفتح أمامك أبواب الارتقاء في تدبر النص القرآني الشريف، وتأخُذَ من نور آفاقه، وأن تسير بانسجام وتوافق معه، وأن لا تقف عند الحد الأدنى من جانبٍ مما يُفهم منه، عليك إذاً تناول سائر شواهد و مواضيع الرسالة الإلهية الأخيرة تناولاً على المستوى القيادي والعالمي والكوني.

هذا المستوى هو أحد السمات الأساسية للنص القرآني الشريف، إذ قد يبدو لك ولأول وهلة أن هناك آيات بعيدة كل البعد عن ذلك المستوى، ولا علاقة لها به، ولكن عند تشرفك بتناول هذا النص من هذا المنظار الكوني ستجد العكس من ذلك تماماً، ولعل أبسط مثال على ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء:16].

إن تشرفت بالوقوف عند هذه الآية الكريمة وتناولتها من خلال كونية القرآن الكريم، تجد على مدار الزمن، أن عليّة القوم هم المترفين المنعَّمين الذين بأيديهم الثروة والسلطة.

فهُم، بتلك النعم وبذاك الجاه والسلطان، يصبحون لأهل الدنيا، رمزٌ للنجاح، وبمنطق خاطئ، دليلٌ على الرضا الإلهي عليهم، كما هو حال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها من قوم قارون:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [القصص: 79].

وبمنطق خاطئ آخر تجده في: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ [الفجر: 15].

بذلك المنطق السطحي، تجد جاذب الاقتداء بأولئك المترفين طمعاً بما حظوا به، جاذبٌ قويٌّ على كل مَن دونهم ممن ليس لهم مرجع، أو التزام بشرعٍ حق.

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء: 16]

هذه الآية الكونية تمثل على مدار التاريخ حال أي بلد أو أي قوم قطعوا أشواطاً بعيدةً في الضلال، وصار لا بد من إيقافهم عند حد، خاصة عندما لا يتورعون عن الإتيان بالمعصية علناً، فيكون ذلك ـ وهم عليَّة القوم وأصحاب السلطة ـ بمثابة الرخصة لمن هم دونهم، فيَقتدون بهم، وعندها يستشري الفساد ويعمّ. وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد فإنه جل وعلا يأمرُ مترفيّ ذاك البلد،

وهو أدرى بهم، ويمنحهم فرصة أخيرة ليعودوا إلى جادة الصواب: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ وهذا الأمر الإلهي يفسره قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

ولكن عندما لم ينتهوا عما أمروا به بل وأصبح علية القوم من الذي وصفهم سبحانه بقوله: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79]، وخرجوا عن حدود الشرع وانتهاك قوانينه بالسيئات وارتكاب المحرمات والكبائر، وفاتهم تلك الفرصة الأخيرة الممنوحة إليهم ليعودوا إلى جادة الصواب ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ عندها: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

كذلك فما أكثر المواضع القرآنية التي تشير بشكل كوني إلى خطورة دور من هم في رأس الهرَم ويمثلون عليّة القوم، وكيف أن مصير الألوف المؤلَّفة مرتبط بهم وبما يصدر عنهم، وهذا ما تجده جلياً في مثل قوله تعالى:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 166-167].

وكذلك في قصة فرعون وما آلَ إليه قومه حين اتبعوه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: 96-99].

القرآن بحقيقته وبمستوياته العليا والقصوى يتجاوز إمكانيات العقل البشري، لأن رسالته وحقيقته ليستا محصورتين بالبشرية بل للثقلين أيضاً؛ لذا فما أكثر المواضع حيث تجد خطاباً إلهياً مباشراً إلى مَنْ برقابهم مصير الألوف المؤلفة، إن لم تكن البشرية جمعاء.

وأول خطأ شائع في التعامل مع تلك الآيات الكونية، النظر إليها كمواضيع وأمور من الواقع المعاشي الشخصي، ولا علاقة لها من حيث الظاهر بأمور كونية وعلى مستوى البشرية، علماً أن الاكتفاء بالحد الأدنى من تناول الآيات القرآنية هو صحيح، ولكن إن فضَّلك الله بعلمٍ وفهمٍ، وأحببت تدبُّر البينات الإلهية من منظار كوني فعليك:

- التخلص من ذلك الإسقاط البشري الذي ينظر إلى تلك الآيات كمجرد أحكام في مسائل تنتمي إلى إطار شخصي محدد.

- ثم النظر إلى تلك الآيات ضمن الإطار القرآني العام المحيط بها.

- وكذلك، تناولها ضمن الواقع بكل أبعاده، لا المحلية، بل القيادية والعالمية التي أشرنا إليها.

عندئذٍ تأخذ عندك الأمور أبعاداً أخرى وتبدأ معانيها الحقيقية بالظهور، وستجد عندها أن أول المعنيّين برسالة القرآن وهدايته من هم في أعلى الخلق، مثل سيدنا جبريل ومن بعده سيد الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، وهذا بحد ذاته تناولاً للنص الشريف على المستوى القيادي والعالمي والكوني ودليله هذه الآية الكريمة من بداية سورة الرحمن: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: 1– 4].

هذا الخطاب الإلهي هو خطاب مطلق: فهو جل جلاله علَّم القرآن، أولاً، ملائكتَه، وخاصة سيدنا جبريل عليه السلام. ثم كان عليه الصلاة والسلام أول الثقلين علماً به، ومنه عليه الصلاة والسلام سمع الإنس والجن.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير إن:

أحببت أن تفتح أمامك أبواب الارتقاء في تدبر النص القرآني الشريف، وأن تأخذ من نور آفاقه، وتسير بانسجام وتوافق معه، عليك تناول سائر شواهد ومواضيع الرسالة الإلهية الأخيرة تناولاً على المستوى القيادي العالمي وإن وفقت إلى ذلك ستجد:

أنه رسالة كونية على مستوى البشرية.



إن كانت فطرتك سليمة وبحثت في عالم النصوص الصادرة عن نفوس وعقول بشرية تفسر القرآن الكريم، ثم عدت إلى القرآن، فسوف تشعر بمفارقة كبيرة.

سوف تشعر بوضوح أن عالم النصوص البشرية والذي كنت تخوض فيه، أشبه ما يكون بقاعاتٍ وممرات مكتبة تخصصية، حيث تصطف مجلدات وشروح وألوف الملفات والأحكام واجتهادات، وفي الواقع عالم ورقي مغلق، ما أبعده عن انفتاح القرآن الكريم.

العالم الذي يجول فيه قارئ النصوص، ليس العالم الذي يفتحه القرآن؛ بل عالم كُتَّابِ تلك النصوص. أما القرآن الكريم، فهو انفتاح على واقع وحقيقة عوالم شاسعة؛ لذا كان لا بد لك، ولحسن تدبر القرآن الكريم، من الخروج من مجالس النصوص الورقية، وهي كل ما كتبه البشر عن القرآن الكريم مع احترامك التام لها، ثم السعي في واقعية وحقيقة عوالمه، و النظر إليه على أنه كلام الخالق جل وعلا الذي خلق الأكوان كلها سبحانه!.

عليك تَفَهمُ كتابه سبحانه، من خلال واقعية وحقيقة عوالمه بشكل عالمي، وليس كما يراها أصحاب مجالس النصوص الورقية، الذين يعتبرون آيات كثيرة واضحة بسيطة لا إشكال فيها حتى أنها لا تستدعي مراجعة التفاسير، ومن الأمثلة الجلية على ذلك قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: 14].

ما ذكَّرنا به سبحانه في هذه الآية الكريمة هو من صميم الواقع، مقدَّرٌ في سابق علمه وتحت هيمنته؟ لأنه ثمة علاقة وثيقة بين الواقع بحقيقته، وبين المُشاهد وعقله بطاقاته القصوى؛ لذا عند تناولك للقرآن عليك الأخذ بعين الاعتبار، ذلك الواقع الذي أوجده منزلُ القرآن سبحانه، والذي أوجد المُشاهد الذي يشهده وعقله؟

إن نظرت بشكل حيادي للقرآن الكريم، فأول ما يستوقف انتباهك تلك المفارقة الصارخة؛ إذ ما أندر ذكر الصحراء في القرآن ككتاب دين قوم يعيشون في بادية وصحراء، وبالمقابل ما أكثر ذكر أمور بعيدة عن الصحراء كالعمران مثلاً، وخاصةً البحر، لدرجة أنه لو عرض على شخص لا يعلم عنه شيئاً، وقيل له: إنه كتابٍ معتمد في دينٍ من الأديان، وقرأه، لتساءل: «هل أصحاب هذا الكتاب بحَّارة؟».

الآية الكريمة التي نتشرف بالوقوف في حضرتها، وردت في جملة آياتٍ ليست موجهة إلى المسلمين أو المؤمنين حصراً، وإنما هي دعوة صريحة من الخالق جل جلاله إلى البشرية جمعاء للتفكُّر فيها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ...﴾ [النحل: 14]، هذا كلامُ الخالق رب العالمين جل جلاله، وهو بالضرورة أبعد ما يكون في مقصده ورسالته عن الأمور البسيطة والمفروغ منها.

إذاً، فالحدّ الأدنى من حسن تناوله يقتضي النظر إليه من خلال الواقع بكل أبعاده، خاصة أنه موجّه إلى البشرية جمعاء، وهذا يستدعي إذاً: التفكُّر بأهمية حجم الموارد الغذائية البحرية في العالم، والتفكُّر بالدول التي تُشَكِّل عائدات الصيد جانباً هاماً من دخلها ومواردها الغذائية. وكذلك بالمعارك التي تجري حول تقسيم حصص الصيد البحري، وبالمعارك على تحديد المياه الإقليمية، بل كيف غيرت عائدات الصيد مجرى التاريخ في كثير من بقاع الأرض ومثالها:

بلجيكا وهولندا أواخر العصور الوسطى إلى ما بعد عصر النهضة؛ كانت عائدات الصيد من العوامل الحاسمة في نهضة وثراء تلك المناطق لتوفر سمك الرِّنجة بكثرة في بحر الشمال المتاخم لتلك البلاد، فقد كان يكفي أن تُلقى الشباك في البحر، لتتقطَّع من كثرة السمك.

سبب ازدهار اقتصاد الصيد آنذاك، يكمن في تعاليم الكنيسة التي تحرِّم أكل لحم المواشي أو الصيد البري أو الطيور يوم الجمعة، وكذلك فترة صيام الأربعين يوماً قبل عيد الفصح، وكذلك أياماً أخرى على مدار السنة؛ أي: قرابة ثلث السنة يحرَّم فيها أكل أي غذاء من منشأ حيواني عدا السمك، وكان الالتزام بتلك التعاليم آنذاك وراء زيادة الطلب على الأسماك ورواج تجارتها بشكل كبير.

لقد كان سكان بلجيكا وهولندا يقومون بتجفيف أطنان الأسماك وحفظها بالملح لتصديرها إلى إيطاليا وفرنسا وألمانيا، وتجارتهم تلك، أدّت إلى ثراء بلادهم، والأهم من ذلك إلى نهضتها وتطورها الكبير لاتصالها بمراكز حضارية مثل إيطاليا.

لولا اقتصاد الصيد في بلجيكا وهولندا، لأخذ تاريخ أوربا مجرى ثانياً مختلفاً تماماً، ولبقيت تلك البلاد على تخلفها وعزلتها وتواضع مواردها الزراعية.

إضافة لكل ما سبق هناك ما يستوقف الانتباه في الآية الكريمة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل: 14]، هو تحوُّل الخطاب الإلهي من صيغة المخاطب بالجمع ﴿...لِتَأْكُلُواْ ... وَتَسْتَخْرِجُواْ ... وَلِتَبْتَغُواْ ... وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، إلى المفرد في قوله: ﴿...وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ...﴾؛ أي: إن الخطاب تحوَّل من الناس إلى الرسول الأكرم ومن يخلفه من رؤوس الأمة، فالجملة الإلهية إذاً: دعوة للتأمل والتفكر، لا على مستوى متنزِّه على شاطئ البحر، بل على مستوى أولي الأمر.

﴿مَوَاخِرَ﴾ بالجمع، تُشير مباشرةً إلى أساطيل؛ أي عملياً: أساطيل تجارية أو عسكرية؛ أي: ما هو أساسي في الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والسياسية.

فقد كانت تلك الأساطيل أساس ثراء وقوة نفوذ البندقية لقرون، وكانت أساساً لثراء وازدهار تجارة الهولنديين، وكانت أساساً لقوة وهيمنة الإسبان والبرتغال لقرون، وأخيراً لهيمنة الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس، ومما لا يزال ساري المفعول حتى أيامنا.

هذه الأساطيل تستوجب تطوير التقنيات اللازمة لتفوُّقها.

هذا مما دعا بطرس الأكبر قيصر روسيا، وقد أدرك أن لا دولة عظمى إلا بأساطيل عظمى، إلى التنكر والعمل كنجّار هو وجملة من أمراء الروس في حقول بناء السفن الهولندية، وذلك لمعرفة سر تفوقها.

﴿... وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ...﴾ التفكر في تلك الأساطيل يستوجب التفكر في أهمية ما كانت تحتاجه من معرفة عميقةٍ بالتيارات الهوائية والمائية البحرية، والتي هي من آيات الله في كوكبنا.

والسعي لبناء تلك الأساطيل كان لها دور حاسم في تطوير كل ما يتعلق بالخرائط وبتحديد المسافات من خلال تعيين خطوط الطول والعرض، إضافة إلى تطوير رصد النجوم للملاحة.

والسؤال الآن: هل ما تطرقنا إليه يجري في كون آخر لا علاقة لمنزِّل القرآن به؟ أم أنه واقع نعيشه؟ وهل ما ذكرناه حوادث عابرة في تاريخ البشرية، أم هي أمور كان ولا يزال لها دور أساسي في واقعنا؟.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

لا بد لك، ولحسن تدبر القرآن الكريم، من النظر إليه على أنه كلام الخالق جل وعلا الذي خلق الأكوان كلها سبحانه! وليكون لك ذلك عليك الخروج من مجالس النصوص الورقية
وهي كل ما كتبه البشر عنه مع احترامك لها، والسعي في واقعية
وحقيقة عوالمه التي لا تنتهي.



عليك تناول أي موضوع قرآني، بكامل واقعيّته في الزمان والمكان، لأن ذلك يفتح لك باباً، تتقدّم فيه لتدبره و فهم كلامه سبحانه، ومثال ذلك:

الآية الأولى من التنزيل في سورة العلق قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: 1-3]. الملاحظ فيها عدم ورود لفظ الجلالة، بل لفظ «رب».

لفظ الجلالة كان معلوماً وشائعاً بين العرب آنذاك، فالنبي الأكرم عليه الصلاة والسلام هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، والسؤال لِمَ كانت ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ...﴾، ولم تكن «اقرأ بسم الله»؟ ولِمَ لم يرد فيها لفظ الجلالة بدل لفظ «رب»؟

إن عدت إلى زمن التنزيل بكل واقعيته، تجد آنذاك أن مفهوم الناس من الأمم عن لفظ الجلالة لم يكن مفهوماً صحيحاً؛ إذ كان يشير إلى إلهٍ أعظم غير واضح في صفاته، منقطعٍ عن هذا العالم ومنصرف إلى شؤونه انصرافاً تاماً، تاركاً الأمر لآلهةٍ أخرى.

بذلك فإن سمع أحدهم تلك الآيات الأولى، وبلفظ الجلالة بدلاً من لفظ «رب»، لارتبطت تلك الآيات بمفهومه الخاطئ عن لفظ الجلالة، وبما فيه من تداعيات وأفكار جاهزة ومواقف مسبقة، ولحَجَبَ ذلك المفهوم الرسالة القرآنية عن سامعها.

وكمثال للتقريب لو أنت جئت نفراً من الناس يعرفون «زيداً»، كل واحد منهم يعرفه بدرجةٍ مختلفة وبانطباعٍ متفاوت، وقلت لهم: سأحدثكم عن «زيد»! فأي كلام سوف تقوله لهم، وبأحسن الأحوال، سيلتصق بقناعاتهم عن «زيد» ثم لفترة زمنية قصيرة يتلاشى، وعلى الغالب لن يؤثّر فيهم لاكتفائهم بما علِموه مسبقاً عن زيد.

أما لو جئت أولئك النفر وقلت لهم: سأحدثكم عن رجلٍ فَهُمْ عندئذٍ، كالصفحة البيضاء الجاهزة يتلقون منك كل جديد عن ذاك الرجل من غير تدخل.

ثم بعد إذ حدثتهم عن الصفات الحقيقية لذلك الرجل، ورسختها في قناعاتهم، تستطيع عندئذٍ أن تقول لهم: هذا الرجل هو «زيد».

وهذه رحمة منه تعالى وفضل؛ لأنه أعطى أوائل من سمع القرآن فرصةً للتعرف عليه سبحانه، وجنّبهم حجب الآراء الجاهزة، عندما عرّفهم بربٍّ غير ربهم، رب الرسول الأكرم. ثم رويداً وقد نزل الحد الأدنى من الأساس الذي لا بد منه للتعرف على الله جل جلاله، بدأ

يظهر لفظ الجلالة، وعلموا أن ذاك الرب سبحانه هو الله، وهذا ليس سوى تبيان لجانبٍ من حكمة ذلك الورود، من خلال النظر إليه بكامل واقعيته في الزمان والمكان.

وقوفك عند ما أشرته إليك، يجعلك عند قراءة القرآن أكثر وعياً وتقديراً لأهمية التأكيدات الإلهية الكثيرة، حين يربط سبحانه بين لفظ «رب» ولفظ الجلالة في مثل قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾

[الأنعام: 102].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: 3].

وهذه الآيات الكريمة بالغة الأهمية لكل من قرأ القرآن، لأنها تدعو إلى عمليةٍ عميقة وراقية لتأصيل الترابط الصحيح لمفهوميّ الربوبية والألوهية في القلوب والعقول.

موضوع لافت للنظر؛ وهو مثال آخر لجانبٍ من حكمة النظر إليه بكامل واقعيته في الزمان والمكان، فعلى مدى صفحات القرآن الكريم تجد ذكر فرعون على أنه الحاكم لمصر وهذا الذكر يعود مراراً، إلا في سورة يوسف فأنه لم يذكر اسم فرعون أبداً، بل يذكر دائماً اسم الملك على أنه حاكم مصر كما في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: 43].

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: 50].

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: 54].

الحاكم لمصر أيام سيدنا يوسف هو الملك وليس فرعون، فهْمُ الأهمية البالغة لما تشير إليه الآيات الكريمة لذلك الموضوع، يقتضي منك أولاً الاجتهاد في استحضار سائر المعلومات الموثقة عن ذاك العصر، وكأنك تعيش الواقع آنذاك بكل أبعاده.

الهكسوس قوم أتو من الشام وفلسطين إلى مصر، والمختلفين عن المصريين اختلافاً تاماً في تقاليدهم وعقائدهم، أقاموا أولاً في منطقة دلتا النيل، ثم احتلوها وأقاموا حكمهم

فيها، ثم توسّعوا باتجاه الجنوب تدريجياً طاردين النظام الفرعوني، ليحجِّموه أخيراً في دويلة صغيرة في الجنوب تحت سيطرتهم.

استمر احتلال الهكسوس لمصر أمداً طويلاً، إلى أن طردهم المصريون منها بعد معارك عديدة وطاحنة، قُتِلَ في أولاها فرعونهم.

باستحضار تلك المعلومات، تفهم، مثلاً، جور المصريين على بني إسرائيل والنقمةَ عليهم؛ لما كان لهم من مكانة عالية عندما كان الهكسوس هم حكام مصر أيام سيدنا يوسف.

ذلك الواقع التاريخي، والذي ترك أثراً عميقاً في نفوس المصريين، لا بد من استحضاره لفهم عدم ذكر اسم فرعون بل الملك على أنه حاكم مصر وهذا يوصلك إلى فهم جواب فرعون و سحرته و حاشيته في سورة طه، على طلب سيدينا موسى و هارون الذي كان واضحاً و صريحاً: ﴿...إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ...﴾[طه: 47]. وخاصة كلمة: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ ولم كان جواب فرعون وسحرته و حاشيته: ﴿...إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾؟ [طه: 63]. وهنا يتضح لك سبب ذلك الجواب في نهاية الآية الكريمة ﴿...وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ...﴾ أن هذا الجواب سببه الجرح العميق الذي تركته ذكرى احتلال الهكسوس لمصر، وخروج كثير من المصريين عن دين الفراعنة تأثراً بفترة سيدنا يوسف و ما بعدها، وصولاً إلى إنكار فرعون نفسه ذاك الدين أيام أخناتون.

أخذك بعين الاعتبار لحقيقة تناول أي موضوع قرآني، بكامل واقعيّته في الزمان والمكان، يفتح لك باباً، تتقدّم فيه لتدبره وفهمه، ذلك لأن منزِّل القرآن سبحانه، هو خالق كل شيء وكل أحد. والله سبحانه هو المهيمن والشهيد على القرآن وعلى كل حدث. فهو أعلم علماً شاملاً مطلقاً بوقائع كتابه الكريم وبما ذكره فيه، ولا يستطيع مخلوق تصوُّر مدى إحاطة ونفاذ علمه بما جعله في هذا الكتاب.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

عليك تناول أي موضوع قرآني بكامل واقعيّته في الزمان والمكان لأن ذلك

يفتح لك باباً تتقدّم فيه لتدبره و فهم كلامه سبحانه

في مواضِع كثيرةٍ من القرآن الكريم، ينبغي عليك مضاعفة الانتباه، ورفع مستوى رهافة الحِسّ تجاه شيء هام هو تبدلات نبرة النص الشريف.

وهناك مثال هام من سورة يوسف حيث أنّ عَدَم الانتباه إلى نبرة الكلام، أو نقص رهافة الحس تجاهه، يبعدك عن حقيقة مجريات الأمور لهذه السورة الشريفة، وعن حقيقة رسالة السورة، خاصة عند إخباره سبحانه عن سيدنا يعقوب كيف حزن على ولده سيدنا يوسف وما آل إليه حاله من الحزن: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84].

ما جاء على لسان سيدنا يعقوب يحتاج منك الانتباه إلى التبدلات في نبرة الآية الشريفة ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، وهي واضحة لا صعوبة تذكر عندها لأنه من الواضح أن هذا الأسف ليس أسف أبٍ على فقدان أو فراق ابنه أبداً، كما جنح إلى ذلك أكثر المفسرين؛ بل أسف نبيٍّ يمثل أعلى سلطة روحية في زمانه، على ما صدر من خليفته سيدنا يوسف تجاه إخوته، مما يبدو انتصاراً لنفسه على إساءتهم إليه.

والقصة واضحة في القرآن الكريم وهي أن سيدنا يوسف عندما جاء إخوته إليه أول مرة، وبعدما جهزهم بجهازهم، وعندما همّوا بالعودة إلى ديارهم، أراد سيدنا يوسف تلقينهم درساً يكون لهم سبباً يتداركون به أنفسهم بالتوبة والاعتراف بالخطأ، عندئذٍ وضعهم في مأزق وطالبهم بأن يأتوه بأخٍ لهم من أبيهم. طلبٌ ـ بالواقع ـ صعب؛ إذ إنه هو أخٌ لهم من أبيهم!

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: 59-60].

اللافت للنظر في الأمر، وبقوة، عدم دهشتهم وعدم سؤالهم: «وما أدراك أن لنا أخٌ من أبينا؟».

السبب في ذلك: ردةُ فعلٍ نموذجية صادرة عن اللاوعي.

ذلك اللاوعي الذي دُفِنَت في أعماقه جريمة التخلص من أخٍ لهم من أبيهم، أي سيدنا يوسف. ألَمُ إثمِ هذه الجريمة عبءٌ كبير على اللاوعي؛ لذا فهم يتهربون منه بالتناسي وبعدم إثارة الموضوع وإن أُثيرَ، فهم يسعون، تهرُّباً، لإغلاقه بأسرع ما يكون.

لذا؛ لم يناقشوا، بل تجاوبوا في الحال: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف: 61]

هنا بدأ سيدنا يوسف تلقين إخوته ذلك الدرس الذي أراده لهم، فقد جعلهم في أعماقهم، بوضعٍ نفسي غير مريح بإثارة مسألة الأخ من أبيهم، ومنع عنهم الكيل، وجعلهم في إرباك مراودة أخيهم عن أبيهم، يفكرون في ذلك طوال المشقة البالغة لقطع المسافة الشاسعة بين ضفاف النيل وفلسطين في صحارى وقفار، أيام قحط ومجاعة، والأكثر من ذلك: أنهم عائدون إلى أهلهم صفر اليدين!

وعند وصولهم، تقبّل سيدنا يعقوب الأمر؛ بل وساهم في متابعة درس يوسف لإخوته، وذلك في تقريع وإرباك أبنائه عند طلبهم بنيامين: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:64].

إن ما جعل سيدنا يعقوب أكثر تقبُّلاً للأمر وإسهاماً في درس يوسف لإخوته، ما لمسه منه من رأفةٍ، وقد زودهم بشيء من القوت وردّ إليهم ـ من حيث لم يشعروا ـ بضاعتهم التي بها يُقَايضون الكيل، لتشجيعهم على العودة إلى مصر: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ٦٥ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ٦٦ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 65-67].

بذلك فقد يسّر سيدنا يعقوب عليه السلام لقاء يوسف وبنيامين على انفراد.

ثم تابع سيدنا يوسف درسه لإخوته عندما جعلهم يعودون إلى أبيهم ليُخْبروه بسرقة بنيامين صواع الملك، عندها سيدنا يعقوب لم يتابع مع سيدنا يوسف الدرس الذي أراده لأخوته ولم يتقبل هذا الأمر، بل وكان ما صدمه وأثار أسفه هو تلفيق تهمة سرقة الصواع؛ لعلمه أن بنيامين لم يسرق؛ لذلك فقد قال سبحانه متداركاً قارئ القرآن، كي لا يظنّ بأن نبيّه يوسف لفّق وكذب انتصاراً لنفسه: ﴿...كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...﴾ [يوسف: 76].

لم يتقبل سيدنا يعقوب هذه المرة درس يوسف لأخوته لأنه جعلهم يتكبدون عذاب قطع المسافة الشاسعة بين ضفاف النيل وفلسطين، وللمرة الرابعة، في الصحارى والقفار،

في مخاطر أيام القحط والمجاعة، وصُدِمَ بقسوة يوسف تجاه إخوته، خاصةً أنه أدرك أنهم سيضطرون إلى مكابدة عذاب ومهالك قطع تلك المسافة الشاسعة مرتين أخريين، خامسة وسادسة، من غير طائل.

سيدنا يعقوب عليه السلام ابن نبي، وعمه نبي، وجده نبي، وهو نبي ورأس الزعامة الروحية في زمانه، والأكثر من ذلك، هو إسرائيل[1]، ويوسف وإخوته هم بنو إسرائيل!

لذلك، فهو عليه السلام توّاقٌ ليكون أبناؤه طليعة أهل الإيمان، بمثابة صفحة جديدة في تاريخ البشرية من السلام والتفاهم والاتفاق والاجتماع على الحق، ويريد ليوسف ـ وهو يعلم أنه خليفته في النبوة ـ أن يقود إخوته لتحقيق ذلك.

أسِفَ على يوسف وابيضت عيناه من الحزن عندما أدرك أن يوسف قد أخذ منحى آخر، وأن خلافه مع أخوته لم يزل قائماً، ولعل السبب في ذلك أن سيدنا يعقوب عليه السلام نموذج للزعيم الروحي الذي، ولشدة وعيِه لهول يوم القيامة، ولشدة نكران ذاته وتعاطفه مع غيره يرجو الهداية للناس أجمعين في عالم من السلام والتفاهم.

بالمقابل، فإن سيدنا يوسف عليه السلام يمثل الزعيم الروحي المتبرئ مما تصبو إليه نفسه من خير، والعامل بناءً على ما هداه الله وعلّمه وفهّمه من حكمته في خلقه.

لقد علّم الله سيدنا يعقوب عليه السلام وأخبره بما سيكون من أمر بنيه:

﴿... وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾، ولكن إلى حد.

إذ لم يُعْلِمه، مثلاً، بأمر تهمة سرقة الصواع؛ لذلك فقد قال سبحانه:

﴿...كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...﴿٧٦﴾﴾.

﴿...نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ ...﴿٧٦﴾﴾، أي سيدنا يوسف عليه السلام.

﴿...وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ...﴿٧٦﴾﴾، أي سيدنا يعقوب عليه السلام

﴿...وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾﴾ أي الله سبحانه وتعالى.

فالموقف السليم، إذاً، وبشهادةٍ من الله:

---

(1) قال الشوكاني – رحمه الله – في تفسيره فتح القدير 1/ 91: اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه عبد الله، لأن «إسر» في لغتهم هو العبد، و«إيل» هو الله، قيل: إن له اسمين، وقيل: إسرائيل لقب له. والله أعلم.

﴿...نَرْفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ ...﴾، هو موقف سيدنا يوسف عليه السلام بما فيه من حزم وصرامة.

أما تعاطف سيدنا يعقوب الزائد، والذي تجاوز حكمة الله في خلقه، ورغبته أن يكون ابنه على نهجه، فقد أَوْدَيا ببصره.

لذا فقد ارتد بصيراً عندما أُلقِيَ على وجهه قميص يوسف، عندها أدرك، من ريح القميص، أن ما صدر عن يوسف وخاصة تلفيق تهمة السرقة، لم يؤثِّر سلباً في مقامه عند رب العالمين، لا بل على العكس، فقد استدل من ريح القميص أن يوسف على أحسن ما يكون من نقاءٍ وصفاءٍ ومن علو مقامٍ عند رب العالمين، فلم يعد أي داعٍ للأسف ولا أدل على ذلك من قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

وكانت النتيجة الأخيرة لهذا الدرس الذي لقنه سيدنا يوسف لأخوته هو دليل أن ما فعله معهم كان عين الصواب وهذا باعتراف إخوته بذلك:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: 91].

بل وأكثر من ذلك كيف تسامح معهم وطلب لهم المغفرة، وهذا دليل علو مقام سيدنا يوسف عليه السلام:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: 92].

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

عليك الانتباه إلى تبدلات نبرة النص الشريف؛ لأن ذلك يوصلك مباشرة إلى حقيقة مجريات الأمور لكثير من المواضِيع القرآنية، وعَدَم الانتباه إلى نبرة الكلام، أو نقص رهافة الحس تجاهها، يبعدك عن المقصد الإلهي لها، لذا ينبغي عليك مضاعفة انتباهك، ورفع مستوى رهافة الحس عندك لتبدلات نبرة أي آية في كتابه الكريم

النص القرآني الشريف يتطلب منك حساً مرهفاً، ونباهةً عالية لفهمه وتدبره، والتفاعل مع كلماته، التي أعدها منزِّلها لتقودك بنوره سبحانه إلى الارتقاء في فهم الرسالة الإلهية، التي أرادها لك، ومعرفة بيت القصيد منها.

فوائد هذا التفاعل هو طريقك لفهم آيات كتاب الله وتعليمك؛ أولاً: البحث عن بيت القصيد الذي بدوره يوصلك لمعرفة الوجهة التي يريدها لك جل جلاله إتباعها.

كنزٌ من كنوز القرآن العظمى: هو تَعَلُّمُكَ البحث عن بيت القصيد، ويبدأ بالنظر إلى أي شاهد قرآني مدروس على أن فيه كَمّاً عظيماً من معلوماتٍ استثنائية تستوجب منك منهجيةً، وتفكُّراً للتعرف تدريجياً على مغزاها وعبرها، والارتقاء إليها ثم تمثُّلها وتطبيقها، وليس النظر إلى الشاهد القرآني المدروس كمجرد إخبار بما جرى أو بما سوف يجري.

تَعَلُّمُكَ البحث عن بيت القصيد هو منهجٌ قائمٌ على سؤال مفاده:

«ماذا يريد منّي سبحانه أن أفهم من هذه الآية وما هو المقصد الإلهي منها؟».

إذ لا مجال في حسن تدبّر القرآن الكريم اعتمادَ منهجٍ قائم في حقيقته على سؤالٍ من نمطِ: «ماذا تراني أفهم من هذه الآية؟»، لأن هذا المنهج يفتح أمامك الباب واسعاً للجنوح بعيداً عن المقصد الإلهي.

في رسالتي هذه أُبيّن لكَ أحدَ الشواهدِ القرآنية التي إن نظرت إليها من خلال بحثك عن بيت القصيد زالت الإشكالات التي وقع فيها الكثيرون ممن وقفوا عندها، ولم يسألوا أنفسهم ماذا يريد سبحانه أن نفهم من هذه الآية؛ لذا غاب عنهم بيت قصيده؟

قوله تعالى من سورة [ص]: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ لفهم هذه الآية وعدم الوقوع في أي إشكال، لابد لك أن تنظر إلى الموضوع المثار فيها بكامل واقعيته، ويبدأ ذلك:

أن تعلم أولاً أن سيدنا سليمان وُلِد في عز مُلك أبيه سيدنا داود عليهما السلام، ليرثَه وليملك بعده عزاً أعظم كما في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: 16]، في تلك الظروف التي أوتي فيها سيدنا سليمان من كل شيء عُرِضت عليه، و أمامه، أفخر الجياد، ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ

﴿بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ [ص: 31]، بما ترمز إليه من عزٍ وبهاء وثراء، كما يكون لملوك وأمراء وأثرى أثرياء الماضي والحاضر، وجُعلت تجري بأقصى سرعتها في استعراضٍ بهيٍّ لإظهار طاقاتها في المعارك.

فاستحوذ جمال وبهاء ذلك الاستعراض عليه.

ولكنه عليه السلام وكما وصفه سبحانه: ﴿...نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 30]، وقد جُبِلت نفسه بالصلة بالله وتعلّقَ قلبُه به، فإنه أحسّ بوحشة الانقطاع عنه سبحانه ولو للحظات، فتذَكّر، فنَوّرَ الله بصيرته وأنطقه بإحدى درر القرآن: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص: 32]، حيث شخّصَ نقطة ضعف خطيرة في الإنسان ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8]، يُستَدرَج بها إلى الهاوية.

إذ يتلاشى حذر الإنسان أمام ما يبدو له خيراً، ويندفع إليه ساعياً بكل قواه حتى يحظى به؛ لذا كان سيدنا سليمان، بصفته نبيّاً مرسلاً أَوْلى من يكون واعياً لحقيقة ذلك؛ عندما قال: ﴿...إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي...﴾ [ص: 32].

وما كان منه، إلا أن سارع بتأديب نفسه ليكون قدوة لغيره، وذلك بالتحول من موقع المَلِك الذي يتنعّم بملكه، إلى موقع العبد لمالك الملك جل جلاله، ليظهر كأدنى الناس في السلّم الاجتماعي، أي كالسائس الموكل بتنظيف الخيل مسحاً للاعتناء بها، وصار، إنكاراً لذاته، ولأي تميُّزٍ اجتماعي عن غيره، يمسح سوقها وأعناقها.

فلا خير في «خير» يَشغل القلب عن الله.

وسارع سيدنا سليمان عليه السلام، إذ إنه أواب، لتدارك خطأ الانشغال بحب الخير، بالتواضع وإنكار الذات ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [ص: 33].

وليكون عليه السلام بذلك التبرُّؤ من الحول والقوة وبالافتقار إلى الله، لائقاً بذكره في الوقت الذي يذكره فيه الأنبياء والصالحون. خاصة أن سيدنا داود والذي كان سيدنا سليمان خليفته في النبوة قال عنه سبحانه ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص: 18]؛ إذ ما أحوج المرء إلى ذكر الله في العشيّ للعودة إلى أنس وطمأنينة وسكينة ونور القرب منه سبحانه، بعد إذ أُثْقِلَت نفسه وأظلمت بما توغّل فيها تدريجياً من مشاغل الدنيا والناس طوال

نهاره، ولو كانت تلك المشاغل «خيراً». ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾ [الكهف: 28].

جليٌّ في هذا الشاهد الذي تشرفنا بالوقوف عنده، أن بيت القصيد منه متعلق بأمور أساسية وبالغة الأهمية في الخلافة والرئاسة والحكم، وعلى المستوى الأقصى والأعلى لها عالمياً، وإن تابعت في البحث عن بيت القصيد فاعلم أن كل ما ورد عن سيدنا سليمان، في كتاب الله هو كنزٌ من كنوز القرآن العظمى مُنع عن كثيرين ممن وقفوا عنده. وغاب عنهم تماماً بيت قصيده، وخاصة ما جاء في سورة النمل عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: 30]؛ وصولك إلى بيت القصيد في هذه الآية الكريمة يفتح أمامك باب من أبواب علوم الخلافة التي جعلها سبحانه للخاصة من عباده، ولا يتم لك الارتقاءُ في تدبرها إلا وأنت مفتقر لِما يريده الله لك من فهم بيت القصيد منها.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير إن:

لم يجتهد قارئ القرآن بحثاً عن فهمِ بيت القصيد من القصص العظيمة التي

جاءت في كتابه الكريم؛ بل ويُسقطُ فهمه المحدود عليها؛

عندها يمُنع عنه فهم ما يريده سبحانه أن يفهمه أيّما منع.



إذاً... فلنبدأ من جديد..

لمعاني القرآن الكريم أسوار منيعة، ولا يمكنك الدخول إليها إن لم يجعل الله لك نوراً تهتدي به ﴿...نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: 35].

لكل سور هناك باب تدخل منه إلى رحاب القرآن وآياته، وحين تتوغل تجد سوراً آخرَ له باب ينفتح على مقامات أعلى، ثم بعده سور وباب إلى أعلى وأعلى، وهكذا إلى ما شاء الله، ولا مجال للارتقاء في فهمك للقرآن من غير فتح أبواب هذه الأسوار والتي منها:

1 – سور وحدة القرآن: ومفتاح بابه هو النظرة الشاملة، أي الأخذ بكامل النص القرآني الشريف عند تناول أية كلمة أو موضوع فيه، ومثالها ست آيات كريمة تتحدث عن سجود الملائكة لآدم منها:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: 34]، وإن لم تأخذ السابعة فلن تعرف أن إبليس هو من الجن وليس مَلَكاً ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: 50] وهناك:

2 – سور المفاهيم: ومفتاحه تطوير مفهومك عن الكلمات الواردة في كتاب الله، والتخلّص من التأثيرات الثقافية التي تعلمتها ضمن ثقافة محيطك الذي تعيش فيه، والانتقال من المفهوم البدائي الشخصي أو الشائع إلى دقة ونقاء ورقيّ المفهوم القرآني ثم يليها:

3 – سور المستوى: ومفتاحه هو رفع مستوى فهم أي موضوع مطروح في النص الشريف من مستوى الفهم البسيط الفردي، إلى المستوى القيادي أو العالمي الكوني، وبعد سور المستوى تجد:

4 – سور المقصد: ومفتاحه معرفة بيت القصيد من المواضيع والقصص التي تجدها بين صفحات الكتاب الكريم ويليه:

5 – سور المسؤولية والاعتبار: ومفتاح بابه أن تتمثّل كلام الله جل جلاله وأن تعتبر به، وهذا السور يفتح لك إن تخليت عن آفة الاكتفاء وتعلمت من سيد المرسلين كيف كان (خُلُقُهُ القُرآنَ) [صحيح مسلم]، عند ذلك تجد نفسك أمام:

6 – سور الأسرار: والذي مفتاحه هو علوم الحرف والرقم، وهذا السور إن فتح لك تصل إلى:

7 – سور عظمة القرآن: والذي مفتاحه الأسماء الحسنى وعندها عسى أن يشملك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [يونس: 26].

والآن ... بعد وعيك وفهمك لهذه الأسوار، ما أحوجك أن تعي انك في آخر الزمان وأن تبادر بالتمسك بما جاء به نبي آخر الزمان عليه الصلاة والسلام الذي قال عنه سبحانه:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]. ؛ لا بد لنجاتك و أنت في آخر الزمان أن تكون من الذين:﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[محمد: 2]. ؛ لأنك إن نظرت إلى تاريخ الأمم والشعوب منذ بدء الخليقة وحتى بعثة نبينا عليه الصلاة والسلام تجد أن هذه البعثة بالنسبة للزمن الذي مضى قبلها كأنها سباق مع الزمن وحالة طوارئ؛ وذلك لقربها من نهاية العالم فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى» [صحيح مسلم]. وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم أمر مرسوم منذ الأزل ليكون خاتم النبيين.

عندما نبأ سبحانه أن محمداً خاتم النبيين، وعندما ذكّر عليه الصلاة والسلام من حوله مراراً بذلك، وعندما كان ذلك أمراً مفروغاً منه بالنسبة لهم، لم يكن ثمة ما يشير محلياً أو عالمياً إلى ذلك، بل كان العالم على حاله من تقلُّبات وإيقاعات منذ قرون.

ولكن إن تتبّع أي باحث متمكن من التاريخ أحوال الأمم قبل بعثة النبي وبعدها، فإنه سوف يصل إلى نتائج يقينية:

* فقبل البعثة: لم يطرأ على أحوال البشر والأمم والحضارات، طوال ألوف مديدة، تغيير في إيقاعها. وذلك بين نشأة أمة أو حضارة، وتطورها، وازدهارها، واتساعها، ثم انهيارها. أو المنحى نفسه في حضارة واحدة، من خلال السلالات الحاكمة، بين ازدهار وانحدار؛ وذلك كله ضمن رقعة تتسع لتضيق ثانية ولتعود منكمشة إلى مركز نشأتها.

* أما بعد بعثة خاتم النبيين، فقد بدأ كل شيء يتغيّر بتسارع شديد.

وذلك ابتداءً من انتشار عجائبي في سرعته لرقعة النفوذ الإسلامي، في عقود قليلة. نفوذ لم يكن اجتياحاً عابراً، بل حضارة متألقة قائمة على نهضة فكرية وعلمية استثنائية. ما يبرز

تلك النهضة العلمية خاصةً، هو قرون الجمود العلمي العالمي والذي سبقها.

بانتشار الإسلام، وبالقفزة العلمية النوعية الشاهقة التي صاحبته، بدأ عصر جديد في تاريخ البشرية لا سابق ولا شبيه له.

فقد كان للعلوم الإسلامية دور أساسي في تطوير الملاحة بحيث ارتبطت القارات ببعضها و انفتح العالم كله على بعضه و بشكل متسارع لا عودة له إلى حال الدنيا قبل البعثة.

لقد كان رسول الله هو خاتم النبيين ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: 40]؛ وبعد بعثته أصبح الزمن بتسارع مطرد ولم يعد هناك أنبياء بعده لأن نهاية البشرية ستكون بقيام الساعة التي قال عنها ربنا سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [النحل: 77].

وعندما تعي أنك، بالحقيقة، لست سوى نفساً عابرةً في هذا العالم لحكمةٍ ولمهمةٍ، وأن مصيرك في عالم آخر، عندها لم يعد تعرُّفك على القرآن الكريم مجرد مطالعة ثقافية، بل، ضرورة قصوى ومصيرية.

وقد وعيت تلك الضرورة المصيرية، فإنك لا تستطيع بثقافتك المعاصرة الخوض في القرآن الكريم والذي هو مختلفٌ في بنيته وكيفية طرح مواضيعه وعمقها الشاسع عن سائر ما سواه من الكتب.

وكذلك، فإنك لا تستطيع السماح لنفسك بالتخبط في كل ما كتبه الناس عن القرآن الكريم، أو الاسترسال في التجارب والتعلُّم من أخطائك الشخصية، إذ إن الزمن لم يعد يسمح بذلك.

الزمن في تسارع مضطرد. عبر عنه عليه الصلاة والسلام قائلاً: «لَا تَقُومُ السّاعَةُ حَتّى يَتَقَارَبَ الزّمَانُ فَتَكُونَ السّنَةُ كَالشّهْرِ وَيَكُونَ الشّهْرُ كَالْجُمُعَةِ وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسّاعَةِ وَتَكُونَ السّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السّعَفَةِ» [مسند أحمد].

الوقت والزمن في تسارع مضطرد وأنت في سباق مصيري مع الزمن، وفي هذا السباق لا بد من الاستعانة بخبرة مرشد حقيقي متجرِّد عن محدودية مرجعية نفسه تجرداً تاماً، لاعتماده عظمة حقيقة المرجعية الإلهية. والمتبرِّئ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، وحاله الدائم:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾ [الكهف: 82].

فلا بد لك إذاً، في ذلك السباق المصيري مع الزمن، من الاستعانة بخبرة مرشد.

ولكن، والأمر خطيرٌ ومصيريّ، فكيف السبيل لتمييز المرشد الحق عن غيره؟

المرشد الحق هو الذي يعلم تمام العلم إلى أين يصل الطريق الذي يسير عليه، والذي يرشد إليه.

المرشد الحق متجرّد عن مرجعيته الذاتية واعتماده الدائم هو المرجعية الإلهية، و دعمه لكل ما يقول بالبينة الجلية وبالدليل الساطع من كتاب الله ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وكل الأدلة التي يقدمها هي متطورة إلى الحد الأقصى، و رفضها إما غباءً أو مكابرةً بالمحسوس.

القرآن الكريم له أسوار منيعة، وآفاقه شاسعة! وأنت في زمن متسارع مضطرد. فما أحوجك، لا إلى مرشد تتأمله فحسب؛ بل إلى خبرة مرشد توظِّفها في الحال أحسن توظيف، خبرة تستدلُّ بها إلى أقصر الطرق الموصلة لفهم كلامه سبحانه.

أخيراً

اعلم وفقني الله وإياك لكل خير أن:

علمك أنك في آخر الزمان يجعلك تبادر بالتمسك بما جاء به نبي آخر الزمان عليه الصلاة والسلام، ويجعلك تجتهد وتجد لتجتاز بنور الله وهدايته الأسوار المنيعة لمعاني القرآن الكريم والتي لا يمكن لك الدخول إليها إن لم يجعل الله لك نوراً تهتدي به:

﴿.. وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

ولا بد لك وأنت في سباق مصيري مع الزمن من الاستعانة بخبرة مرشد تستدلُّ بها إلى أقصر الطرق الموصلة لفهم كلامه سبحانه.